

اشيخ أبوالعباس
أحمد بن خالد الناصري

كتاب
الاستفصال

لأخبار دولة المغرب الأقصى
الدولة العلوية
القسم الثالث
الجزء التاسع
 تحقيقه وتعليقه
الأستاذة
جعفر الناصري و محمد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لدار الكتاب

ساحة المسجد الحمدي
الدار البيضاء

1418هـ / 1997م

رقم إيداع القانوني والدولي
1399/96

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدولة العلوية

القسم الثالث

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام وأوليته ونشائه

كان المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله منذ نشأ وهو متمسك بالتقى والعفاف متصرف بالصيانة وجميل الأوصاف من الانقياض عن الخلق وملازمة العبادة والصوم وقيام الليل وترك ما لا يعني والجد في الأمور كلها حتى عرفت له هذه الشonestة وتطابقت على حبه ومدحه القلوب والألسنة ولما نشأ هذه النشأة الطيبة أقبل عليه عميه السلطان المولى سليمان رحمه الله وضمه إليه واعتنى بشأنه ورفع منزلته حتى علا أولاده ولما بعث أولاده إلى الحرمين الشريفين بقصد أداء فريضة الحج بعثه في جملتهم فظهر له في تلك السفرة من الورع والدين والتمسك بأسباب اليقين ما رفع قدره وأشاع بالصلاح ذكره وكان السلطان رحمه الله قد أعطاه بضاعة ينفقها في سفرته تلك ويستعين بها على حجه فلما آب من سفره أتى بالبضاعة إلى عميه وقال له : يا سيدي : «هذه البضاعة التي أعطيتني إنما أخذتها لأنفق منها إذا نفذ ما عندي ، وكانت معني بضاعة جمعتها بقصد إنفاقها في هذه الوجهة ، ولم أرد أن أخلطها بغيرها ، وقد حصلت الكفاية بها والحمد لله». فعجب عميه من شأنه وازداد محبة وغبطة فيه ورد له البضاعة وطبيها له ودعا له بخير . وكان في أول أمره مقيناً بتافيلالت ثم استقدمه السلطان المولى سليمان في آخر عمره وولاه بشفاعة الصويره وأعمالها

فقام بذلك أحسن قيام ثم استقدمه منها في فتنة ابني يزيد كما مر واستخلفه على حاضرة المغرب وأم أمصاره مدينة فاس فقررت بولايته العيون وطابت الأنفاس كل ذلك فعله به ترشیحاً للأمر وتقديماً له فيه على زيد وعمرو.

بيعة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمة الله

قد تقدم لنا أن السلطان المولى سليمان لما حضرته الوفاة جدد العهد لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام وبعث به إلى فاس ثم كانت وفاة السلطان عقب ذلك فوصل خبر وفاته إلى فاس في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف فحضر القاضي الشريف المولى أحمد بن عبد الملك والعلامة المفتى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم والتاجر الأمير الحاج الطالب ابن جلون وسائر أعيان فاس من العلماء والأشراف وغيرهم وحضر أعيان الودايا وقوادهم ولما قرئ العهد ترحموا على السلطان المولى سليمان وبايعوا للسلطان المولى عبد الرحمن وسلموا عليه بالخلافة وتم أمره وسر الناس بذلك خاصة وعامة ثم تراجعت على حضرته بيعة أهل الديوان وسائر الجنود وحل من الملك العزيز في ذلك السعود وكتبت البشائر بذلك إلى البلدان فوفدت بيعات أهل الأمصار وهداياهم ولم يتوقف عن هذه البيعة الشرعية أحد منهم واستبشر أهل المغرب بولايته وبيان لهم مصدق يمنه وسعادته بتواли الأمطار ورخص الأسعار والعافية آباء الليل وأطراف النهار، ولما تمت هذه البيعة المباركة وحصل ما ذكرنا من الأمن والعافية وحسن الحال والرفاهية، استوزر السلطان رحمة الله الفقيه العلامة الأديب أبا عبد الله محمد بن إدريس الفاسي فقال:

مولاي بشراك بالتأييد بشراكا	قد أكمل الله بالتوفيق سراكا
الفتح والنصر قد وافقك جيشهما	والسعادة واليمن قد حيا محياكا
الله ألبسك الإقبال تكرمة	وبالتقوى والنهى والعلم حلاكا
فراسة الملك المرحوم قد صدقـت	لما تفـرسـ فيـكـ حينـ ولاـكا

فأصبحا في حل من حسن مغناكا
فجاد بالقطر قطرًا فيه مأواكا
ثم وردت على السلطان تهنته عالم إفريقيا ومتفيها وأديبها الشيخ أبي
إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي بقصيدة يقول فيها:

أيروم خلق نقض مبرم عقه
لا تحسبن الله مخلف وعده
في الشاكرين له سوابع رفده
فاللوقت ينطق عن سعادة جده
وعليه تبكي الباكيات لفقده
منشورة طويت به في لحده
نوراً مبيناً يستضاءء برشهده
وينوه ترفل في ملابس مجده
تبقى السعادة للورى من بعده
للخافقين سرى تضوع رنده
والأولياً متنعمون بشهدته
واستمطروا نيل المنى من وده
في الناس يعدل عن مكارم جده
راق النواظر لؤلؤ في عقده
منهم فثارث الجمع حق لفرده
ذهب الزمان بعمره ويزيده
حتى ولو وفي العيان برده
فضل عظيم لا يحاط بسرده
والشرق من مصر لغاية حده
 أيامه للدين مطلع سعده
 عند الشريعة فهو بالغ قصده
 يرضون إلا باستدامة وقده

أعدت للدين والدنيا جمالهما
وزادك الغيث غوثاً في سحابيه
نصر من الرحمن جل لعبد
 وعدت به الأقدار وهي نوافذ
 والله أعلم حيث يجعل نصره
 فلتبس ثغر الهنا مستبشرأ
 أن يمض مولانا سليمان الرضا
 العلم والتقوى وكل فضيلة
 فلقد أقام لنا أبا زيد هدى
 لو لم يكن كفناً لما أوصى به
 سعدت به الأيام ثم أراد أن
 أعظم به نصراً يدوم سروره
 أهدى إلى الأعداء أقتل غصة
 فاستبشروا باليمن من مرضاته
 ما هو إلا ابن الرسول وهل فتى
 وتناسقت أسلافه كرمأ كما
 لا غرو أن جمع المحاسن كلها
 لا يأفك الخرافق حيث يقول قد
 فلكم وكم من آخر زمانأ له
 يا أهل فاس والمغارب كلها
 يهنيكم هذا الزمان فإن في
 العلم والتقوى وكل معظم
 النور أوقف منهم أتراهم

يُفْنِي الزَّمَانُ وَلَا فَنَاءَ لِخَلْدَهُ
 لَا تَنْقُضِي وَعْنَيَةً مِنْ عَنْهُ
 حَمَى الْوَرَى هَرَعُوا لِجَنَّةِ بَرَدَهُ
 عَزْمَاتِهِ فَالنَّصْرُ شَاحِذُ حَدَهُ
 لَمْ يَسِرْ إِلَّا فِي مَنَازِلِ سَعْدَهُ
 لِكَنْهُ فِي الْفَضْلِ عَادِمُ نَدَهُ
 وَالْحَمْدُ فِي بَدْءِ الْكَلَامِ وَعُودَهُ

الله يُبَقِّي نُورَهُ مُسْتَوْقَدًا
 وَيُخَصُّ مُولَانَا الْأَمِيرَ بِنَعْمَةٍ
 وَيُدِيمَهُ ظَلَّاً وَرِيفَأَ كَلْمَا
 وَحَسَامَ فَتْحِ كَلْمَا نَهَضَتْ بِهِ
 وَتَمَامَ بَدْرِ كَلْمَا اقْتَدَعَ السَّرَّى
 وَعَلَيْهِ تَسْلِيمٌ تَأْرِيخُ نَدَهُ
 ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ

اجتماع البرير على بيعة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام والسبب في ذلك

قد تقدم لنا أن البرير بعد وقعة ظيان اتفقوا على مناولة السلطان ومنابذته، وأنهم صاروا يداً واحدة عليه، وعلى كل من يتكلم بالعربية بال المغرب. فلما توفي السلطان المولى سليمان وبُويع السلطان المولى عبد الرحمن زاد البرير ذلك الحلف توكيداً وشدة، وأعدوا لعصيائهم وأعوجاجهم أكمل عدة، لا سيما رئيسهم الحاج محمد بن الغازي الزموري فإنه لما فعل فعلته في وقعة ظيان من جرة الهزيمة على المولى سليمان ثم عززها بأختها من بيعته للمولى إبراهيم بن يزيد، والإجلاب فيها بالقريب والبعيد، خاف أن يأخذه بذلك من يأتي بعده منبني أبيه وعشيرته، فجد في صرف وجوه البرير عن السلطان واستعوان في ذلك بأبيه بكر مهاوش فروض له رؤساء البرير حتى اجتمعوا كلّمتهم على أن لا يتركوا بأرض المغرب ذكراً للسلطان وحزبه، وربما شايّعهم على ذلك بعض غواة العرب مثل الصفافعة والتوازيط منبني حسن وزعير وجبل عرب تادلا، فلما أراد الله سبحانه نقض ما أبرموا ونشر ما جمعوا من ذلك ونظموا، جعل لذلك سبباً وهو أن الشيخ أبي عبد الله الدرقاوي كان مسجوناً عند الودايا كما تقدم في أخبار فتنة ابني يزيد واستمر في السجن

إلى أن بويع المولى عبد الرحمن، وكان ابن الغازي من أصحاب الشيخ المذكور وممن له فيه اعتقاد كبير فقد عليه أولاد الشيخ ونزلوا عليه لكي يسعى في تسريح والدهم وألحوا عليه فلم يجد بدأ من إظهار الطاعة للسلطان والدخول في الجماعة، فوفد على السلطان في جمع من وجوده قومه بهديتهم وبيعتهم، فلما رأى باقي البربر الذين حالفوه من آيت أدراسن وجروان أنه قدم على السلطان ظهر لهم خيانته فنبذوا ذلك العهد وسارعوا إلى بيعة السلطان وخدمته بأموالهم وأنفسهم، فقدم عليه الحسن بن حمو واعزيز كبير آيت أدراسن في وجوده قومه وأدى الطاعة، ودخل في حزب الجماعة، وعليه وعلى ابن الغازي كان يدور أمر البربر في ذلك الوقت، فخذل الله فيما بينهم وجمع كلمتهم على السلطان من غير ضرب ولا طعن ولا إيجاف بخبل ولا رجل، فقابلهم السلطان بغاية الإحسان لا سيما ابن الغازي فإنه استخلصه وجعله عمدة رأيه وعيية سيره حتى كان لا يقطع أمراً دونه بعد أن سرح له الشيخ أبا عبد الله الدرقاوي رحمة الله.

ثم إن السلطان زوج ابن الغازي بإحدى حظاياه عمه السلطان المرحوم وهي ابنة القائد عمر بن أبي ستة، فعلاً قدر ابن الغازي في الدولة بذلك واطمأن إلى السلطان بعد أن كان يسايره على أوفاز، وذهب معه إلى مراكش مرتين حسبما نذكره بعد إن شاء الله.

نهوض السلطان المولى عبد الرحمن لتفقد أحوال الرعية ووصوله إلى رباط الفتح

لما فرغ السلطان المولى عبد الرحمن رحمة الله من أمر الوفود والتهاني بحضوره فاس التفت إلى النظر في أحوال الرعية وتثقيف أطراف المملكة، فولى على فاس وصيغه أبا جمعة بن سالم الذي كان ببابا على الدار الكبرى بفاس الجديد، ثم لما عزم على السفر عزله وولى مكانه ابن عمه سيدى

محمد بن الطيب، ثم نهض من فاس الجديد بقصد تفقد الممالك فجعل طريقه على بلاد سفيان، وسار حتى وصل إلى قصر كتامة وعسكر هنالك بالكدية الإمامية، وبها وفد عليه المولى عبد السلام ابن السلطان المولى سليمان رحمة الله في جماعة من الأشراف والكتاب فيهم أبو عبد الله أكتسوس، وكان المولى عبد السلام المذكور قد قدم من تافيلالت إلى مراكش عقب وفاة والده بقصدأخذ البيعة على أهل مراكش لأخيه المولى عبد الواحد بن سليمان وكان قد بُويع بتافيلالت وأعطوه صفقة أيمانهم، فلما صادف المولى عبد السلام الأمر قد تم للسلطان المولى عبد الرحمن واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه سقط في يده فأعرض عنما جاء لأجله وتدارك أمره عند السلطان بالوفادة عليه والدخول في بيته.

قال أكتسوس: لما قدمنا على السلطان المولى عبد الرحمن من مراكش إلى قصر كتامة أمر بإدخالي عليه لشدة تشوفه إلى أخبار السلطان المرحوم. المولى سليمان، فدخلت عليه وجلست بين يديه نحو ساعتين، وسألني عن كل شادة وفادة قال: ثم دخلت عليه بعد صلاة المغرب وسألني عن بقية الأخبار ثم ذكر أولاد عمه السلطان المرحوم وقال: والله لا يرون مني إلا الخير، ثم بعد يومين أو ثلاثة نهض إلى رباط الفتح فاستقر بها ثم وفت عليه قبائل الحوز ورؤساؤها فعيده هنالك عبد الفطر من سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف، ثم رجع إلى فاس ومعه أعيان قبائل الحوز الذين وفدوه عليه ولما احتل بفاس قدم عليه عم المولى موسى بن محمد مع جماعة من أهل مراكش وفيهم المولى عبد الواحد بن سليمان المبایع بسجل ماسة فأكرمههم وأجلهم ولم يلم أحداً من شيعة المولى عبد الواحد ولكن عفا وصفح وقابل بالإحسان، ثم ولى على مراكش ابن عم المولى مبارك بن علي بن محمد وبعثه في صحبتهم فقدمها وتصرف في أمرها إلى أن كان منه ما ذكره، ثم أمر السلطان رحمة الله بشراء دار أبي محمد عبد السلام شقشاق الفاسي وكانت مجاورة لقبة المولى إدريس رضي الله عنه بينها وبين القيسارية، ثم

أمر بهدمها وزياقتها في مسجد المولى إدريس رضي الله عنه وجمع الصناع والعملة على ذلك فتألقوا فيه ما شاؤوا حتى جاء أحسن من المسجد القديم، وكان الذي تولى القيام على ذلك الشريف المولى الهاشمي بن ملوك البلغيني فكمل ذلك في مدة يسيرة على غاية من الإبداع والإتقان، وكتب الله أجر ذلك في صحيفة السلطان، وفي هذه المدة توفي الشيخ الأكبر العارف الأشهر أبو عبد الله سيدى محمد العربي بن أحمد الدرقاوى رضي الله عنه، وكانت وفاته ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من صفر سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف، ودفن يوم الثلاثاء بأبي بريع من بلاد غماره وقبره شهير، وكان رضي الله عنه عجيب الحال كبير الشأن ورسائله موجودة في أيدي الناس وله فيها نفس مبارك نفعنا الله به وبأمثاله.

خروج السلطان المولى عبد الرحمن إلى مكناسة ونقله آيت يمور إلى الحوز ومسيره إلى مراكش

لما سافر السلطان المولى عبد الرحمن السفرة الأولى إلى رباط الفتح كان قصده أن ينظر في أحوال الرعايا وما هي عليه حتى يكون على بصيرة فيما يأتي ويذر من أمرها، ثم لما عاد إلى فاس استعد الاستعداد التام بقصد تدويخ المغرب وتمهيد أقطاره ولم شعنه وتدارك رمهه إذ كانت الفتنة أيام الفترة قد أحالت حاله وكستت باله، وكان المولى مبارك بن علي صاحب مراكش قد استولت عليه بطانة السوء وكثرت به الشكایات إلى السلطان، فعزز السلطان رحمة الله على إعمال السفر إلى مراكش فخرج من فاس وقصد أولًا مكناسة فلما دنا منها خرج العبيد إلى لقائه بالأعلام مرفوعة على العصي وكانت جماعة يسيرة فقال لهم السلطان رحمة الله: أين جند عبيد البخاري فقالوا: هذه البركة التي وأشارتها الفتنة وعلى الله ثم عليك الخلف، فدخل السلطان رحمة الله مكناسة وتفقد بيت مالها فألقاه أنتى من الراحة ووجد العبيد على غاية من القلة والخصوصة حتى لقد باعوا الخيل والسلاح وأكلوا

أثمانها، فأتعشهم وجدد رسمهم وقواهم بالخيل والسلاح والجرaiات حتى
صلح أمرهم وذهب فقرهم.

قال صاحب الجيش: وحاصل الأمر أن هذا السلطان رحمة الله وجد
الدولة قد ترادرفت عليها الهزاهز، وصارت بعد حسن الشبيبة إلى قبح
العجائز، قد تفانت رجالها وضاق مجالها، وذلك من وقعة ظيان إلى موت
السلطان المولى سليمان، فلما جاء الله بهذا السلطان المؤيد لم يجد بها إلا
رمقاً قليلاً وخياراً علياً قد وهت دعائهما، وأشرفت على الانهدام المفضي
إلى حالة الانعدام، فأمده الله بضرور السعادة الخارقة للعادة، فقام بأعباتها
بلا مال ولا رجال والعناية من الله تساعده، والفشل يباعده، حتى أقام بناء
الملك الإسماعيلي على أساسه، ورد روحه إلى الجسد بعد خمود أنفاسه،
ولما قضى رحمة الله أربه من مكناة صرف عزمه إلى آيت يمور وكانوا
نازلين بجبل سلفات وبالولجة الطويلة من عهد السلطان سيدى محمد رحمة
الله فعفوا وكثروا وأطغاهم نزولهم بتلك الأرض العجيبة، ذات المزارع
الخصبية، فأضروا بغيرائهم من أهل زرهون وأهل الغرب وغيرهم، فأمر
السلطان رحمة الله القائد أبي عبد الله محمد بن يشو المالكي العروي أن
يحتال في كيادهم والإيقاع بهم ففعل وبقبض على نحو الأربعين منهم وبعث
بهم إلى السلطان، ثم نقلهم السلطان إلى حوز مراكش وسار إلى رباط الفتح
فاحتل به وعقد لأخيه المولى المأمون بن هشام على مراكش وولاه عليها
مكان المولى مبارك بن علي.

ثم خرج السلطان من رباط الفتح قاصداً مراكش فمر بقبائل الشاوية
وساس أمرهم بما اقتضاه الحال، وقتل الهاشمي بن العباس الزيني، وكان
هذا قد قتل قائد الشاوية أبي إسحاق إبراهيم الوراوي احتال عليه بأن دعاه
للاصطياد فلما خلا به رماه برصاصة فقتله بالموقع المعروف بتدارت قرب
مدیونة، فأمر السلطان رحمة الله بالهاشمي أن تضرب عنقه بذلك الموقع
وذلك بعد أن ولاه على قبيلته مدة، ثم مر بقبائل دكالة فأوقع بالعونات وتقدم
إلى مراكش، فلما دخلها بعث من جاء بمحمد بن سليمان الفاسي موقد نار

فتنة إبراهيم بن يزيد، فأتى به من سجن الجزيرة فضررت عنقه ونصب رأسه على باب الخميس من مراكش، وكان مسجونةً معه أبو عبد الله محمد الطيب البياز الفاسي فأخرجه السلطان من السجن ومنْ عليه إذ لم يكن على مذهب ابن سليمان بل كان صاحب مروءة وجد في الأمور ولذلك استخدمه السلطان رحمة الله فجعله أميناً على مرسى طنجة أولاً، ثم لاه على فاس ثانياً والله تعالى أعلم.

نكبة ابن الغازى الزموري وما آل إليه أمره

قد قدمنا أن الحاج محمد بن الغازى الزموري كان قد بايع السلطان المولى عبد الرحمن وسعى في سراح الشيخ أبي عبد الله الدرقاوى رضي الله عنه وأن السلطان استخلصه وصاهره بإحدى حظاياه عمه المولى سليمان رحمه الله لما وصل معه إلى مراكش، ثم اضطرب كلام أكتنسوس في أن السلطان قبض على ابن الغازى في أول قدمها معه إلى مراكش أو بعدها، وكان السبب في ذلك أن ابن الغازى المذكور كانت له دالة على السلطان قد جاوزت الحد الذي ينبغي أن تسير به الرعية مع الملك، وكانت عادته أن يحضر بالغداة والعشي إلى باب السلطان كغيره من كبار الدولة ووجوهاً على العادة في ذلك فلما كان في بعض الليالي وهو راجع إلى منزله رصده بعض العبيد بالطريق فرماه برصاصة فأخطأه فوصل إلى منزله وقد ارتات بالسلطان فمن دونه من أهل الدولة وحملته دالته على أن أطلق لسانه وأبرق وأرعد وتأنى وأوعد، ويبلغ ذلك السلطان فأغضى له عنها ثم أفضى به التهور إلى أن انقطع عن الحضور بباب السلطان غضباً على الدولة، فأطال له السلطان الرسن كي يرجع فلم يرجع، ويبلغ السلطان أنه يحتال في الفرار فعاجله بالقبض عليه وبعث به إلى جزيرة الصويرية التي هي سجن أهل الجرائم العظام فسجن بها مدة، ثم أصبح ذات يوم ميتاً وذلك في سنة أربعين ومائتين وألف على ما قيل.

وفي هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان رحمة الله وبني جنس الصاردو وهي ثمانية وعشرون شرطاً كلها ترجع إلى تمام الصلح ودوم الأمن والمجاملة في التجارات وسائر أنواع المخالفات، والثالث عشر منها يتضمن لزوم مراكب المسلمين أن تعمل الكرناتية إن تعين موجبها عند دخول مرسي من مراسى الصاردو وكذلك هم أيضاً.

ولاية الشريف سيدى محمد بن الطيب على تامسنا ودكالة وأعمالها

كان السلطان المولى عبد الرحمن رحمة الله قد ولى ابن عمه الشريف سيدى محمد بن الطيب بن محمد بن عبد الله على فاس فأقام بها مدة ثم وlah على قبائل تامسنا ودكالة بأسرها وفوض إليه النظر في أمرها، وكان سيدى محمد هذا ذا شدة وشकيمة على العصاة دوسري البتش حجاجي السيف، وكان قد اتخذ كلاباً ضخاماً تسمى بها العامة القناجر يوهن الناس أنه إذا عضب على أحد ألقاه إليها ففترسه، وكان ر بما جيء إليه بالجاني فيقوم إليه ويسأله ذبحه بيده حتى لقد حز أصبعه في ذبحه لبعض الجناء فقدم سيدى محمد هذا تامسنا وأوقع بأولاد حريز وقعة شناء، فقبض على جماعة كبيرة منهم وضرب منهم نحو مائتي رقبة وهدم قصبة كريزان الحريزي المسماة بمرجانة فتسامعت القبائل بسطوته فذعرروا واقشعرت جلودهم لهيبته، ثم زحف إلى دكالة ومعه بعض مساجين أهل تامسنا فلما وصل إلى شاطئ وادي آزمور أحضر أولئك المساجين فقطع البعض وقتل البعض، ثم عبر الوادي ونزل بازمور فازداد الناس رعباً منه وخشعوا له قبائل دكالة بأسرها، ثم تقدم إلى الجديدة فاحتل بها وكانت يومئذ خربة لا زالت على الهيبة التي فتحت عليها أيام السلطان سيدى محمد رحمة الله وكانت تسمى قبل الفتح بالبريجة فلما فتحت وتهدم صورها بالميلى صار الناس يسمونها بالمهدوة فأمر سيدى محمد بن الطيب ببناء سورها وترميم ما تلشى منها وسمها

الجديدة، وتهدد من يسميها بغير ذلك فسميت الجديدة من يومئذ، وهو الذي بنى القبة الصغرى مقابلة لباب المسجد الجامع بها.

ثم لما صفا للسلطان أمر هذه البلاد بسبب ابن الطيب وبسبب ما حدث في المغرب من الجوع الذي أهلك الناس وكاد يأتي عليهم بعنه إلى الصحراء لتدمير أهلها وجباية زكواتها وأعشارها، فذهب إليها وعاد مخففاً فولاه السلطان على وجدة فأقام بها يسيراً ورجع بلا طائل.

شروع السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله في غرس أجدال بحضور مراكش

لما صفا للسلطان رحمه الله أمر المغرب شرع في غرس أجدال غربي مراكش، وهو بستان عظيم جداً يشتمل على جنات كثيرة معروفة بحدودها وأسمائها وأكترتها، وتشتمل كل واحدة منها على نوع أو أنواع من الأشجار المثمرة النفاعة من زيتون ورمان وتفاح وليمون وعنبر وتين وجوز ولوز وغير ذلك، وكل نوع منها يغل ألوقاً في السنة بحيث أن غلة الليمون وحده تباع بخمسين ألفاً وأكثر إذا كانت صالحة، وفي خلال هذه الجنات من قطع الأزهار والرياحين والبقول المختلفة اللون والطعم والرائحة والخاصية ما لا يأتي عليه الحصر حتى أن منها ما لا يعرفه جل أهل المغرب ولا رأوه قط لكونه جلب من أقطار أخرى، وفي وسطه برك عظام تسير فيها القوارب والفلك وتصب فيه العيون كأمثال الأنهر ل斯基 تلك الجنات وعليه من الأرحاء شيء كثير وتلك البرك منها ما ضلعها الواحد يكون مائتين خطوة وأقل وأكثر، وفي داخله أيضاً من المنتزهات الكسرورية والقباب القيصرية والمقاعد المرسوانية ما يستوقف الطرف ويستفرق الوصف مثل دار الهناء، والدار البيضاء، والصالحة، والظاهرة وغير ذلك. ويتصل به جنان رضوان الفائق بحسنه وقبابه ومقاعده البهية على ذلك كله، والحاصل أن هذا البستان

جنة من جنان الدنيا يزري بشعب بوان وينسى ذكر عمدان إلى جنة المنارة والعافية وغير ذلك من منتزهات مراكش العجيبة التي أنشأتها هذه الدولة في إيان الإقبال والشبيبة.

ولما شرع السلطان رحمة الله في غرس هذا البستان جلب له العين الآية من بلاد مسفيوة المسماة بتاسلطانت وهي من أعزب العيون ماء وأخفها وأنفعها للبدن، وكانت مسفيوة متغلبة على هذه العين من لدن دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله يعمدون إليها بالليل فيفرقونها سوافي على جناتهم ومزارعهم فكان ذلك دأبهم إلى أن جاء السلطان المولى سليمان فأعيشه أمرهم فيها فأقطعهم إياها على ألف مثقال يؤدونه كل سنة فلما جاء السلطان المولى عبد الرحمن انتزعها منهم رغمًا عليهم وجاء بها تشق الوهاد والربى حتى أقت جرانها بأجدال السعيد، وعم نفعها وريها القريب منه والبعيد، وفي ذلك يقول الوزير أبو عبد الله محمد بن إدريس رحمة الله:

وردت وكان لها السعد مقصورة على مواجهها	والحسن مقصورة على مواجهها
ويبدت طلائع بشرها من قبلها	كالشمس طالعة لدى أبراجها
وتسرير ما بين الأباطح والربى	ترمي فريد الدر من أمواجهها
وتصوغ من صافي النضار سباتها	حلت بها الأعطاف من أثابها
هيقطت إليك من الجبال وطالما	تعبت ملوك الأرض في إخراجها
وأتنبك راغبة تجر ذيولها	وففيض غمر النيل من أفواجها
تنساب مثل الأفعوان وتشني	كالغضن بين وهادها وفجاجها
خطب الملوك نكاها فتمنعت	وأتنبك واهبة حلال زواجهها
فلتهنك الخود الرفيع فخارها	وليئنها أن صرت من أزواجها
حراء عباسية بدوية	نشرت ذوابتها على دياباجها
وافتكم وافدة وقد صبغ الحياة	وجناتها وجري على أدراجها
فكأنها بلقيس جاءت صرحها	لكنه صرح بغير زجاجها
عرفت أناملك الشريفة أحرا	غرقت بحار الأرض في عجاجها

فأنتك طالبة الأمان لنفسها
 لتنازل بعض الطيب من شجاجها
 لبتك إذ سمعت نداك وأقبلت
 مرهوبة تسترن من إزعاجها
 ونزعتها بالقهر من غصابها والسابقون رضوا ببعض خراجها
 وأعلم أن هذه الأخبار التي سردنها من أول هذه الدولة السعيدة إلى هنا
 تبعنا في جلها أبا عبد الله أكتنسوس، وقد ساقها رحمة الله مجردة عن التاريخ
 الذي هو المقصود بالذات من الفن، ونحن لما لم نتعثر في الوقت على ما
 يتحقق لنا تواريختها ربناها بحسب ما أدى إليه الفكر والرواية، وأثبتناها لثلا
 تذهب فائتها بالكلية، وعلى كل حال فهي في حدود الأربعين من مائة
 التاريخ والله أعلم.

ولاية القائد أبي العلاء إدريس بن حمان الجراري على وجدة وأعمالها

قد قدمنا أن السلطان المولى عبد الرحمن رحمة الله كان قد ولَى ابن عمه
 سيدِي محمد بن الطيب على وجدة ورجع عنها بلا طائل، وكانت ولاية هذا
 الشغر عند السلطان من أهم الولايات وأخصها بمزيد الاعتناء لبعدها عن دار
 الملك ومتاخمتها لمملكة الترك، فكانت ثغراً من الثغور، ولكرشة قبائلها
 واختلاف آراء أهلها وتعدد عصبياتهم في العرب والبربر، ففكَر السلطان
 رحمة الله فيمن يكفيه هذا المهم ويُسد له هذا المسد فوق اختياره على القائد
 الأنجد أبي العلاء إدريس بن حمان بن العربي الودبي الجراري فرمَّاها به
 وجعل أمرها إليه وعول في شأنها عليه، وكان هذا الرجل نسيج وحده وقريع
 دهره في جودة الرأي وإدارة الأمور على وجهها وإجرائها على مقتضى
 صوابها ومحبة السلطان ونصحه فولاه عليها في أوائل سنة ثلاثة وأربعين
 ومائتين وألف، فقام بأمرها أحسن قيام، واستوفى جبائية أهل المداشر منها
 والخيام، ثم حمله نصحه وصدق خدمته على أن يستأذن السلطان في أن
 يكون يكاتبَه بجميع ما يحدث في تلك البلاد من الأمور الداخلة في الدولة

والخارجية عنها ليكون السلطان على باى من ذلك الثغر، فاستأذن في ذلك بواسطة الوزير أبي عبد الله بن إدريس فكان من جواب الوزير له أن قال حسبيما وفقت عليه بخطه: إني أخبرت سيدنا المنصور بالله بما كتبت في شأنه فأعجبه ذلك وقال: لا بأس به ول يكن خفيًّا من غير شعور أحد ليطلع سيدنا على الأمور ويكون على بصيرة فيها فلا تقصـر في ذلك واجتهـد في إصلاح ما ولاك وأعظم ذلك وأهمـه أمان الطريق، و Hammond الفتنة، حتى لا يصلـ من تلك الناحية إلاـ التـير فـانت من فـضل الله ذو رـأـي وبـصـيرـةـ بالـأـمـورـ وـخـصـوصـاـ تـلكـ النـواـحيـ واللهـ يـوـفقـكـ وـيـسـدـدـكـ، وـهـذـهـ النـواـحيـ بـخـيـرـ وـعـافـيـةـ وـفـيـ نـعـمـ منـ اللهـ وـافـيـةـ قـدـ نـزـلـ فـيـهاـ المـطـرـ الغـزـيرـ وـكـثـرـ الـخـصـبـ وـحـرـثـ النـاسـ الـحرـثـ الـكـثـيرـ، وـسـيـدـنـاـ بـمـكـنـاسـةـ الـزـيـتونـ وـلـاـ مـاـ يـشـوـشـ الـبـالـ غـيـرـ أـنـ وـالـدـتـهـ الـمـقـدـسـةـ صـارـتـ إـلـىـ عـفـوـ اللهـ وـرـحـمـتـهـ وـذـلـكـ قـبـلـ تـارـيـخـهـ بـشـهـرـ وـنـحـنـ عـلـىـ الـمحـبـةـ وـالـسـلـامـ، فـيـ الـخـامـسـ وـالـعـشـرـينـ مـنـ جـمـادـيـ الـثـانـيـةـ سـنـةـ ثـلـاثـ وـأـرـبـعـينـ وـمـائـيـنـ وـأـلـفـ، مـحـمـدـ بـنـ إـدـرـيسـ لـطـفـ اللهـ بـهـ اـنـتـهـيـ لـفـظـ الـكـتـابـ الـمـذـكـورـ.

وفي هذه المدة كان السلطان رحـمهـ اللهـ قد استعملـ الشـيـخـ أـبـا زـيـانـ بـنـ الشـاوـيـ الأـحـلـافـيـ عـلـىـ تـازـاـ وـأـعـمـالـهـ وـأـوـصـاهـ بـالـتـعاـونـ عـلـىـ أـمـرـ الـخـدـمـةـ السـلـطـانـيـةـ بـالـقـائـدـ إـدـرـيسـ فـكـانـاـ فـيـ إـدـارـةـ الـأـمـورـ بـتـلـكـ النـواـحيـ كـفـرـسـيـ رـهـانـ، وـلـكـنـ التـبـرـيزـ إـنـمـاـ هوـ لـلـقـائـدـ إـدـرـيسـ، وـلـمـ دـخـلـ رـمـضـانـ مـنـ السـنـةـ المـذـكـورـةـ عـزـمـ السـلـطـانـ رـحـمـهـ اللهـ عـلـىـ الـمـسـيرـ إـلـىـ بـلـادـ الشـرـقـ وـجـدـةـ وـأـعـمـالـهـ لـلـوقـوفـ عـلـىـ تـلـكـ التـخـومـ بـنـفـسـهـ وـالـنـظـرـ فـيـ أـمـورـهـاـ بـرـأـيـهـ إـذـ لمـ يـكـنـ وـطـأـهـ قـبـلـ ذـلـكـ، فـاـسـتـفـرـ الـقـبـائـلـ لـحـضـورـ عـيـدـ الـفـطـرـ وـالـنـهـوـضـ إـلـيـهاـ، وـلـمـ حـضـرـ العـيـدـ وـفـدـ عـلـىـ السـلـطـانـ جـمـاعـةـ مـنـ بـنـيـ يـزـنـاسـنـ وـعـرـبـ آـنـقـادـ فـيـاـنـهـمـ رـحـمـهـ اللهـ عـنـ حـالـ بـلـادـهـمـ، فـشـكـواـ قـلـةـ الـخـصـبـ فـصـدـهـ ذـلـكـ عـنـ الـمـسـيرـ إـلـيـهـمـ وـوـعـدـهـ بـأـنـ سـيـطـاـ أـرـضـهـمـ مـنـ الـعـامـ الـقـابـلـ فـيـ أـوـلـ يـنـايـرـ، ثـمـ صـرـفـ رـحـمـهـ اللهـ وـجـهـتـهـ تـلـكـ إـلـىـ التـطـوـافـ عـلـىـ مـرـاسـيـ الـمـغـرـبـ وـالـنـظـرـ فـيـ أـمـورـهـاـ وـإـحـيـاءـ مـرـاسـيـ الـجـهـادـ بـهـاـ، فـخـرـجـ مـنـ مـكـنـاسـ مـنـتـصـفـ شـوـالـ مـنـ السـنـةـ أـعـنـيـ سـنـةـ ثـلـاثـ وـأـرـبـعـينـ وـمـائـيـنـ وـأـلـفـ، فـمـرـ بـأـرـضـاتـ مـنـ أـعـمـالـ وـازـانـ وـصـارـ إـلـىـ تـطـاوـيـنـ ثـمـ إـلـىـ طـنـجـةـ ثـمـ

آصيلا وزار وليها أبا عبد الله محمد بن مرزوق وتبrik به ثم مر بالعرائش وهكذا تتبع الشغور ثغراً ثغراً إلى آسفي، وفي أثناء ذلك ورد عليه الخبر بانتقاض الشرارة على المولى المأمون صاحب مراكش وخروجهم عن الطاعة وإفسادهم السابلة ونهبهم الرفاق، وأبدؤوا في ذلك وأعادوا حتى كانوا يصلون إلى جنات مراكش، فسد السلطان رحمة الله قصده نحوهم وكان من أمره معهم ما ذكره.

فتح زاوية الشراذى والسبب الداعي إلى غزوها

قد قدمنا ما كان من أمر المهدي بن الشراذى الزرارى مع السلطان المولى سليمان رحمة الله بما فيه كفاية، ثم لما بويع السلطان المولى عبد الرحمن باييه المهدي في جملة الناس، ولما قدم السلطان مراكش قدمته الأولى لقيه الشرارة في خمسمائة فارس بمشروع ابن حمى مؤدين الطاعة ففرح السلطان بهم وأكرم وفادتهم، ولما عزموا على الرجوع كان في جملة ما قال لهم السلطان رحمة الله: «إن ما فات قد مات، وما نهب في أيام الفتنة فهو هدر، ومن الآن من فعل شيئاً يخاف على نفسه». فرجع الشرارة إلى بلادهم وعيد السلطان بمراش عيد المولد فحضرت الوفود وحضر الشرارة في جملتهم وساقوا للسلطان خمسة عشر جملأً من الكتان وخمسة أحمال من الملف وأربعة آلاف مثقال عيناً مما كانوا نهبوه من صاكة الصويرة قبيل وفاة السلطان العولى سليمان رحمة الله حسبما أشرنا إليه قبل، فكان من تمام إحسان السلطان إليهم وتأنفه إياهم أن قال لهم: «افترضوا لي مائتي فارس منكم تذهب إلى درعة، وهذا الكتان والملف هو كسوتهم والمال صائرهم». ففعلوا، وكساهم السلطان وأنعم عليهم، ثم لما ولى أخاه المولى المأمون على مراكش مرضوا في طاعته ودعا المهدي تهوره إلى أن شكاه إلى السلطان وهو بمكناسة يومئذ، ويعد عليه بأنه يأخذ منهم الزكوات والأعشار على غير وجهها الشرعي، وأنه ولـي عليهم أربعة عمال أو خمسة عوض عامل واحد

كان يتولى عليهم، فأغضى السلطان عن ذلك وبالغ في الآنة القول له في كتابه ووعله بأنه إذا وصل إلى مراكش يشكى من أخيه، وفي أثناء ذلك وقبل وصول كتاب السلطان إليه أغري إخوانه بالخروج عن طاعة السلطان، والاشتغال بما يسخط الله ويرضي الشيطان، فانبثت خيولهم في الطرقات ومخروها مخراً وانتسفوها نسفاً، وعمدوا إلى قواهم الذين ولاهم المولى المأمون عليهم فقبضوا عليهم وأودعوهم السجن واتهبا دورهم، ووصل المسافرون والتجار إلى باب السلطان مجردین عراة يشكون ما دهمهم من أمر الشرادة، وتکاثر عليه شذاؤهم، فحيثند استائف السلطان جده وأرهف حده وكتب إلى أخيه المولى المأمون باستفار قبائل الحوز وجمعها عليه حتى يقدم عليه، وسار السلطان في جيش العبيد والودايا وأیت أدراسن وزمور وعرببني حسن وبني مالك وسفيان، وكتب إلى الشاوية ودکالة أن تكون خيلهم معدة حين يمر بهم، وكان المهدى قد عظم ناموسه وتمكن من جهله قومه وكاد يتجاوزهم إلى غيرهم حتى صار يعرض أو يصرح بأنه المهدى المنتظر، وكان السبب الأقوى في طغيانه وطغيان قومه ما اتفق له في هزيمة السلطان المولى سليمان رحمة الله فظن المهدى وشراورته أن لا غالب لهم من الله، ولما برق السلطان رحمة الله من رباط الفتح لقيه ركب الحجاج الذين انتبهم هشتوكة والشياظمة الذين بأحواز آزمور، وكانت العادة يومئذ بالغرب أن ركاب الحاج تأتي من آفاق المغرب فتجمعت بفاس ومنها يخرج الركب على الهيئة المعهودة في ذلك الزمان، فلما وصل هؤلاء الحجاج من أهل السوس وغيرهم إلى الشياظمة انتبهوهم وجردوهم من المحيط والمحيط، فسمع السلطان رحمة الله شكوكهم وامتنع شنعوا بالوضع المعروف بفرقة من أعمال آزمور حتى كانوا يلقون أنفسهم في البحر طلياً للنجاة بعد أن أثروا في المحل أول النهار، ثم كانت الكارة عليهم وحكم السلطان السيف في رقبتهم وامتلأت أيدي العسكر من أنائهم وماشيتهم، وكانت هذه الواقعة طليعة الفتح ومقدمة الظفر، ثم عبر إلى آزمور ومنها إلى الجديدة، ثم سار مع الساحل

حتى وصل إلى آسفي فزار الشيخ أبا محمد صالح رضي الله عنه وعطف إلى الزاوية الشرادية فبغتها وطلعت عليها رأياته المنصورة بالله مع الصباح ولم يخرج على مراكش وقبل نزول الجيش وضرب الأخيبة أنشبت الحرب معهم فتقاتلوا وتحاجزوا مع الظهر وكان الزمان زمان مصيف ودامت الحرب سبعة أيام، ونصب عليهم السلطان المدافع والمهاريس العظام، وفي اليوم الخامس من تلك الأيام كان عيد المولد الكريم يوم الأربعاء من سنة أربع وأربعين ومائتين وألف فأراد السلطان رحمة الله أن يغçi الناس من الحرب ذلك اليوم فحمل الشرارة طغيانهم وبغيهم على أن تقدموا للجيش وأنشروا الحرب فأمر السلطان بالزحف إليهم والنكبة فيهم، وكان المعلم الأكبر أبو عبد الله محمد بن عبد الله ملاح السلاوي حاضراً في هذه الواقعة فتقدم إليه السلطان بالوصاية بالجذ والاجتهد في الرمي فرمى عليهم في ذلك اليوم مائتين وثمانين بنية كلها في وسط الزاوية تتفرقع عند نزولها فتأتي على ما جاورها من جدار وغيره حتى شاهدوا في ذلك اليوم الموت الأحمر وكانوا هم أيضاً يرمون بالكور والبنب من المدافع والمهاريس التي استولوا عليها في محلة السلطان المولى سليمان، ثم لما كان عشي الجمعة السابع من أيام الحرب افترقت كلمتهم وعزم المهدي على الفرار فقال له أصحابه: كيف تفر وتركتنا وأين ما كنت تعدنا؟! فقال لهم: أما أنتم فالذي أورثكم أسلافكم هو الخدمة مع السلطان فلا تستنكفوا منها، وأما أنا فالذي عندي وسمعته من أبيائي أن الحرب تدوم على هذه القرية سبعة أيام ثم يستولي عليها السلطان الذي يجيء من ناحية البحر وهو هذا، في كلام آخر تكهن لهم فيه واعتقد الجهة صدقه بعد أن أتلقوه عليه نفوسهم وأموالهم، ومن يضل الله فما له من هاد، ولما جن الليل ركب فيما قيل على حمار وركب معه شرذمة من أصحابه نحو العشرين فارساً فشييعوه إلى الموضع المعروف بتيزكي فودعهم وذهب إلى السوس بعد أن سفك الدم الحرام وانتهب المال الحرام وملأ صحيفته من الآثام، نسأل الله العفو والعافية، ولما فر المهدي عنهم تفرقوا شئر مذر وباتوا يتحملون بنسائهم وأولادهم إلى منجاتهم والذين صعب عليهم الخروج

اجتمعوا وساروا إلى القواد الأربعه فسرحوهم ورغبوا إليهم في الوساطة عند السلطان فأصبحوا على أطراف المحلة يستأذنون على المولى المأمون، فاذن لهم ودخلوا عليه وشفعوا فيمن بقي منهم وطلبو الأمان فأمنهم، ثم تقدموا إلى السلطان فاستأذنوا فاذن لهم ودخلوا وأخبروا بما عقد لهم المولى المأمون من الأمان فامضاه لهم، ثم أمر السلطان بجمع الشرارة الذين بقوا بالقصبة فجمع له منهم نحو الألفين وعاثت الجيوش في بيوتهم وأمتعتهم.

وقيل: إن السلطان رحمة الله لم يؤمنهم ولما قبض عليهم عزم على تحكيم السيف في رقبتهم فاستفتى العلماء فيهم فتحاموا الإفتاء ببراءة الدم حتى أن منهم من أفتى وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن المرابط المراكشي بأنهم تابوا قبل القدرة عليهم، فتوقف السلطان رحمة الله عن قتلهم، وكان وقافاً عند الحق دائراً مع الشعري حيث دار، ثم أمر رحمة الله بالاحتياط على عيال المهدي وأولاده فاحتنيط عليهم فجيء بهم إليه ويعثهم إلى مكناسة فأنزلوا بدار القائد محمد بن الشاهد البخاري الذي هلك في وقعة آعليل مع السلطان المولى سليمان، وأمر السلطان بسور القصبة فهدم إبراراً لقسمه وحيزت المدافن والمهاريس التي كانت منصوبة عليه، ولما انقضى أمر الحرب وتم الفتح هلك المعلم محمد ملاح نفطت فيه بنية فقتلته وقتلت جماعة معه، فوقف السلطان عليه بنفسه حتى أقرب وأحسن إلى أولاده بعد ذلك. ورأيت بخط الوزير ابن إدريس في بعض مكاتيبه ما نصه: «واعلم أن الله سبحانه قد فتح علينا الزاوية الشرادية وأهلك أهلها الظالمين، ولم تبق لهم باقية ولا زالت العساكر مقيمة على هدمها وتخربيها، وقد قبض منهم على أكثر من ستمائة رجل وربحت الناس بما وجدت فيها من الآثار والذخائر والأنعام» اهـ.

ثم إن السلطان رحمة الله فرق مساجين الشواردة فسجن بعضهم ببرياط
الفتح، وبعضهم بمكناسة، وبعضهم بفاس، ثم بعد مضي نحو السنة سرحهم
ونقلهم إلى بسيط آزغار وجمع إخوانهم من القبائل فضمهم إليهم ولا زالوا

موطنين به إلى الآن، وأما المهدي فإنه ذهب إلى السوس وانتهى إلى آيت باعمران من ولتيته فنزل على مرابطها أبي عبد الله محمد آعجلي البااعمراني واستمر عنده ثلاثة سنين وضاقت عليه الأرض بما رحب، ثم بعث من شفع له عند أمير المؤمنين فقبل السلطان شفاعته وجاء المهدي في قيده إلى أن دخل على السلطان بمراكش وبكي أمامه وتضرع فسامحه السلطان، ثم بعثه إلى مكناسة فاجتمع بأولاده وبعد مدة يسيرة ولأه السلطان على إخوانه.

قال أكتنسوس: عاملهم بالإساءة فعادت محبتهم له عداوة وضجوا إلى السلطان منه فعزله، ثم حج المهدي بإذن السلطان ورجع فولاه أيضاً فلم يقلوه، ثم سجن ثم سرح وتقلبت به الأحوال وتأخرت وفاته إلى أوائل شوال من سنة ثلاثة وستين ومائتين وألف في أول دولة سلطان العصر وإمام النصر أمير المؤمنين المولى الحسن بن محمد رضي الله عنه، ولما تم فتح الزاوية المذكورة قال شعراء العصر في ذلك فمنهم الفقيه الأديب أبو عبد الله أكتنسوس قال:

<p>كأن سميهَا فتن مروح يباكرها هتون أو يروح فتروح في مضمنها فتروح تدليل له المباسم أو تبيح ويسري في الجمام بهن روح به من قبل وقعتها جروح لعزّة قدره شرف صريح فساد به لنا الدين السميح تشق له المجاسد إذ تنوح وكانت لا ينهنها قبيح فسحقاً حين تصرعه الجموع غوى للضلال له جنوح</p>	<p>بشائر لا تحيط بها الشروح سقى ربع البشير بها غمام تفديه المحافل وهو يشدو وتتأمل أن تقبيله الغوانبي بشائر كاد يسمعها دفين شفى المولى المؤيد كل صدر وأدراك ثار عصبيه وأضحي لقد حسم الفساد بكل أرض وزر على زارة كل خزي وقد كانت تصر على ازورار ومن كانت مراكبه جمaha أتبع لهم لحينهم جهول</p>
--	--

ويظهر أنه البر النصوح
حديثاً كان مصدره سطحي
فمن يدعوه مهدياً وقول
كذا الدجال يهلكه المسيح
على أطلالها البوم السنين
عليل العرض جؤجؤه صحيح
فيغدر بالفرار ولا جريح
يبوء به الفتى موت مريح
سيدركه الهزيز المستبيح
تخوض إليه سلهمة سبوع
تدركه المعاقل والصروج
وجاد لنا به الزمن الشحيح
بصوته وتم له الوضوح
يزيل به الضلال أو يزيف
فلاح على الخلائق منه بروح
وكان على مناظرها كلوج
إلى العلياء مسعاه نجح
برأي كل مدركه رجح
واسحات الفخار لديه جوح
وجاهك في المهم لنا فسبع
ولاح لعدلك الوجه الملبيح
وطاعتكم السفين وانت نوح
تؤمنه فمشريه نشوح
وهب لها من الطغيان روح
كتائب كالسحاب إذا تلوح
بجيشه كلهم بطل مشيخ

يقودهم إلى العصيان سراً
يحدثهم إذا ما حم خطب
هو الدجال في سمت و فعل
فأهلتك الإمام فكان عيسى
فصير دار منعه فلاتاً
وفر عن الذمار على حمار
فيالئوم الذليل فلا وهين
وخير من جبأة في هوان
أيطعم في النجا فلانجة
إذا كان الشراب له بحرار
ستدركه العزائم من إمام
إمام قد أعاد لنا سروراً
أعز الله ملكبني علي
وجرد من جلالته حساماً
وقد كان الخلاق في ظلام
وأصبحت الأباطح باسمات
أعز معود للنصر ساع
يحاطر في منال العز دأباً
فرييات السعود عليه نشر
أبا زيد فأنت لنا ملاذ
فقد زانت مأثرك الليالي
وهذا الدهر كالطفوان موجاً
وأنت خليفة الرحمن من لا
كما أن الشبانة حين زاغت
عصفت عليهم باليأس تزجي
فالقيت الجران على ذراهم

أسيير أو كسيير أو ذبيح
 ودورهم كما قسم الوطيط
 بني سعد وزيدان نطيح
 لغير الحزم طرفهم الطموح
 لحدكم نجيدهم سفوح
 بصفح ربما ندم الصفوح
 طريأ بالمحاور أو يقيح
 ومجدك من مفارقها يفوح
 ومن ذلك قول بعضهم ولعله الفقيه أبو محمد عبد الله الديلمي قال:
 كالوصل ينسخ دولة الهرجان
 فتقاصرت عنها خطأ الأذهان
 أترى البغاث تفوت ما لعقبان
 لاح الصباح لمن له عينان
 أطالب البرهان بالبرهان
 يشفي البريء به ويشفى الجاني
 كزيارة فمضى إلى الخسران
 يوم الكفاح إذا التقى الجمعان
 لو أنهم صعدوا إلى كيوان
 فكانهم غصبوا أبا غبشان
 وتهد وطأته ذرى ثهلان
 لا تختفي عن أعين العميان
 يسلو الغريب بها عن الأوطان
 إلا بفضل نداكم الهاean
 تكميل شكل العين بالإنسان
 وتخف كالبشرى على الآذان
 وأقامت ميلة عطفه الكسان

فجاء العفو منك وهم ثلاثة
 وقد قسمت بلادهم بعدل
 وقد نظمت مكايدهم قدّيماً
 فظنوا آل إسماعيل يرثون
 وما علموا بأنكم سيف
 أبا زيد إذا تبقى عليهم
 فلا تحلم فإن الجرح يكتوي
 فلا زالت بك الدنيا عروسًا
 بشرى تقر بأعين الإيمان
 جاد الزمان بها على مقداركم
 أين المفر لمن عنا عن أمركم
 الأمر أمر الله غير منازع
 يا من يطالب أمرهم بدلائل
 إن كنت تجهل فالحسام معلم
 كم من غوى قد عتا عن أمرهم
 أين المفر لمن عنا عن أمركم
 لم يمنع الأعداء منهم معقل
 لكنهم بازوا بأحسن صفة
 جيش تسد وفوده مسرى الصبا
 يا مالكا ملا الوجود محاسناً
 أجريت بين المعتقدين مكارماً
 لو قيل للغيث اعترف لم يعترف
 إنسان عين الدهر أنت وإنما
 ذكرك بالأفواه تعذب كاللما
 أيقظت جفن الحق من إغفائه

وعن اطاعة أمرك الثقلان
وصروفه لكم من العبدان
كان القضاء لكم من الأعوان
فللذا دعيت بعبد الرحمن
فجريت في الآمال طوع عنان
من فرط حبك غبت عن أوطاني
من جودكم أرد الفرات الثاني
مقبوسة عنها يد الحدثان
ألقى لك الزمن العصى زمامه
فالدهر دونك دافع ومدافع
فيما أشرتم في الزمان لمقصد
أخلصت للرحمي في طاعاته
القيت رحلي في ذراك مخيماً
وتركت أوطاني وجنت وإنما
يا ليت قومي يعلمون بأنني
لا زلت في أسعد مبوسطة

واستمر السلطان مقيماً بمراكش مدة طويلة وبعث أخيه المولى
المأمون بن هشام لقطر السوس فجاءه.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين وألف ففي شعبان منها عقد
السلطان الصلح مع جنس النابريال ويقال له: استرياك وهي اثنا عشر شرطاً
مضمنها المخالطة بالبيع والشراء وغير ذلك مع الأمان والاحترام من الجانبين
والآخر منها مضمنه الصلح الدائم على هذه الشروط لا يفسده أمر يحدث
بعده ولا يقع فيه زيادة ولا نقصان، ثم حدث الفتنة عقب هذا بيسير على ما
ذكره.

هجوم جنس النابريال على ثغر العرائش والسبب في ذلك

قد قدمتنا أن السلطان المولى عبد الرحمن رحمة الله قد طاف في آخر
سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف على ثغور المغرب ومراسيه وأنه أراد إحياء
سنة الجهاد في البحر التي كان أغفلها السلطان المولى سليمان رحمة الله،
وأمر أعني المولى عبد الرحمن بإنشاء أساسيات تضم إلى ما كان قد بقي من
آثار جده سيدي محمد بن عبد الله وأذن لرؤساء البحار من أهل العدوتين

سلا ورباط الفتح أن يخرجوها في القرacsين الجهادية للتطواف بسواحل المغرب وماجاورها، فخرج الرئيس الحاج عبد الرحمن باركاش وال الحاج عبد الرحمن بريطل، فصادفوا بعض مراكب النابريال فاستاقوها غنيمة إذ لم يجدوا معها ورقة الباصبورط المعهودة عندهم، وعشروا فيها على شيء كثير من الزيت وغيرها، وكان بعضها قد جيء به إلى مرسى العدوتين وبعضها إلى مرسى العرائش، فهجم النابريال على مرسى العرائش بستة قراصين يوم الأربعاء الثالث من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين وألف، ورمي عليها من الكور شيئاً كثيراً من الضحى إلى الأصفار، وعمد في أثناء ذلك إلى سبعة قوارب فشحنها بنحو خمسمائة من العسكر ونزلوا إلى البر من جهة الموضع المعروف بالمقصورة وتقدموا صفوافاً قد انتصب بعضهم في بعض بمحاطيف من حديد لثلا يغروا ومشوا إلى مراكب السلطان التي كانت مرسة بداخل الوادي وهم يقرعون طنابيرهم ويصرون ومراكبهم التي في البحر ترمي بالضوبي مع امتداد الوادي لتمنع من يريد العبور إليهم فانتهوا إلى المراكب وأوقدوا فيها النار وقصدوا بذلك أخذ ثارهم فيما انتزع منهم فلم يكن إلا كلاماً ولا حتى اثنال عليهم المسلمين من كل جهة من أهل الساحل وغيرهم وعبر إليهم أهل العرائش وأحوازها سباحاً في الوادي وعلى ظهر الفلك إلى أن خالطوهם وفتكتوا فيهم فتكة بكرة، وكان هنالك جملة من الحصادة يحصدون الزروع في الفدن فشهدوا الواقعة وأبلوا بلاء حسناً حتى كانوا يحتزون رؤوس النابريال بمناجلهم، وقد ذكر منويل هذه الواقعة ويسطها وقال: إن النابريال قتل منهم ثلاثة وأربعون سوى الأسرى وتركوا مدفأعاً واحداً وشيئاً كثيراً من العدة وأفلت الباقى منهم إلى مراكبهم وذهبوا يلتقطون وراءهم.

واعلم أن هذه الواقعة هي التي كانت سبباً في إعراض السلطان المولى عبد الرحمن عن الغزو في البحر والاعتناء بشأنه، فإنه رحمه الله لما أراد إحياء هذه السنة صادف إبان قيام شوكة الفرنج ووفور عددهم وأدواتهم

البحرية وصار الغزو في البحر يثير الخصومة والدفاع والتجادل والنزاع ويهدىج الضغن بين الدولة العلية ودول الأجناس الموالية لها حتى كاد عقد المهادنة ينفصّم، وأكّد ذلك اتفاق استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وهو ما هو فوجم السلطان رحمة الله وأعمل فكره ورويته فظاهر له التوقف عن أمر البحر رعياً للمصلحة الواقية ولقلة المنفعة العائدّة من غزو المراكب الإسلامية، وانضم إلى ذلك إعلان الدول الكبار من الفرننج مثل النجليز والفرنسيس بأن لا تكون المراكب إلا لمن يقوم بضبط قوانين البحر التي يستقيم بها أمره وتحمد معها العاقبة وتذوم بحفظها المودة على مقتضى الشروط، ومن مهمات ذلك ترتيب القناصل بالمراسي التي تريد الدولة دخول مراكبها إليها وتجارتها فيها أي دولة كانت، ومن هذه مهمات ما قد لا يساعد عليه الشرع أو الطبع مثل الكرنيليات وما يتربّ عليها إلى غير ذلك مما فيه هوس كبير، فاشتد عزم السلطان رحمة الله على ترك ما يفضي إلى ذلك وتأكد لديه إعماله لتوفّر هذه الأسباب، ولعمري أن تركه لمصلحة كبيرة لمن أمعن النظر فيها، وما يعقلها إلا العالمون، وأما فتنة النابريال هذه فإنّها تفاصيل بواسطة النجليز حيث وجه باشدوره مع باشدور النابريال فقدمًا على السلطان رحمة الله مكناسة في شهر ربيع الأول سنة ست وأربعين ومائتين وألف.

استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وما ترتب على ذلك من دخول أهل تلمسان في بيعة السلطان المولى عبد الرحمن رحمة الله

كان استيلاء طاغية الفرنسيس على ثغر الجزائر في آخر المحرم فاتح سنة ست وأربعين ومائين وألف، وكان السبب في ذلك أن أتراك الجزائر كانوا يومئذ مع الفرنسيس على طرفٍ نقِيس قد تعددت بينهم الوقعات برأً وبحراً وكثُرت بينهم الذحول والتراث، وكان الترك يؤذونهم أشد الإذية وأمير

الجزائر يومئذ واسمه أحمد باشا قد أمر أمره وأراد الاستبداد على الدولة العثمانية، وربما شكا طاغية الفرنسيس إلى السلطان محمود العثماني فقال له: شأنك وإياباً فهجم الفرنسيس في العدد والعدد على ثغر الجزائر فاستولى عليه بعد مقاتلاته ومحاولات في التاريخ المتقدم، وكان السلطان المولى عبد الرحمن يومئذ بمراكيش فاتصل به خبر الجزائر في أوائل صفر فنهض إلى مكناسة في التاريخ المذكور، ولما وقع بأهل الجزائر ما وقع اجتمع أهل تلمسان وتفاوضوا في شأنهم واتفقوا على أن يدخلوا في بيعة السلطان المولى عبد الرحمن رحمة الله فجاؤوا إلى عامله بوجدة القائد أبي العلاء إدريس بن حمان الجواري وعرضوا عليه أن يتوسط لهم عند السلطان في قبول بيعتهم والنظر لهم بما يصلح شأنهم ويحفظ من العدو جانبهم، ثم عينوا جماعة منهم للوفادة على السلطان تأكيداً للطلب واستعجالاً لحصول هذا الأرب، فقدموا على السلطان بمكناة غرة ربيع الأول من السنة المذكورة فأكرم السلطان وقادتهم وأجل مقدمهم، ولما صرحو له عن مرادهم توقف في ذلك رحمة الله وكان هواء إلى قبولهم أميل إلا أنه أراد أن يبني ذلك على صريح الشرع كما هي عادته فاستفتى علماء فاس فأفتقى جلهم بنقض المقصد ورخص لهم بعضهم في ذلك، فأخذ السلطان رحمة الله بقول المرخص، مع أن أهل تلمسان لما بلغتهم فتوى أهل فاس كتبوا إلى السلطان في الرد عليهم ما نصه:

ليعلم سيدنا قطب المجد ومركزه، ومحل الفخر ومحرزه، أساس الشرف الباذخ ومنبعه، وبساط الفضل الشامخ ومجمعه، السلطان الأعظم الأمجد الأفخم، نجل الملوك العظام سيدنا ومولانا عبد الرحمن بن هشام أبقي الله سيدنا للمسلمين ذخراً، ومنحه مودة وأجرأ، أن فتوى ساداتنا علماء فاس مبنية على غير أساس، لأنهم اعتقدوا أن في عقنا للإمام العثماني بيعة، وهذا لو صح لكان علينا حجة، وليس الأمر كذلك وإنما له مجرد الاسم هنالك، وعامل الجزائر إنما كان متغلباً، وبالدين متلاعاً، فأهلكه الله بظلمه وتطاوله على عباد الله وجوره وفسقه، إن الله يمهل على الظالم حتى يأخذه

فإذا أخذه لم يفلته، ويبدل على تغلبه واستقلاله، عدم وقوفه عند أمر العثماني وأمثاله، بل لا يكتفى به أصلاً، ولا يتبع له قوله ولا فعله، كيف وقد أمره أن يعقد مع النصارى صلحًا فلم يقبل له قوله ولا نصحته، وطلب منه بعض الأموال ليعتني بها على ما حل به مع النصارى من الأحوال، فامتنع غاية الامتناع، ولم يمكنه من شبر منها فضلاً عن الباقي، حتى أخذها العدو الكافر، وهذا جزء كل فاسق فاجر، مال جمع من حرام، سلط الله عليه الأعداء اللثام، وهذا كله من هذا المتغلب متواتر مشاهد بالعيان، مستغن عن إقامة الدليل والبرهان، الناس كلهم عبيد الله وإماموه والسلطان واحد منهم ملكه الله أمرهم ابتلاء وامتحاناً، فإن قام فيهم بالعدل والرحمة والإنصاف والصلاح مثل سيدنا نصره الله فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة عند الله تعالى، وإن قام فيهم بالجور والعسف والطغيان والفساد مثل هذا المتغلب فهو متجرس على الله في مملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق ومتعرض لعقوبة الله الشديدة وسخطه، هذا وعلى فرض تسليم أن للعثماني في عتقنا بيعة، فلا تكون علينا حجة، لأنه تباعد علينا قطره، فلم يغنم عنا شيئاً ملكه، لما بيننا وبينه من المفاوز والقفار والبحار، والقرى والمدن والأقصارات، وربما قرب محله من جهة البحر لكن منعه الآن من ركوبه الكفار، على أنه ثبت بتواتر الأخبار البالغة حد الكثرة والانتشار أنه مشتغل لنفسه ومقره، عاجز عن الدفع عن إيالته القرية من محله حتى أنه هادن النصارى خمس سنين على عدد كثير من المئتين، وأعطي فيه منهم ضامناً، ليكون في المدة المذكورة على نفسه وحشمه آمناً، فكيف يمكنه مع هذا الدفاع عن قطتنا وناحيتنا وبلدنا، وأدل دليل على بعده عن هذا المرام خبر مصر ونواحي الشام، فقد استولى عليها أعداء الدين، مدة تزيد على الخمس سنين فلم يجد لهم نفعاً ولا ملوك عنهم دفعاً حتى استعان بالعدو الكافر، والله تعالى قد يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، هذا ونص الأبي في شرح مسلم مفصح عن مثل قضيتنا ومعلم، على أن الإمام إذا لم ينفذ في ناحية أمره جاز إقامة غيره فيها ونصره، فانتظار نصرته يؤدي إلى الهلاك، كيف وقد تطاولت

إليها الأعناق، وتشوافت إليها من كل جانب العيون والأحداق، فأعرضنا عن الكل صفحًا، وطوبينا عنه الجوانب كشحًا، مقبلين إلى عتبة باب سيدنا نصره الله وسنته، داخلين تحت طاعته، ملتزمين لخدمته متواافقين مع القبائل والأمصار وأهل الرأي والاستبصار، لعلمنا أن سيدنا نصره الله المتأهل في هذا الأمر العريق، الجدير بالإمامنة الحقيق، كيف وقد ورثها كابرًا عن كابر وإليهم انتهت المآثر والمفاخر، فنطلب من سيدنا نصره الله أن يتلزم لنا بفضله من هذه البيعة القبول، مستشفعين بجاه جده الرسول، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وصحابته المستحبين، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين اهـ.

ولما وقف السلطان رحمه الله على هذا الكلام قبل بيعتهم والتزمهما وعقد عليهم لابن عمه المولى علي بن سليمان وأضاف إليه كتيبة من الجناد من أغيان الودايا والعبيد ووجه الجميع مع أهل تلمسان بعد إكرامهم وتمام الإحسان إليهم، وكتب إلى عامله القائد إدريس يستوصيه بالجميع خيراً ويكون بصيرة عليهم وأشاره في النظر والرأي مع المولى علي بل الاعتماد في الحقيقة إنما كان عليه، وقد وقفت على كتاب الوزير أبي عبد الله بن إدريس بخط يده للقائد المذكور في هذه القضية يقول فيه ما نصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وأله محبنا وحال سيدنا الأرضي السيد إدريس بن حمان الجراري سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير سيدنا أيده الله وبعد، فقد وصلنا كتابك صحبة أغيان تلمسان وقبائل أحوازها فوقتنا معهم كل الوقوف ويدلنا المجهود فوق الطاقة وقبلهم مولانا وقابليهم بالإحسان والإكرام كما هو شأنه ذهاباً وإياباً، وهام وجههم مولانا مكرمين ورشح ابن عمه مولاي علينا للخلافة عليهم لما يعلم من عقله ودرايته وسياسته، وأنه ذو نفس أبية لكون تلك النواحي لا يصلح لها إلا من اتصف بهذه الأوصاف ليميزوا حالة الساعة مع ما كانوا فيه، وكما رشح مولانا ابن عمه المذكور رشح ل تكون واسطة بينهم وبينه لكون الأوصاف المذكورة موجودة فيك فكن عند الظن بك، وإياك والطمع، وازهدوا فيما في أيدي

الناس وكل ما تحتاجون إليه مما لا بد منه أخبرونا به يصلكم ، ولا تكتموا عنا شاذة ولا فاذة ، واعلم أن مولانا انتخبك من وسط أبناء جنسك وقربك منه ولا زلت لديه في الترقى فالله الله فكن عند الظن بك بارك الله فيك آمين ، وقد أكرم سيدنا كل واحد بما يناسبه من الكسوة وصنع لهم في كل بلد دخلوه مهرجاناً وأدخلهم سيدنا لوسط داره وجميع جناته وأماكن المملكة التي لا يدخلها إلا الخاصة ، غايتها أنهم نالوا من العناية فوق الظن ، ووقفنا معهم فوق ما تحب وفيهم الكفاية ، ولم يبق إلا ما عندك فكن عند الظن بك فإن سيدنا نصره الله جرب غيرك وطرحه ، وهذا معيارك نسأل الله أن يكون معيار التبر الخالص ، وما وعدك به سيدنا سيرد عليك حين تستقر بالبلد وتحسن تصرفك على عين الحاضر والبادي ، وفي وصية سيدنا في كتابه الشريف مقنع وعلى المعجبة والسلام ، في ثالث عشر ربيع الثاني عام ستة وأربعين ومائتين وألف ، محمد بن إدريس لطف الله به أه نص الكتاب بحرقه .

ولما وصل المولى علي إلى تلمسان وجه السلطان في أثره خمسمائة فارس ومائة رام وجماعة وافرة من حذاق الطبيجية من أهل سلا ورباط الفتح فيهم ولد عامل سلا محمد ابن الحاج محمد أبي جمیعہ وكان من النجباء ، ثم لما دخل المولى علي تلمسان واستقر بها فرح به الحضر من أهل تلمسان واغبطوا به وقدمت عليه الوفود من كل ناحية وأخذ عليهم البيعة للسلطان هو والقائد إدريس ، وانحرف عنه الكرغلية من الترك الذين كانوا إدالة بقصبة تلمسان من لدن قديم وحاصرهم المولى علي وقاتلهم مدة إلى أن ظفر بهم واستولى على ما في أيديهم ، وانحرف عنه أيضاً قبيلتا الدوافر والزماله من عرب تلك الناحية ، ويقال إن أصلهم من جند كان للمولى إسماعيل رحمه الله بعثه إدالة بتلك الناحية واستمروا هنالك وتناسوا إلى هذا التاريخ فأظفر الله المولى علياً بهم وانتهت الجيش متاعهم ومتاع الكرغلية من قبلهم ، ونشأ عن ذلك من الفساد ما نذكره بعد هذا إن شاء الله .

وفي أوائل رمضان من السنة المذكورة خرج القائد إدريس من تلمسان في جماعة من الجيش الذين معه بقصد تدوير القبائل الذين هنالك وأخذ البيعة على من لم يكن بايع منهم وكان الذين بايعوا هم أهل معسکر والحسن والمشاشيل منهم وينو شقران والمرابطون أهل غريس وورغية وتحليت وحميان وغير هؤلاء، ونص بيعتهم: الحمد لله الذي أنار الخلافة وجه الزمان، وأطلع في صحيفة غرته طوال السعد واليمن والأمان، وهدى من ارتضاه من الأنام للدخول تحت ظل راية مولانا الإمام والصلوة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الطيبين وبعد، فلما وفد على حضرة مولانا الخليفة أبي الحسن علي ابن أمير المؤمنين مولانا سليمان أعلى الله ثراه في عليين جميع القبائل المسطرة يمنتنه وقرأ عليهم كتاب مولانا المنصور ذي اللواء المنصور والسيف المشهور أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن ابن مولانا هشام أدام الله رعيه وجعل فيما يرضيه سعيه، بمحضر خليفته الطالب الأرشد الماجد الأسعد القائد السيد إدريس الجواري وتلقوه بالإجلال والتعظيم والتجليل والتكرير، أشهدوا على أنفسهم أنهم عقدوا البيعة لمولانا الإمام أبيه الله وأدام عزه وعلاه، والتزموها بالسمع والطاعة وفي جيدهم انتظموها، بيعة تامة مستوفية الشروط وافية العهود وثيقة الربوط قبلها الكل وارتضاها، وأوجب العمل بمقتضها، فمن سمع ما ذكر من ذكر قيده في مهل جمادى الثانية عام ستة وأربعين ومائتين ألف وبعده علامة العدلين المتلقين من رؤساء القبائل المذكورة، فهؤلاء الذين بايعوا ومن لم يكن بايع بعد فهم الذين خرج القائد إدريس المذكور لأخذ البيعة عليهم كما قلنا.

والحاصل أن السلطان رحمه الله كان قد اعنى بأمر هذه الناحية غاية الاعتناء وبذل المجهود في إمدادها بالعدد والعدد والمال مرة بعد أخرى، وبعث الشريف البركة سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني إلى أهل تلك البلاد يدعوهم إلى الطاعة، ويحضهم على الدخول في أمر الجماعة لكونهم كان لهم فيه وفي سلفه اعتقاد كبير، وبعث الشريف الأخير أبا محمد عبد

السلام البوعناني فولاه خطة الحسبة بتلمسان ويعث من الكسي والرایات والأعلام والمدافع والمهاريس والبارود والرصاص شيئاً كثيراً لكن لم يكن إلا ما أراده الله تعالى فافتقرت كلمة العرب الذين هنالك لضعف إيمانهم وقلة همتهم فجلهم مال إلى الدخول في حزب النصارى عندما استولوا على مدينة وهران في هذه الأيام، ثم سرى ذلك الاختلاف في قواد جيش السلطان فتنافسوا وتحاسدوا وكثير القيل والقال منهم على السلطان ثم ختموا عملهم بانتهاب أثاث الكرغلية وتقاددهم عليه، ثم بانتهاب مال الزماله والدوائر وماشيتهم في جوار الشريف سيد الحاج العربي بن علي الوزاني وفسد العمل وخاب الأمل، فحيثند رأى السلطان رحمة الله استرجاع تلك الجيوش التي لم يبق طمع في صلاحها بعد أن أمر بالقبض على القائد إدريس لكونه سعى به عنده وأنه شارك في نهب الكرغلية والزماله والدوائر وتقادده على التفيس من أثاثهم فرجعت الحلة، وكان رجوعها في آخر رمضان من السنة المذكورة، وفي هذه السنة متتصف جمادى الثانية منها حدثت زلزلة بقرية من قرى تلمسان تسمى البليدة فجعلت عاليها ساقلها وهلك أهلها، والأمر الله كيف شاء فعل.

خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمن والسبب في ذلك

كان خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمن رحمة الله في المحرم فاتح سنة سبع وأربعين ومائتين وألف، وكان السبب في ذلك أن الطاهر بن مسعود المغفرى الحسانى، وال الحاج محمد بن الطاهر الغفرى العقيلي، وال الحاج محمد بن فرحون الجراوى كانوا من كبار قواد هذا الجيش وأعيانه، وكان السلطان رحمة الله يبعثهم في المهمات، ويستكفى بهم في الأقطار النائية والجهات، وكانتوا هم يظهرون للسلطان الطاعة وهم في الباطن منحرفون عنه بسبب أن الدالة التي كانوا يذلون بها على السلطان المولى

سليمان رحمة الله انقطعت عنهم مع السلطان المولى عبد الرحمن وزالت من أيديهم فكانوا يمرضون في الطاعة بعض الأحيان والسلطان يطويهم على غرهم ويلبسهم على عرهم إلى أن كان البعث إلى تلمسان فوجئهم إليه فيمن وجه من أعيان الجيش ورؤسائه، فكانت قوارصهم لا تنقطع عن الدولة، وشغبهم لا يفتر من التطاول والصولة، ثم كان نهب الزماله والدواوير فأبدوا في ذلك وأعادوا وشأيدهم على فعلهم القائد أحمد بن المحجوب البخاري وأظهروا عدم المبالاة بالسلطان وخليفة وعامله وكانت بينهم وبين القائد إدريس الجراي منافسة باطنية فخاف من الاعتراض عليهم فيما ارتكبوه من النهب أن يسلوا برأسه هذا الخرق فأسعفهم وانتهت معهم، وكان ما قدمناه من استرجاع السلطان لذلك الجيش وبعث من قبض على القائد إدريس بوجلة وجيء به إلى تازا فسجن بها، ولما وصل جيش تلمسان إلى عنق الجمل قرب فاس خرج إليهم القائد الطيب الوديني البخاري وكان والياً على فاس فقيل أراد أن يقبض عليهم بإذن من السلطان وقيل أراد أن يحوز منهم أرحلهم وحقائبهم التي ملؤوها من النهب وكان الودايا والعبيد لما فعلوا فعلتهم تحالفوا وتعاهدوا على أن يكونوا يداً واحداً على من أرادهم بسوء كائناً من كان، فلما خرج إليهم الطيب الوديني تجهزوه وهموا به فرجع أدراجه وأنهى ذلك إلى السلطان فأغضى عنهم، ثم بعد أيام عزم السلطان على القبض على الحاج محمد بن الطاهر العقيلي فأحسن هو بذلك فذهب إلى الطاهر بن مسعود وتطرق عليه وقال له: إني مقبوض لا محالة فإن ولاك السلطان من أمري شيئاً فاحسن ولا تؤاخذني بما كان مني إليك، وقد كان الطاهر بن مسعود قبل هذه المدة عاملاً بتأريودات فعزله السلطان بابن الطاهر فأساء إليه فلهذا قال له ما قال، فقال الطاهر بن مسعود: وأنت مقبوض قال نعم، قال: علي وعلي لا جرى عليك أمر تكرهه ما دمت حياً، ثم إن السلطان أحضر الحاج محمد بن الطاهر وأحمد بن المحجوب فقرعهما وأمر بالقبض عليهما فقبض أعون الودايا على أخيهم وقبض أعون العبيد على أخيهم وخرجوا بهما إلى السجن مع العشي، وكان الطاهر بن مسعود قد

ترصد بباب دار السلطان للحاج محمد بن الطاهر ليقتله وصاحبه، فلما خرجا قام الطاهر بن مسعود إلى الأعون فراودهم على إطلاق المسجونين فأبوا وقالوا: إنهم مسجونان عن أمر السلطان فتضامن عن ذلك واستدل خنجره وضرب إدريس البواب الودي على ترقوته فخذشه وانتزع منه المسجون وتقدم لافتتاكه أحمد بن المحجوب فأبى وانتهره. وقال: لا أخالف أمر السلطان، وكان الودايا يظنون قيام العبيد معهم لحلفهم السابق فخذل الله فيما بينهم، ثم أسرع الطاهر وابن الطاهر إلى فرسيهما فركبا هما ونجوا إلى ناحية دار الدبيبغ وثارت المغافرة بباب دار السلطان وحملوا السلاح وأخرجوا البارود والرصاص، وقامت شيعة السلطان لمدافعتهم فكثرهم الودايا وهزموهم حتى أغلقوا عليهم باب المشور، وسأل السلطان عن الهيئة فأعلم بالخبر وكان معه الحسن بن حمو واعزيز فقال له: يا مولانا إن هؤلاء ما جسروا على هذا الفعل ببابك حتى عزوا على ما هو أكثر، فدعا السلطان بفرسه وركبه مع الغروب وخرج من باب الجاجة ومعه ابن واعزيز وبعض أصحابه خيلاً ورجالاً، ولما علم الودايا بخروج السلطان ركبوا بقضفهم وقضيضمهم من فاس الجديد ومن قصبة شرافة فأدركوا السلطان عند قنطرة عياد فنزلوا إلى الأرض يقلبون حوافر فرسه ويتشفعون له ويتركون من فعل أولئك السفهاء، وكان الحال إذ ذاك حال مطر خفيف والشمس قد غربت أو كانت تغرب، فساعدتهم رحمة الله على الرجوع وأشار عليه الحاج محمد بن فرحون بأن يذهب معه إلى قصبة شرافة وكانت يومئذ لأهل السوس فذهب معه إلى داره من غير أن يطمئن إليه، ولكن ذلك الذي اقتضاه الحال في تلك الساعة، ولما استقر بدار ابن فرحون اجتمع عليه المغافرة والودايا وأهل السوس وأساء عليه المغافرة الأدب بل عزوا على الفتوك به ولكن الله تعالى وقام شرهم، فاختلت كلمتهم وتذمر أهل السوس فيما بينهم وقالوا: لا يبيتن السلطان الليلة إلا بداره واستنهضوه فنهض رحمة الله وركب فرسه وصحبته إلى داره في ذلك الليل فاستقر بها، وبعد ذلك بأيام انتقل السلطان إلى بستان أبي الجلود خارج فاس الجديد على حين غفلة من الودايا وانحر

شيعة السلطان إليه من العبيد وغيرهم ونزل جلهم بفاس القديم ويقي الودايا وحدهم بفاس الجديد، ثم استدعى السلطان عبيد مكناسة فقدموا عليه ولما علم الودايا بعزم السلطان على الخروج من بين أظهرهم ساءهم ذلك وعلموا أنه إن خرج من بين أظهرهم لا يتركهم حتى يوقع بهم فراودوه على المقام وتصلوا وأظهروا التوبة وتقدم سفهاؤهم إلى العبيد فأشبعوا معهم الحرب وهلك من الفريقين عدد، ثم تدارك السلطان أمرهم وتلطّف وطيب أنفسهم وأجمع على الخروج إلى مكناسة فخرج بقله وأثنائه وأمواله وسلك طريق قبب وعقبة المساجين كأنه يريد بلاد الغرب وخرج لتشييعه جماعة وافرة من أعيان الودايا ثم أنهم ندموا ونكسوا على رؤوسهم وربما سمعوا من العبيد بعض كلام فحmitt أتوفهم وتحزبوا وأوقعوا بالعبيد فانهزموا عن السلطان وانتهت الودايا خيرته وأثنائه، وقام عقالهم دون العيال حتى ردوه إلى الدار محفوظاً مصوناً ولم يفعلوا أحسن منها، وأما المال والأثاث فقد أتى عليه النهب وكان شيئاً كثيراً، وتقدم السلطان رحمة الله لطبيه وتبعه سفيه من سفهاء الودايا كان أراد الفتاك فيه فحمد الله منه، ووصل السلطان رحمة الله إلى مكناسة فاستقر بها، واتصل خبر هذه الفتنة بالقائد إدريس بن حمان الجراي وهو مسجون بتازا فاحتال على سراح نفسه بأن افتعل كتاباً على لسان السلطان وبعث به إلى عامل تازا فسرحه، وكان السلطان رحمة الله قد بعث إلى القائد إدريس المذكور وهو بتلمسان أربع ورقات مختوماً عليها بالخاتم السلطاني الكبير وأمره السلطان رحمة الله أن يحتفظ بتلك الورقات ولا يستعمل واحدة منها إلا في أهم المهام مما يتوقف عليه غرض السلطان والدولة ولا يمكن مشاورته فيه لبعد المسافة بين فاس وتلمسان، فعمد القائد إدريس إلى واحدة من تلك الورقات فكتب فيها بتسريحة فسرح وجاء يجد السير إلى فاس، وبينس وصوله كتب إلى السلطان يعلمه بما صنع، وأنه لا زال على ما يعهد مولانا من بذل النصح والسعى في صلاح السلطان والجيش، فأجابه السلطان رحمة الله بما نصه:

وبعد، فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما فيه والحمد لله على سلامتك، وما

وجهنا لك إلا بقصد أن نسرحك لأننا تحققنا أنك كنت مغلوباً عليك فلا
عهدة عليك بل من تمام عقلك مساعدتك لمن نهب ولو منعهم من ذلك
لتتفاقم الأمر هنالك وأنت عليك الأمان ظاهراً وباطناً في الحال والاستقبال،
فلا تخش من شيء أبداً فإنك من نتهمه بالدين والعقل والصدق، وقد
عاينت وسمعت ما صدر من إخواننا من التزعة الشيطانية ولا ينبغي أن تقابليهم
بممثل ما قابلنا به من لا عقل له منهم وإن قابلناهم به لا نلتقي أبداً، وأنت
اسع في الخير والصلاح ما أمكنك وتحمل لهم عنا بالأمن من كل ما يخافونه
من جانبنا، فجسارتهم أولى من صلاح القبائل فقف على ساق الجد «لأن
يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً مما طاعت عليه الشمس» والسلام، في السابع
عشر من المحرم فاتح عام سبعة وأربعين ومائتين وألف انتهى لفظ الكتاب
الشرف.

ثم إن القائد إدريس أحسن القيام على عيال السلطان الذين بقوا بفاس الجديد وكان فيهم حظيته المولاة فاطمة بنت المولى سليمان وتقديم القائد إدريس إلى أمين الصائر من قبل وقال له: ما كنت تدفع إلى دار السلطان كل يوم من دقيق ولحم وإدام وغير ذلك فاكتب لي بقدرها وابعث إليّ به، فأحصاه الأمين المذكور ويعث إليه به فصار يبعث بذلك القدر إلى دار السلطان كل يوم، وانقطع الماء ذات يوم عن دار السلطان فكان القائد إدريس يحمل قرب الماء إليها كل يوم وأصلح القنوات وجد في ذلك حتى رجع الماء إلى مجراه، ثم إن السلطان رحمة الله استنفر قبائل الغرب كلها حوزاً وغريباً وشغوراً فقدموا مكناسة على بكرة أبيهم وسمع الودايا بذلك فاستدعاها الشريف سيدى محمد بن الطيب من بعض الأعمال والتغروا عليه وبايته، فحيثئذ تبرأت منهم القبائل التي كانت تعدهم بالقيام معهم من مجاوريهم لأن سيدى محمد بن الطيب كانت قبائل المغرب قد تناذرته منذ أيام ولايته على تامسنا ودكالة وفعله بأهلها الأفاعيل فكان مبغضاً عند العامة، وزحف السلطان إلى فاس الجديد فحاصرهم بها ونصب عليهم المدافع والمهاريس وتعاقب عليهم الرمي بها من محلة السلطان بعين قادوس ومن يستيون أبي الجلود ويستيون

باب الجيزة وبستيون باب الفتوح ودام الحصار أربعين يوماً وال الحرب لا تنتهي في كل وقت ، وكان الودايا يرمون أيضاً بالكور والبب وأبلى بنو حسن في تلك الأيام البلاء الحسن ، ثم إن السلطان عزم على البناء عليهم وجليب اللواحين فشرعوا في العمل وسُتم الودايا الحرب وملوها فأذعنوا إلى الصلح وسعى في الوساطة بينهم وبين السلطان الأمين الحاج الطالب ابن جلون الفاسي ، فأمنتهم السلطان على شرط الخروج من فاس الجديد فأذعنوا ثم بعثوا شفاعاتهم بالمشايخ والصبيان والألواح على رؤوسها ومعهم سلطانهم ابن الطيب فسامح رحمه الله الجميع وقال لهم في جملة ما قال: الحمد لله إذ لم أغلكم ولم تغلبني لأنني لو غلبتكم لذهبت هذه الجيوش أولادكم ولم أقدر أن أردها عنكم ، ولو غلبتموني لفعلتم كل ما تقدرون عليه . فهذا من لطف الله بي وبكم .

قلت: وهذا كلام دال على وفور عقل السلطان رحمه الله وكمال شفنته ورحمته ، ثم لما عزم السلطان على النهوض إلى مكناسة ولّى على جيش الودايا كله القائد إدريس بن حمان الجراي وذلك في الحادي والعشرين من جمادى الثانية سنة سبع وأربعين ومائتين وألف ، ثم نهض إلى مكناسة فاحتل بها ، ولما حضر عيد الفطر قدمت الوفود على السلطان بمكتنasse واستقامت الأحوال وكتب رحمه الله إلى القائد إدريس أن يحضر العيد في جماعة وافرة من إخوانه نحو الخمسمائة فحضروا ودخلوا على السلطان ذات عشية بالمشور فويخصهم حتى ظن الناس أنه يقبض عليهم ثم سرحهم فعادوا إلى فاس الجديد ، ولما عزم السلطان رحمه الله على النهوض إلى مراكش قدم أولاً فاساً ونزل خارج البلد ونظر في شأنه وشأن الجيش والرعاية ، ثم ارتحل يريد مراكش فلما انفصل عن فاس بيوم أو يومين كتب إلى القائد إدريس يأمره أن يبعث إليه بالطاهر بن مسعود وال الحاج محمد بن الطاهر يذهبان معه إلى مراكش بقصد الخدمة بها مع ولده وخليفته سيدي محمد بن عبد الرحمن فذهبان على فرسيهما مسرحين إلا أنهما كانا حذرين من السلطان لما قدما من الفعل الشنيع الذي كان سبب هذه الفتنة العظيمة فقدموا مراكش وترتبوا في

الخدمة مع الخليفة المذكور وانسلخت هذه السنة وفيها عزل السلطان وزيره الفقيه أبي عبد الله محمد بن إدريس وامتحنه، ويقي عاطلاً مدة ثم رده إلى خطته، وكان السلطان في مدة تأخيره إيه قد استوزر مكانه الفقيه العلامة الأديب السيد المختار بن عبد الملك الجامعي فقام بأعباء الخطة ويرز فيها رحمه الله، وفيها بنى السلطان رحمة الله المارستان الكبير على ضريح ولد الله تعالى أبي العباس أحمد بن عاشر بسلا وكان على ضريح الولي المذكور القبة والمسجد فقط، فأدار السلطان رحمة الله على ذلك كله مارستاننا كبيراً وبنى به مسجداً آخر وببيوتاً للمرضى تنيف على العشرين وأجرى إليه الماء وجعل ميضاة بإزار المسجد للرجال وأخرى شرقها للنساء، فجاء ذلك من أحسن الأعمال وكتب الله أجره في صحيفة السلطان.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف، ففي صفر منها ورد على القائد إدريس كتاب من عند السلطان وهو يومئذ لا زال برباط الفتح يأمره أن يبعث إليه بالحاج محمد بن فرحون الجراي فوصل إليه مسرحاً فقبض عليه وبعث إلى الصويرة، وبإثر ذلك ورد على السلطان كتاب من عند ولده سيدى محمد يعلمه بأنه قبض على الطاهر بن مسعود، والجاج محمد بن الطاهر لكونهما لم يقلعا عن ضلالهما وشيطنتهما حتى أنهما عزما على اغتياله بمصلى عبد الأضحى من السنة الفارطة فحملاه الله منهما، ولما وصل السلطان إلى مراكش صار يكتب إلى القائد إدريس برؤوس الفتنة والقبض عليهم واحداً بعد واحد إلى أن استوفى جلهم، وكان القائد إدريس في هذه المدة قد أحس بأن باطن السلطان لا زال متغيراً على الودايا فألح عليه في البحث والاستكشاف عما هو مضمر لهما وما يريد بهم وما الذي يجلب رضاهم عنهم ويصفي باطنه عليهم، فكتب إليه السلطان رحمة الله كتاباً أفصح فيه عن مراده يقول فيه بعد الافتتاح والطابع الشريف بينه وبين الخطاب ما نصه: خالنا الأرضي القائد إدريس الجراي سلام عليك ورحمة الله تعالى وبعد، فاعلم بأنك طلبت منا مشافهة وكتابة أن نعرب لك عن مرادنا

ونطالعك بغاية قصتنا وأمنيتنا في الجيش وما يجلب رضانا عنهم وكنا نجيئك عن ذلك جواباً إقناعياً لعدم وثوقنا وقتذ بصدق لهجتك، وكان يخلي لنا أنك تباحثنا على جهة الاطلاع على خبيثة أمرنا والآن اتضح ما أنت عليه من الصدق ووفر المحبة وخلوص النية حتى صرت به كأحد أولادنا.

وليس يصح في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليل

وعليه فأنت أولى من نبه سرنا ولا ندخر عنه شيئاً من دخلية أمرنا، فاعلم أرشدك الله أن من بارزنا بالسوء قولهً وفعلاً من ذلك الجيش هم المغافرة كافة واستوى في ذلك كبيرهم وصغيرهم قويهم وضعيفهم، ولم يلف منهم رجل رشيد ولو ساعدهم الودايا وأهل السوس وخلوا بينهم وبين هوامهم لكان ما أرادوه من تلف مهجتنا ولكن الله سلم، ولا يخفى على أحد ما استوجبوه لذلك شرعاً وطبعاً ولسالف خدمتهم وكظم الغيط المرغب فيه ارتكبنا في جانبهم أخف ما أوجبه الله تعالى على أمثالهم، قال جل علاه: ﴿إِنَّمَا جَرَوُا اللَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣] الآية، وقد آليت على نفسي وأشهدت الله وملائكته أن لا يضمني سور فاس الجديد والمغافرة به فهذا هو محض الصدق والآن بين لنا كيف يكون العمل في ذلك وما نقدم وما نؤخر لأن المراد قضاء الغرض من غير مشقة ولا فضيحة للجيش، وهل تفشي هذا أو تكتمه؟ وعلى تقدير امثالهم عين لنا أي محل ينتقلون إليه من ثغور إياتنا كالرباط وغيره أو قصبة مراكش فإن النفس لم تسمح بهم بالكلية بل المراد زجرهم وإقامة بعض حق الله فيهم، ويحصل لنا الاطمئنان والسكينة ونبز قسمنا فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وما ذكرت من أنا عاهدناك ووعدناك بالإحسان والتنويه بشأنك فإنه وعد صدق لا مرية فيه إن شاء الله، وكيف وقد استوجبت منا كل جميل وقدملك لمعالي الأمور عقلك وصدقك، ولو ألقينا في الجيش مثلك لضمننا عليه البراجم والرواجب و فعلنا في جانبه ما هو الواجب، وقد اقتصرت حيث طلبت أن تكون بمنزلة القائد قدور بن الخضر عند سيد الكبار رحمهما الله، فأنت

عندنا بمنزلة أعظم من منزلته واليد التي اتخذت عندنا أعظم مما اتخذ هو عند سيدى الكبير قدس الله سره، فقد جازاه على الصدق فقط أما أنت فقد شاركته في هذه المرتبة وفقته بما هو أعظم وهو إحسانك لعيالنا وأولادنا ولو لا أنت لهلكوا جوحاً فلا يكفر هذه الضيعة إلا ليثم، وحاشانا الله من ذلك فطب نفساً وقر عيناً فلنك عندنا من المكانة والحظوة ما لو اطلعت على حقيقته لطربت سروراً ونشاطاً، وسترى إذا انجلى الغبار ولا زال أهلنا يتذكرون إحسانك إليهم بحضرتنا، ويلتمسون لك الدعاء الصالح من جانبنا، وفي الحديث ما معناه أن امرأة من بنى اسرائيل أبصرت كلباً يلعن الحمنة من شدة العطش فسقته فغفر الله لها، فكيف بمن أسدى معروفاً لجماعة انقطع رجاؤهم إلا من الله، والله لن يخزيك الله أبداً والسلام، في ثامن عشر رمضان المعظم عام ثمانية وأربعين ومائتين وألف اهـ . نص الكتاب، ثم إن الله تعالى هيأ للسلطان أمره في الودايا وألهمه رشه فيهم فأمر أولأ ينقل رحي المغافرة إلى قصبة الشradi من أعمال مراكش وظن الناس أنه يقتصر على ذلك لأنه رحمة الله لم يكن يظهر إلا أنه يريد نقل المغافرة فقط، ثم نقل رحي الودايا إلى العرائش وأحوازاها ثم ردهم إلى جبل سلفات، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة نقل رحي أهل السوس إلى رباط الفتح فأنزل حلتهم بالمنصورية على شاطئ وادي التفيفيخ وقوادهم ووجوههم بقصبة رباط الفتح، ثم رد الحلة بعد مضي ست سنين إلى قصبة تمارة قرب رباط الفتح وكانت متلاشية فأمر السلطان بعد ستين أو ثلاثة بترميها وإصلاحها، وكان رحمة الله قد أسقط هذا الجند الودي من الجندي وأعرض عنه بالكلية ستين ثم استردتهم في حدود الستين كما سيأتي، ولما أخلى السلطان فاساً الجديد من جيش الودايا بأسره وكان بمراكب بعث بالطاهر بن مسعود، وبالحاج محمد بن الطاهر، فسجنا به مدة، ثم قدمت عريفة الدار الحاجة زويدة بكتاب من عند السلطان على ولده سيدى محمد بفاس يتضمن الأمر بقتل الطاهر وابن الطاهر بال محل الذي افتck فيه الأول الثاني، فأخرجنا إلى المحل المذكور وحضر

الوصيف القائد فرجي وقدم الطاهر بن مسعود فأخرجت فيه عمارة وحز رأسه، ثم قدم الحاج محمد بن الطاهر ففعل به مثل صاحبه فيقال: إنه زهرت نفسه قبل القتل لأنَّه لم يسل منه دم، وأما الطاهر بن مسعود فسأل منه دم كثير وأمر سيدِي محمد ولد السلطان بمواراته فوروي، وأما ابن الطاهر فإنه رمي على المزبلة ووكل به الحرُس إلى أن أكلته الكلاب ولم يبق إلا رجله بالقيد، وكان ذلك في حدود خمسين ومائتين وألف، وأما ابن فرحون وأصحابه فإنهم استمروا في سجن الجزيرة إلى أن هلكوا.

واعلم أن هذه الواقعة الهائلة دالة على كمال عقل السلطان ووفر حلمه وفضله حتى أنه ما عامل هؤلاء القوم الذين آذوه أشد الإذية إلا ببعض البعض مما استوجبوه كما قال وكما رأيت وعلمت، ونسأله سبحانه وتعالى أن يتغمدنا وال المسلمين برحمته، ويقيينا وإياهم مصاري السوء وينيلنا الأمن في الدنيا والفوز في الآخرة بجنته، إنه على ذلك قادر، وبالإجابة جدير.

ظهور الحاج عبد القادر بن محبي الدين المختار بالمغرب الأوسط وبعض أخباره

لما راجع جيش السلطان من تلمسان مع المولى علي بن سليمان حسبما مر بقي أهل تلمسان فوضى، ورجعت الحرب بين الحضر من أهلها والكرغالية جذعة وهاجت الفتنة بين قبائل العرب الذين هنالك واختلط الحابل بالنابل، وكان الفقيه المرابط محبي الدين عبد القادر المختارى نسبة إلى أحد أجداده المشهورين بتلك الناحية نازلاً وسط حالة الحشم عند المشايشل منهم وكان متظاهراً بالخير وتدریس العلم واتخذ زاوية لطلبة العلم وقراء القرآن فاشتهر عند أولئك القبائل واعتقاده، فلما دهم العدو أهل تلك البلاد وجاشت فيما بينهم الفتنة اجتمع الحشم وبعضبني عامر وتفاوضوا فيما نزل بهم، فأجمع رأيهم على بيعة الشيخ محبي الدين المذكور فذهبوا إليه

وعرضوا عليه ما في أنفسهم فتجأفى عن منصب الرياسة وأظهر الورع واعتذر بأنه قد شاخ وذهب منه الأطيان وإنما هو هامة اليوم أو غد، فسدكوا به وتطارحوا عليه فأشار عليهم بولده الحاج عبد القادر بن محبي الدين، وكان له يومئذ عدة أولاد ليس الحاج عبد القادر أكبرهم ولا أعلمهم ولا أصلحهم وإنما كان فيه مضاء وإقدام فأسعفوه بشرط أن يكون نظره منسحباً عليه، ومشيراً بما تدعى الضرورة إليه، ولما تم أمر الحاج عبد القادر جمع كتيبة منبني عامر والحسن وزحف إلى وهران وكانت يومئذ في مملكة النصارى قد استولوا عليها منذ ستة أشهر أو سبعة فأوقع بهم وقعة شناء، قتل فيها وأسر وأبلغ في النكبة ورجع مظفراً منصراً، فتيمنوا به وأحبوه وتمكن منهم ناموسه واتخذ عسكراً من الحشم وبنى عامر لا يأس به، ولما سمع به أهل تلمسان وهم أحوج ما كانوا إلى من يقوم بأمرهم وفدوا عليه وأخبروه بما كان منهم من مبايعة السلطان المولى عبد الرحمن صاحب مراكش وفاس وأنهم يبايعونه على بيعته والإعلان بدعوته، فأجباهم الحاج عبد القادر إلى ذلك وأخذ عليهم البيعة وأظهر الطاعة والانقياد للسلطان المولى عبد الرحمن وخطب به على منابر تلمسان وغيرها، وولى على تلمسان وأعمالها وزيره أبي عبد الله محمد البوحميدي الولهاصي، وكتب إلى السلطان يعلمه بأنه بعض خدمه وقائد من قواد جنده واستقام أمر الحاج عبد القادر وثبتت قدمه في تلك الإيالة التلمسانية، ثم إن قبيلتي الزمالة والدوائر الذين قدمنا ذكرهم انحرفوا عن الحاج عبد القادر لأسباب، منها أنهما كانوا معادين للحسن ولما قرب الحاج عبد القادر الحشم وجعلهم جنده ازدادت عداوتهم ونفرتهم عن الحاج عبد القادر وساروا إلى وهران وأعلنوا بدعة الفرنسيس فقبلهم وحمواهم وحدثت بينه وبين الحاج عبد القادر بسببهم حروب صعبة.

حدثني الأمين السيد الحاج عبد الكريم ابن الحاج أحمد الرزيسي التطاوي قال: ذهبت سنة سبع وأربعين ومائتين وألف إلى مدينة وهران بقصد التجارة بها وذلك عقب استيلاء الفرنسيس عليها قال: وكنت يومئذ في سن

الشباب حين بقل عذاري فأقمت بها مدة وكان الحاج عبد القادر بن محبي الدين إذ ذاك مهادناً لكبير الفرنسيس بوهران والجزائر قد أنزل كل واحد منها ببلد الآخر قنصله وتجاره على العادة في ذلك أيام الهدنة، فلما كان ذات يوم ورد الخبر بأن قبيلتي الزمالة والدوائر من إيالة الحاج عبد القادر وهم نحو الألفين كانوا قد فروا منه ونزلوا حول مدينة وهران مستجيرين بالفرنسيس وقد رفعوا سنجقة وأعلنوا بأنهم تحت حكمه ومن جملة رعيته فبعث إليهم الفرنسيس يعلمهم بأنه قد قبلهم ولا يصيّبهم مكروه، فلما كان من الغد بعث الحاج عبد القادر مع كبير دولته الحاج الحبيب ولد المهر العسكري كتاباً إلى الفرنسيس يقول فيه: «إنك قد علمت أن هؤلاء القوم الذين فروا إليك هم رعيتي ومن إيالي وعليه فلا بد أن تردهم عليّ وإلا فالحرب بيني وبينك» فامتنع الفرنسيس من ردهم وأجاب إلى الحرب واتفقوا أن يخرج كل منهما إلى الآخر تجارة الذين في أرضه وأن من بقي منهم بعد ثلاث فهو هدر، واتفقوا أيضاً على أن يكون القنصلان آخر من يخرج وأن يكون خروجهما في ساعة معلومة من الليل بحيث يتقيان على المحددة التي بين أرض المسلمين وأرض النصارى ففعلوا وخالص كل إلى مأمه.

ولما انقضى الأجل تزاحفوا للقتال في يوم معلوم فكانت بينهم حرب يشيب لها الوليد، ولما كان عشي النهار سمع الناس من داخل البلد ضوضاء وجلبة عظيمة وياروداً كثيراً وإذا بال الحاج عبد القادر هزم الكفار هزيمة شنعاء حتى الجاهم إلى سور البلد واذدموا على أبوابه وركب بعضهم بعضاً وجاءت خيالتهم من خلفهم فركبواهم أيضاً ومشوا عليهم ورفسوهم بخيالهم، فهلك بهذا الازدحام من الفرنسيس نحو أربعة آلاف دون الذين هلكوا خارج البلد بالكور والرصاص والتوافل والرماح، واستولى المسلمين على معسكر النصارى بما فيه من مدافع وعجلات وفساطيط وأخيبة وأثاث، وكانت فتكه بكرةً. قال الحاج عبد الكريم المذكور: و كنت في تلك المدة مساكناً لبعض كبيرة عسكر الفرنسيس في دار واحدة، فلما انقضت الواقعة بيوم أو يومين سأله كم تراه يكون هلك من عسكر الفرنسيس في هذه الواقعة؟ قال: أقرب لك أم

أبعد؟ قلت: بل أقرب. قال: أنا كبير من كبراء العسكر وتحت نظري ثمان عشرة مائة بقي منها في هذه الواقعة ثمانية عشر عسكرياً انتهى كلام هذا المخبر.

ثم إن الزماله والدواير لجوا في موالة الفرنسيس وأحکموا أمرهم معه وولوا عليهم رجالاً منهم يقال له المصطفى بن إسماعيل كان هو السبب الأكبر في تملك الفرنسيس بلاد المغرب الأوسط وجل الحروب التي كانت تكون بين المسلمين والنصارى في تلك المدة على يده إلى أن قتل منتصف سنة تسع وخمسين ومائتين وألف ضاعف الله عليه غضبه ونقمته، ولما اتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن رحمة الله ما عليه الحاج عبد القادر من جهاد عدو الدين، وحماية بيضة المسلمين، أعجبه حاله وحسنـت منزلـته لأنـه رأـيـ أنه قد قـامـ بـنـصـرـةـ الإـسـلـامـ عـلـىـ حـيـنـ لاـ نـاصـرـ لـهـ، فـصـارـ السـلـطـانـ رـحـمـهـ اللهـ يـمـدـهـ بـالـخـيـلـ وـالـسـلـاحـ وـالـمـالـ الـمـرـةـ بـعـدـ الـمـرـةـ عـلـىـ يـدـ الـأـمـيـنـ الحاجـ الطـالـبـ بنـ جـلـونـ الفـاسـيـ وـغـيـرـهـ، وـطـالـتـ الـحـربـ بـيـنـ وـبـيـنـ الـفـرـنـسـيـسـ وـاستـولـىـ الـفـرـنـسـيـسـ فـيـ بـعـضـ الـكـرـاتـ عـلـىـ تـلـمـسـانـ وـضـايـقـهـ الحاجـ عبدـ القـادـرـ فـيـهاـ حـتـىـ أـخـرـجـهـ مـنـهاـ ثـمـ اـسـتـرـدـهـ الـفـرـنـسـيـسـ بـعـدـ مـعـارـكـ شـدـيـدـةـ وـمـوـاقـفـ صـعـبةـ إـلـاـ أـنـ ضـرـرـ الـحـاجـ عبدـ القـادـرـ لـلـفـرـنـسـيـسـ كـانـ مـقـصـورـاـ عـلـىـ قـتـلـ النـفـوسـ وـاسـتـلـابـ الـأـمـوـالـ، وـأـمـاـ الـفـرـنـسـيـسـ فـكـانـ ضـرـرـهـ بـالـمـسـلـمـينـ عـاـئـدـاـ عـلـىـ تـمـلـكـ بـلـادـهـ وـتـنـقـصـهـ مـنـ أـطـرـافـهـ، وـدـامـ ذـلـكـ مـدـةـ مـنـ سـتـ عـشـرـ سـنـةـ.

وبالجملة فلقد كان الحاج عبد القادر هذا في أول أمره على ما ينبغي من المثابرة على الجهاد والدرء في نحر العدو ولو لا أنه انعكس حاله في آخر الأمر وخليص الأرض للفرنسيس والله غالب على أمره.

وفي سنة خمسين ومائتين وألف ولد مؤلف هذا الكتاب أحمد بن خالد الناصري السلاوي. أخبرتني والدتي المست فاطمة بنت الفقيه السيد محمد بن محمد بن قاسم بن زروق الحسني الإدريسي الجباري أني ولدت بعد طلوع الفجر صبيحة يوم السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة

المذكورة. وفي محرم فاتح سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف توفي الوزير الشهير السيد المختار بن عبد الملك الجامعي بمراكبش واستوزر السلطان بعده الفقيه أبي عبد الله محمد بن علي الحاجي النكنافي مدة يسيرة ثم أخره ورد وزير الأقدم أبي عبد الله محمد بن إدريس رحم الله الجميع. وفي هذه السنة كان الوباء بالمغرب بالإسهال والقيء وغير العينين وبرودة الأطراف.

وفي سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف ورد سؤال من عند الحاج عبد القادر بن محبي الدين إلى علماء فاس يقول فيه ما نصه :

«الحمد لله سادتنا الأعلام أئمة الهدى ومصابيح الظلام فقهاء الحضرة الإدريسية، ومرمى المطالب ومعطر الرحال العيسية، أطباء أدواء الدين ومحققين حقه ومبطليين باطله، ومنتججين قضایاه المتخلية عقیمة وباطلة، جوابكم أبقاكم الله فيما عظم به الخطب، واشتند به الكرب، بوطن الجزائر الذي صار لغريال الكفار جزائر، وذلك أن العدو الكافر يحاول ملك المسلمين مع استرقاقهم بالسيف وتارة بحيل سياسته ومن المسلمين من يداخلهم ويبايعهم ويجلب الخيل إليهم ولا يخلو من دلالتهم على عورات المسلمين ويطالعهم، ومن أحياه العرب المجاورين لهم من يفعل ذلك ويتمالئون على الجحود والإنكار فإذا طلبوا بتعيينه جمععوا والحال أنهم يعلمون منهم الأعين والآثار، فما حكم الله في الفريقين في أنفسهم وأموالهم؟ فهل لهم من عقاب أم يتزكون على حالهم؟ وما الحكم فيما يختلف عن المدافعة عن الحرير والأولاد، إذا استنفره نائب الإمام للدفاع والجلاد؟ فهل يعاقبون وكيف عقابهم ولا يتأتى بغير قتالهم؟ وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم؟ كيف العمل فيما يمنع الزكاة أو يمنع بعضها من التتحقق بعمارة ذاته في الحال؟ فهل يصدق مع قلة الدين في هذا الزمان أم يكون للاجتهداد فيه مجال؟ ومن أين يرزق الجيش المدافع عن المسلمين الساد ثغورهم عن المغيرين ولا يبت مال وما يجمع من الزكاة لا يفي بشعبهم فضلاً

عن كسوتهم وسلامتهم وخيلهم ومؤنthem وزرائهم؟ فهل ترك فيستبيح الكافر الوطن أم يكون ما يلزمهم على جماعة المسلمين؟ وإذا كان فهل على العموم أم على الأغنياء فقط ولا يمكن اختصاص الأغنياء لجفوة الأعراب وجهلهم؟ وهل يعد مانع المعونة باغياً أم لا وما حكم أموال البغاء وهل القول بعدم ردها يجوز العمل به أم لا؟ أجبوا عما ذكرنا وعما يناسب المقام والحال مما لم يحضرنا دأدوا علينا أبقاكم الله فقد ضاق من هذه الأمور الذرع، وكاد القائم بأمر المسلمين لضيق الأسباب أن يتخلّى عن الأمر ويطرح ثوب الإمارة والذرع، مأجورين والسلام، في تاسع عشر من ذي الحجة من السنة المذكورة صدره عن إذن الحاج عبد القادر بن محبي الدين لطف الله به».

وقد أجاب عن هذا السؤال بإشارة السلطان الفقيه العلامة أبو الحسن علي بن عبد السلام مدیدش التسولي بجواب طويلاً يشتمل على خمس كراسين وزيادة، وهو موجود بأيدي الناس، ولأجل ما كان يصل من هذه الأمور من جانب الحاج عبد القادر كان السلطان رحمة الله يبذل مجاهده في إمداده بالخيل والسلاح والمال وغير ذلك، ثم لم يكن إلا ما أراده الله.

وفي سنة ثلاثة وخمسين ومائتين وألف بعد ظهر يوم السبت العشرين من ربى الأول منها توفي الفقيه العلامة المتفنن المحدث أبو العباس أحمد بن الحاج المكي السدراتي السلاوي ودفن صبيحة يوم الأحد في الجبانة التي قرب ضريح ولی الله تعالى سیدي الحاج أحمد بن عاشر، وشهد جنازته خلق كثير، وأمّهم الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله محمد الهاشمي طوبى، وللفقيه أبي العباس المذكور شرح حفيل على موطن الإمام مالك رضي الله عنه وهو موجود بأيدي الناس.

وفي سنة أربع وخمسين بعدها وذلك صبيحة يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان منها توفي الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله طوبى المذكور آنفاً، وكان رحمة الله من قضاة العدل وأهل العلم بالنوازل والأحكام محمود السيرة ذات سكينة ووقار.

وفي سنة ست وخمسين ومائتين وألف وذلك في سبعة جمادى الأولى منها كمل بناء المنار بالمسجد الأعظم من سلا، وكان المنار الذي قبله قد أصابته صاعقة تداعت لها أركانه فأمر السلطان رحمة الله بقتله وإعادته جديداً فأعيد على هيئة متقدة أحسن مما كان وأعظم وصيير عليه بواسطة أمناء مرسى العدوتين ثلاثة آلاف مثقال وأربعمائة مثقال وأربعة وعشرون مثقالاً وست أواق وثلث الأوقية، والريال الكبير يومئذ من سعر ست عشرة أوقية، وكان جل المصائر من بيت المال وأقله من مال الحبس، وكان الذي يتولى النظارة يومئذ والقيام على البناء عامل سلا الأبر الأخير السيد الحاج أحمد بن محمد بن الهاشمي عواد.

وفي سنة ثمان وخمسين ومائين وألف توفي الفقيه العلامة المحقق البارع أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي المدعو مدیدش صاحب الشرح الكبير على تحفة ابن عاصم في الأحكام، وشرح الشامل وحاشية الزفافية وغير ذلك من التأليف الحسان رحمة الله ونفعنا به.

وفي منتصف سنة تسع وخمسين ومائين وألف غزا السلطان المولى عبد الرحمن رحمة الله قبيلة زمور الشلح وكانوا قد تجاوزوا الحد في الإفساد وإخافة العباد والبلاد فأوقع بهم وقعة شناعة كسرت من حدتهم وفلت من غربهم، وكتب السلطان رحمة الله في ذلك إلى ولده وخليفة سيدي محمد كتاباً من إنشاء وزيره أبي عبد الله بن إدريس يقول فيه ما نصه: «ولدنا الأرضي الأبر الأرشد سيدي محمد أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد: فقد كنا أردنا الإبقاء على قبيلة زمور رحمة وإشفاقاً، وحملهم على الاستقامة بالإرهاب من الشدة في بعض الأمور هداية وإرفاقاً، فلم يرد الله بهم خيراً لفساد نيتهم وخبث طويتهم وانكالهم على حولهم وقوتهم، فما رأوا منا ليئناً وسداداً إلا ازدادوا شدة وفساداً، ولا أظهرنا لهم عزة وإرشاداً إلا أظهروا عليناً وعناداً، وما أخرنا المحلة المنصورة عن الركوب إليهم إيقاء وألفاً إلا ظنوا ذلك عجزاً وضعفاً، قد طمس الإعجاب منهم بصرأً وسمعاً، ولم يروا أن الله قد أهلك من قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمباً.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللثيم تمرداً
 ووضع الندا في موضع السيف بالعلى مصرية كوضع السيف في موضع الندا
 فلما رأينا لجاجهم في عمالهم وعدم رجوعهم عن هواهم، وأنهم لم
 يعتبروا بجلاثهم عن بلادهم ولا بما أصابهم من الفتنة في أنفسهم وأولادهم،
 ولم يراغوا ما نهب من زرعهم القائم والمحصid ولا ما استخرج من مخزونهم
 الكثير العتيد، رأينا قتالهم شرعاً وجهاودهم ذيأ عن الدين ودفعاً، فاعتمدنا
 على حول الله وقوته وأمرنا بالريادة عليهم في الأخذ والتضييق، والمبالغة في
 النهب والتحرير، وتركهم محصورين في أوغارهم ومقهورين في أوكارهم،
 إذ رب مطاولة أبلغ من مصاولة، فتوالت عليهم الغارات وتتابعت عليهم
 التكبات لا يجدون إلى الراحة سبيلاً، أينما ثقروا أخذوا وقتلوا تقليلاً، ففي
 كل يوم تشر العوالى رؤوس رؤسائهم، وتختطف أيدي المنايا أهل بأسائهم،
 وكلما رادوهم إقداماً وطلباً ازدادوا توغلاً في الجبال وهرباً حتى نهكتهم
 الحرب، وضرستهم موالة الطعن والضرب، وضاع بالحصار الكسب والمال
 ولحق الضرر الأولاد والعياط، فجعلوا يرحلون لقبائل جوارهم طالبين
 لحلفهم وجوارهم، وبلغ البؤس فيهم غاية وأظهر الله فيهم آيته، وهو في
 خلال هذا كل حين يتشفعون ويتدللون في قبول توبتهم ويتضرون، ونحن
 نظهر لهم التمنع والإباهة لنبني أمرهم على أساس الجد، ونجازفهم على ما
 ارتكبوه من خلف الوعد، فلما أنجزت القهرية فيهم وعدها، وبلغت العقوبة
 فيهم حدتها، قابلنا إساءتهم بالإحسان، وراعينا فيهم وجه المساكين والنساء
 والصبيان، فولينا عليهم منهم ثلاثة عمال ووظفنا عليهم خمسين ألف مقاتل،
 وشرطنا عليهم تقويم مائتين من الحراك مثل قبائل الطاعة والتزام الصلاح
 والخدمة جهد الاستطاعة، فقاموا بذلك أحسن قيام، وأعطوا المراهقين في
 أداء المال بعد أيام، وكان أخذهم بعد تقديم الأعذار وتكريير الإنذار، وعفونا
 عنهم عفو غلب واقتدار، ورب عقاب أنتفع حسن طاعة، وتوبة نصوح
 تداركت ما سلف من التفريط والإضاعة، وفي الناس من لا يصلح إلا مع
 التشديد، وربك يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد.

ولما عن رضى منها عطية أسلمت ولكنها قد قادها للهوى القهر
أردننا بها الإبقاء فازداد عجبها وأدبها التشديد والفتوك والأسر
ولو قيدوا النعمة بالشكر لأمنوا الزوال، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقْوِيْرَ سَوْءَةً فَلَا مَرَدَ لِلَّهِ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ إِنَّ وَاللَّهَ هُوَ الرَّاعِدُ [الرعد: ١١]، والسلام، في فاتح رجب الفرد
الحرام عام تسعه وخمسين ومائتين وألف اه نص الكتاب الشريف.

انتهاك الهدنة مع الفرنسيس وتمحيص المسلمين ب AISI قرب وجدة والسبب في ذلك

كانت الهدنة معقودة بين هذه الدولة الشريفة وبين جنس الفرنسيس من لدن دولة السلطان الأعظم سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله، ولما حدث الشenan بين ترك الجزائر والفرنسيس واستولى الفرنسيس على ثغورهم جاء أهل تلمسان إلى السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله راغبين في بيعته والدخول في طاعته فقبلهم بعد التوقف والمشاورة كما مر، ولما أغوى جيش السلطان تلمسان واجتمع أهل ذلك القطر على الحاج عبد القادر محبي الدين تحت كلمة السلطان برز به وأحسن إليه وقاوم الفرنسيس بتلك البلاد أشد المقاومة إلا أن فائدة حربه كانت تظاهر في قتل النفوس واستلاب الأموال، وفائدة حرب الفرنسيس كانت تظاهر في انتهاك الأرض والاستيلاء عليها وشتان ما بينهما.

ولما كانت سنة تسع وخمسين ومائتين وألف تم استيلاء الفرنسيس على جميع بلاد المغرب الأوسط وصار الحاج عبد القادر يتنقل في أطراها، فتارة بالصحراء وتارة ببني يزناسن وتارة بوجدة والريف وغير ذلك، وربما استكثر في هذه التنقلات بمن هو من رعية السلطان أو جنده، فمد الفرنسيس يده إلى إيالة السلطان رحمه الله فشن الغارة على بني يزناسن وعلى وجدة وأعمالها المرة بعد المرة، ثم اقتحم وجدة على حين غفلة من أهلها وانتبهما وكثير عيشه

في الحدود فكلم من جانب السلطان رحمة الله فيما ارتكبه من إيالته فتعلل بأن الهدنة قد انتقضت بإمداد الحاج عبد القادر بالخيل والسلاح والمأمور بعد المرة، وبمحاربة جيش السلطان المرابط على الحدود له وبمحاربةبني يزنانس له مع الحاج عبد القادر وغير ذلك مما اعتد به، وكان الحاج عبد القادر في هذه المدة قد فسّدت نيته أيضاً في السلطان وفي الجهاد مع أنه ما كان لجهاده ثمرة، ورماه الاستقلال وأخذ في استفساد القبائل الذين هنالك وتحقق السلطان بأمره وشري الشر وتفاقم الأمر فعمد السلطان رحمة الله على حرب الفرنسيين وتقدم إلى أهل التغور بالاستعداد والحراسة وإرهاف الحد لما عسى أن يحدث، ثم عقد لابن عمّه المولى المأمون بن الشريف على كتبية من الجنادل وجهها إلى ناحية وجدة وعزّزه بالفقير أبي الحسن علي بن الجناوي من أعيان رباط الفتح فكانت لهم مناوشة مع رابطة الفرنسيين التي هنالك، ثم أخذ السلطان رحمة الله في أسباب الغزو والاستعداد التام وحشد الجنود واتخاذ الرؤى والبنود واستئثار القبائل، وقال في ذلك الوزير ابن إدريس أشعاراً يستنفر بها أهل المغرب ويحضهم على الجهاد وإيقاظ العزائم له من ذلك قوله:

يا أهل مغربينا حق التفير لكم
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم
فلا يغرنكم من لين جانبه
فعنه من ضروب المكر ما عجزت
فواتح المكر تبدو من خواتمه
وأنتمقصد لا تبقن في دعوه
من جاور الشر لا يعدم بوائقه
قد يغبط الحر في عز يخلده

وفي هذا الشعر تضمّين بيت ابن العسال وهو مشهور، فاجتمع للسلطان رحمة الله في هذا الاستئثار ثلاثة ألف فارس تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً فيها

الجند وحصص القبائل في أكمل شكله وأحسن زيه ولم يشهدها من الوداية سوى نفر يسير لأنهم كانوا في زاوية الإهمال عند السلطان، ثم عقد رحمة الله على هذه الجنود لولده وخليفة سيدي محمد بن عبد الرحمن وسار حتى نزل بوادي إيسلي من أعمال وجدة وكان الحاج عبد القادر لا زال جائلاً في تلك الناحية ومعه نحو خمسمائة فارس ممن كان قد بقي معه من أهل المغرب الأوسط لأن حاله كان قد أخذ في التراجع والانحطاط، ولم تبق له هنالك كبير فائدة بل انقلب نفعه ضرراً وحزمه خوراً بفساد نيته، واستفساده لجند السلطان ورعايته، ولما احتل الخليفة سيدي محمد ب AISLٰ وعسكر به جاءه الحاج عبد القادر يستأذن عليه في الاجتماع به فأذن له واجتمع به وهو على فرسه فدار بينهما كلام كان من جملته أن قال الحاج عبد القادر: إن هذه الفرش والأثاث والشارة التي جئت بها حتى وضعتموها بباب جيش العدو ليس من الرأي في شيء، ومهمما نسيتم فلا تنسوا أن لا تلاقوا العدو إلا وأنتم متحملون منكمشون بحيث لا يبقى لكم خباء مضروب على الأرض إلا فإن العدو مني رأى الأخبية مضروبة لم ينته دون الوصول إليها ولو أفنى عليها عساكره، وبين كيف كان هو يقاتلها، وكان هذا الكلام منه صواباً إلا أنه لم ينفع في القوم لأنفساد البواطن ولا حول ولا قوة إلا بالله، وربما انتهره بعض حاشية الخليفة على التفصح بمحضره والإشارة عليه قبل استئشاره، فرجع الحاج عبد القادر عوده على بدئه وانتبذ ناحية في جيشه ولسان حاله يقول: لم أمر بها ولم تسؤني، ولما كانت الليلة التي وقعت الحرب صبيحتها جاء رجالان من أمراء تلك الناحية وطلبا الدخول على الحاجب وهو الفقيه السيد الطيب بن اليماني المدعو بأبي عشرين فدخلوا عليه وقالا: إن العدو عازم على أن يصيبحكم غداً إن شاء الله فاستعدوا له وأعلموا الأمير فيقال: إن الحاجب قال: إن الأمير الآن نائم ولست بالذى أوقفه، ثم جاء عقب ذلك أربعة أناس آخرون يعلمون بأمر العدو فكان سبيلهم سبيل الأولين، ولما طلع الفجر وصلى الخليفة الصبح جاء عشرة من الخيل قيل من العرب وقيل من حرس الخليفة فأعلموا بمجيء العدو وأنهم تركوه قد أخذ

في الرحيل، فأمر الخليفة رحمة الله الناس بالركوب والاستعداد وأن لا يبقى بال محللة إلا الرماة وكانوا دون الألف، ويعث إلىبني يزناسن بالركوب فركبوا في ألف كادت تساوي جيش الخليفة وصارت الخيل نحو العدو مصطفة مد البصر، ورایاتها تخفق على هيئة عجيبة وترتيب بديع، وكان الخليفة سائراً في وسطهم ناشراً المظلة على رأسه راكباً على فرس أبيض وعليه طيسان أرجواني قد تميز بزيه وشارته، ولما تقارب الجيشان جعلت الفرسان تبرز من الصفوف كأنما تتعجل القتال فأمر الخليفة رحمة الله بالسکينة والوقار والسير بسيير الناس.

ثم لما التقى الجمuan وانتشرت الحرب رصد العدو الخليفة وقصده بالرمي مرات عديدة حتى سقطت بنية أمام حامل المظلة وجمح فرسه به وكاد يسقط، ولما رأى الخليفة ذلك غير زيه بأن أسقط المظلة ودعا بفرس كميٍت فركبه وليس طيساناً آخر فاختفى حينئذ، وكان المسلمون قد أحسنوا دفاع العدو وصدموه صدمة قوية برقت لهم بها بارقة، وكانت خيلهم تنفر من صوت المدافع ولكنهم كانوا يقحمونها إقحاماً وثبتوا في نحر العدو مقدار ساعة ولما التفتوا إلى جهة الخليفة ولم يروه بسبب تغير زيه خشعت نفوسهم وقال المرجفون: إن الخليفة قد هلك فماج الناس بعضهم في بعض وتسابق الشراردة إلى المحللة فعمدوا إلى الخبراء الذي فيه المال فاتهبوه وتقاتلوا عليه وتبعهم غيرهم من كان الرعب قد ملك قلبه، وجعل الناس يتسللون حتى ظهر الفشل في الجيش من كل جهة، فتقدم بعض العاشية إلى الخليفة وقال له: يا مولانا إن الناس قد انهزوا وهم الآن بال محللة يقتل بعضهم بعضاً ويسلب بعضهم بعضاً، فقال: يا سبحان الله! والتفت فرأى ما هاله من أمر الناس فرجع عوده على بدئه، وانهزم من كان قد بقي معه عن آخرهم وتبعهم العدو يرمي الكور والضوبيلي من غير فترة، وثبت الله بعض الطبيعة بال محللة ولكن سال الوادي فطم على القرى ونفذ أمر الله ولم يهزם المسلمين إلا المسلمين كما رأيت، ولما استولى العدو على المحللة فر النهاب الذين كانوا

بها وبقيت في يده بما فيها، وكانت مصيبة عظيمة وفجيعة كبيرة لم تفجع الدولة الشريفة بمثلها، وكان هذا الحادث العظيم في الساعة العاشرة من النهار منتصف شعبان سنة ستين ومائتين وألف، ولما رجع المنهزمة تفرقا شذر مذر وأهلك الناس العطش والجوع والتعب حتى كان نساء عرب آنکاد يستلبنهم كيف شئن، وانتهى الخليفة إلى تازا فأقام بها أربعة أيام ريثما اجتمع إليه الرماة وضعاف الجيش ثم قدم فاساً وكان السلطان رحمة الله قداماً من مراكش إلى فاس فاتصل به خبر الواقعة وهو برياط الفتح فنهض إلى فاس مجدداً واتصل به في أثناء طريقه خبر وقعتين اثنتين آخريتين وهما هجوم الفرنسيين على طنجة والصويرة، ورمي إياهما باللوف من الكور والبنب ووقع بالصويرة حادث عظيم بسبب الغوغاء الذين بالبلد والشياطنة المجاورين لهم فإنهم لما رأوا العدو دخل الجزيرة ظنوا أنه سيدخل البلد فمدوا أيديهم للنهب، وكان ذلك أولاً في اليهود ثم عم غيرهم، وكان ما كان مما لست أذكرة، فكان هذا مما زاد غيظة السلطان وك منه فعمد إلى جماعة من قواد الجيش وحلق لحاهم تأدبياً لهم.

وذكر منويل هذه الواقعة فرغم: أن عساكر الفرنسيين كانت يومئذ عشرة آلاف وإنه كان غرضه محاربة الذين كانوا يحاربونه على أطراف البلاد حتى لقد أعطى خط يده للنجليز أنه إذا حارب وغلب لا يملك من أرض المغرب شيئاً، قال: فلذلك لما وقعت الهزيمة بعث بإثرها رسلاً يطلب الصلح مع أن السلطان المولى عبد الرحمن لم يظهر عجزاً ولا فعل ذلك من غربه بل استأنف الجد وشرع في جمع العدد اهـ كلامه.

ثم إن السلطان رحمة الله هادن الفرنسيين على يد الفقيه أبي سليمان بن علي آزطوط عامل طنجة والعرائش على شروط ثمانية من جملتها نفي الحاج عبد القادر من تلك البلاد لما في بقاءه هناك من آثاره الفتنة بين الدولتين بل فائدة، ودعت المصلحة الواقية السلطان رحمة الله إلى أن أسقط عن جنس

الدينمرك وجنس السويد ما كانا يؤديانه إلى الدولة العلية كل سنة، فال الأول خمسة وعشرون ألف ريال، والثاني عشرون ألف ريال، وكذلك أُسقط عن غيرهم وظائف آخر والأمور كلها بيد الله ﴿لَا يُشَنِّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَأْوِنُ﴾ [الأنبياء: 23].

. [23 : الآية]

وفي سنة إحدى وستين ومائتين وألف أخذت السكة في الارتفاع وكان الريال الكبير ذو المدفع بست عشرة أوقية، والريال الصغير الإفرنك بخمس عشرة أوقية، والبندقى بثلاثين أوقية، والدرهم الصغير بأربع موزونات، والكبير بست موزونات، ولما أخذت السكة في الارتفاع أخذت الأسعار في الارتفاع أيضاً وحاول السلطان رحمة الله حصرها فلم تتحصر وعلة ذلك والله أعلم أنه لما وقع مع الفرنسيين هذا الصلح وأسقط السلطان عن الأجناس ما كانت تؤديه كثرة خطارهم وتجارهم بمerasi المغرب وازدادت مخالفتهم وممازجتهم لأهله، وكثرت تجارتهم في السلع التي كانوا ممنوعين منها، وانفتح لهم باب كان مسدوداً عليهم من قبل ظهر أثر ذلك في السكة وفي السلع، أما السكة فلأن سكتهم كانت هي الغالبة وهي أكثر روجاناً من سكة المغرب، فلا بد أن يكون الحكم والتأثير لها والتجار يعتبرون فيها من الفضول والأرباح الناشئة عن تغایر القطرين ما لا يهتم إلى غيرهم من العامة وبتهم على ذلك تجار المسلمين، وأما السلع فلأن تجار النصارى يغاللون في أثمانها أكثر من غيرهم كما هو مشاهد ثم ما دامت بلاد الفرنج متربقة في التمدن وحسن الترتيب واتساع الأمن والعدل إلا وسكتنا وأسعارنا دائمة الترقي في الغلاء على نسبة كثرة المخالطة واتساع مادة البيع والشراء فتأمله والله الموفق.

وفي هذه السنة ثار أهل رباط الفتح على عاملهم الحاج محمد بن الحاج محمد السوسي، وكان السبب في ذلك أن الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبيدي من أهل الوجاهة بالرباط ومتبع العقب فيها وكان كثيراً ما يجالس

العامل المذكور ويدللي عنده بالصداقة والمودة فيقال إنه تشفع عنده في بعض أهل البلد فرد شفاعته، فغضب الزبيدي وعظم عليه ذلك وكان أهل البلد قد سئموا ملكة السوسي ومرضوا في طاعته لأسباب تعدّها الروعية على العمال فجاء الزبيدي إلى منزله وجمع جماعة من أعيان البلد من يعلم انحرافهم عن العامل المذكور وأطعهم وأطلعهم على خبيثة صدره في أمر العامل فوجدهم إليه سراعاً فتحالفوا وتعاهدوا على أن لا يبقى متولياً عليهم بحال، ثم مشوا إليه وأنذروه وتقدموا إليه بأن يلزم بيته ثم أجمع رأيهم على تقديم الزبيدي مكانه فقدموه وضبط أمر البلد، واتصل الخبر بالسلطان رحمة الله وهو بفاس فقام وقعد وكتب إليهم بالوعظ والتقرير فصموا عن سماعه وتمادوا على شأنهم ثم بعث إليهم القائد الطيب الوديني البخاري يتولى عليهم ويقبض على أهل الفساد منهم فأفحشوا عليه وطردوه من البلد مع العشي، فعبر إلى سلا في مطر غزير ورجع إلى السلطان فأعلمه الخبر، فاحتلال السلطان رحمة الله بأن بعث الفقيه الكاتب أبي عبد الله محمد العربي بن المختار الجامعي فقدم رباط الفتح وجمع أعيانها وخирهم فيمن يتولى عليهم فاختاروا الزبيدي فولاية السلطان عليهم وحمدوا سيرته، وبعد نحو ستة أشهر قدم السلطان رباط الفتح وترثت بها مدة حتى نقر عن رؤوس الفتنة فقبض عليهم وعلى قائدتهم الزبيدي ويعثر بهم إلى فاس فسجّنوا بها ثم سرحاً بعد حين.

وفي سنة اثنين وستين ومائتين وألف نهض السلطان من فاس ونهض الخليفة سيدي محمد من مراكش والتقيا بمشروع أبي الأعون من دكالة وعيدها هنالك عيد المولد الكريم ثم سار السلطان إلى مراكش وانحدر الخليفة إلى فاس، وفي هذا العيد بعث أبو عبد الله أكتنسوس إلى السلطان بالقصيدة.

وفي سنة ثلاثة وستين ومائتين وألف تم بناء البرج الكبير بسلا المعروف بالصقالة الجديدة، وكان السلطان رحمة الله شرع في بنائه زمان انتهاض الصلح مع الفرنسيس وتم في هذه المدة على أكمل الأحوال وأحسنها.

بقية أخبار الحاج عبد القادر وانقراض أمره وما آل إليه حاله

قد قدمنا ما كان من فساد نية الحاج عبد القادر وأنه رام الاستبداد بل والتملك على المغرب، فلما كانت الهزيمة بإيسلي ازداد طمعه فصار يدعى أهل التواحي إلى مبaitته والدخول في طاعته، وكانت الخواص من أهل فاس والدولة وكتابه على ما قبل، ثم احتال بأن بعث جماعة وأفراة من الحشّم وبيني عامر شيعته إلى السلطان قدمهم أمامه في صورة هراب مستجيرين بالسلطان فقبلهم السلطان وأنزلهم على نهر سبو، ثم تقدم الحاج عبد القادر حتى وصل إلى القعدة الحمراء بين التسول والبرانس، وكان قصده أن يجتمع بشيعته ويصل يدهم بيده ويتم له ما أراد، فلما أطلع السلطان على دسيسته بعث إلى أولئك الجماعة عسكراً من الشرارة عليهم القائد إبراهيم بن أحمد الأكحل فاجتازوهم بعد جهد جهيد وقتل شديد من ذلك أنهم اعتصموا بربوة وجعلوا يقاتلون على حريمهم كانوا رماة لا تسقط لهم رصاصة في الأرض، فكانوا كلما توجهت إليهم طائفة من الجيش استأصلوها بالرصاص، وكانتوا يجمعون موتاهم وينصبونهم أشجاراً يتترسون به ويقاتلون من خلفه، ولما أعيى الجيش أمرهم حملوا عليهم حملة واحدة حتى خالطوه في معتصمهم وجالدوهم بالسيوف وطاعنوهם بالرماح والتوافل وانقطع البارود فكانوا يقتلون أبناءهم ونسائهم بأيديهم فراراً من السبي والعار، ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم في قبضة الأسار، وبعد هذا وجه السلطان ولده سيد محمد لحسن دايه في جيش كثيف وكان رئيس الجيش وكبيره بعد الخليفة القائد محمد بن عبد الكريم الشرقي المدعو أبا محمد، وكان له ذكر في الشجاعة والرأي، ولما وصل الخليفة إلى سلوان بعث إليه الحاج عبد القادر جماعة فيهم وزيره أبو عبد الله البوحميدي يتصل مما رمي به وأنه لا زال على الطاعة والخدمة للسلطان، وقدموه إلى الخليفة هدية ثم وقع الاتفاق على أن يقدموا على السلطان رحمة الله فينهوا إليه الأمر والعمل على ما قال

فوجده معهم الخليفة من يصحبهم إلى أبيه بفاس، وفي أثناء ذلك عمد الحاج عبد القادر ذات ليلة إلى طائفة من جنده نحو الخمس عشرة مائة على ما قيل كلهم بطل مهرب انتقامه انتقام، وكان جيش الخليفة منقسمًا قسمين بعضه معه وبعضه مع أخيه المولى أحمد فضmed الحاج عبد القادر إليهما

في ليلة من جمادى ذات أندية لا يضر الكلب من ظلمائها الطبا

بتلك العصبة الذين هم فتیان الكريهة ومساعير الهيجاء وجمرات الحرب طالما شهد بهم الواقع وخاض غمرات الموت مع الفرنسيس وغيره، فلم يقف بهم إلا بين المحليتين وأطلقوا الرصاص مثل المطر وأرسلوا حرائقات على الجمال وتهاویل مفزعة فماج الناس في ذلك الظلام الغاقد ونزل بهم من الهول ما يقصى اللسان عن وصفه، وقام الخليفة فجعل يسكن الناس بنفسه ويعنفهم من الركوب خوف الفرار، وأمر العسكر والطبيجة بالرمي بالكور والضوبي فكانوا يرمون إلى جهة محلة المولى أحمد ظناً منهم أن العدو لا زال مقابلهم ومحللة المولى أحمد يرمون إلى جهتهم كذلك فهلك من المحليتين بسبب ذلك بشر كثیر، وأما الحاج عبد القادر فإنه فر في أصحابه بعد أن حملوا الكثیر من موتاهم معهم، وكان للقائد محمد في تلك الليلة ذكر، ولما أصبح الناس وتقدروا حالهم وجدوا فيهم من العرجى نحو الألف ومن القتلى ما يقرب ذلك، وأصبح حول المحلة من قتلى أصحاب الحاج عبد القادر الذين أجهضهم القتال عن حملهم نحو الخمسين وأسرروا نفراً أحياء فشاهدوا من طمأنيتهم عند القتل ما قصوا منه العجب، ووجدوا عليهم كسى رفيعة مطرزة بالصقلی والحرير ونحو ذلك، فلقد كان للرجل اعتناء بالجيش كما نرى، ثم إن الخليفة رحمة الله أمر باتباع الحاج عبد القادر فتبعته الكتائب المختارة فكان اللقاء ثانيةً بمشروع الرحائل من وادي ملوية قرب البحر عند مسقط ملوية في البحر، فضدنته الجيوش صدمة أخرى فتن فيها كماته وكسرت شوكته، وفل حده وخشعـت نفسه وأليس من جبر حاله، ففر إلى الفرنسيس ولجا إليه وترك محلته بما فيها فاستولى جيش الخليفة عليها.

حكى من حضر أن الخيل كانوا يطردون الجماعة من أصحاب الحاج عبد القادر وهم راجلون ليأسروهم فما كانوا يدركونهم إلا بعد المسافة البعيدة جداً، والحاصل أن مقام هذا الرجل في الشجاعة معروف وبصارته بمكائد الحرب معلومة لو لا ما ذكرناه من انعكاس حاله ورورمه الاستبداد وخليع طاعة الإمام الحق الذي كانت بيعته في عنقه.

واعلم أنه قد يقف بعض المتقددين على ما حكينا من أخبار هذا الرجل فينسبنا إلى تعصب وسوء أدب، والجواب أنا ما حكينا إلا الواقع، وأيضاً فلقد قال لسان الدين ابن الخطيب رحمة الله: حضرت يوماً بين يدي السلطان أبي عنان في بعض وفاداتي عليه لغرض الرسالة وجرى ذكر بعض أعدائه فقلت ما أعتقد في إطراء ذلك العدو وما عرفته من فضله، فأنكر علي بعض الحاضرين من لا يحطب إلا في حبل السلطان، فصرفت وجهي وقلت: أيدكم الله تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء، بل غير ذلك أحق وأولى، فإن كان السلطان قد غالب عدوه كان قد غالب غير حقير وهو الأولى بفخره وجلاله قدره، وإن غالب العدو لم يغلبه حقير فيكون أشد للحسنة وأكد للفضيحة؛ فوافق رحمة الله على ذلك واستحسن وشكر عليه وخجل المعترض له.

ولما كان هذا الفتح كتب السلطان إلى البلاد وزينت الأسواق وأعملت المفرحتات، ونص ما كتب به السلطان بعد الافتتاح: وبعد، فإن الفاسد الفتان وخليفة الشيطان، أبعد في الجسارة، وامتلى مطي الخسارة، واستتوسع سبيل العناد، واستضل سبيل الرشاد، وقال من أشد منه قوة، وسولت له نفسه الأمارة الاتصاف بالإمارة، وأراد شق عصا الإسلام وصدع مهج الأئم، فأعلن بكل قبيح واستشكل كل صريح، واستبطن المكر والخداع، وفاق فيه عابدي ود وسوانع، وشاع في طرف الإيالة ضرره، وسأء مخبره، وهو في خلال ذلك يظهر مظاهريسته بها أهل الجهالة، والعمامية والضلالية، فأيسنا من رشده، وعرفنا مضمراً قصده، فجهزنا له محلة منصورة ذات أعلام منشورة، جعلنا في وسطها ولدنا الأبر سيد محمد أصلحه الله وأسندنا إليه

أمرها، وقلدناه تدبيرها، وعهدنا إليه أن يسعى في حقن الدماء جهد الإمكان، ويحتال على إقامة أود هذا الفتان، وأن يعالج داءه بكل دواء، وأن لا يتبع فيه الأغراض والأهواء، وأن يجعل القتال آخر عمله، وعدمه غاية أمله، فلما رأى عدو نفسه إحاطة الجيوش به، وجه وفداً من قبله يدعى التوبية فيما مضى، والكون على وفق المقتضى، فأجبناهم بأن أحب الحديث إلى الله أصدقه، إن صاحبكم هذا إن أراد الخير لنفسه، واحتاط لدينه وعمل لرمسه، يختار أحد أمرين: أما أن يدخل لإيالتنا هو ومن معه آمنين على أنفسهم ومالهم، لهم ما لنا وعليهم ما علينا أو يصحر، فطلبوا منا الإمهال حتى يوجهوا بعضهم يخبرونه باللاقة، ويستدركون الأمر قبل الفوات، فأجبناهم إلى ذلك فما وصلوا حتى ضرب على المحللة ليلاً فرده الله بالخيبة، وأشوه أوبة، وترك قتلاه صرعى بعد ما حمل منهم عدداً وجعل يدفن منهم في قبوره، ويختفي ما حل به في أوله، فتقدمت إليه المحللة الغالية باله وقاتلته قتالاً أذاقته فيه الوبر والخيال، فكانت الكرة عليه فأجلف إجفال النعام، واستدير المعركة وهام، ومات من خاصته ورؤسائه وأهل شدته وذوي بأسائه عدد معتبر، ومن هو أدهى وأمر، وعادت جموعه جمع تكسير، وجيشه موزعة بين قتيل وأسير، وسخر بهم بعد أن كانوا ساخرين، وغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، ومن الله أستمد التوفيق والهداية إلى أرشد طريق. والسلام، في الثاني والعشرين من محروم العرام فاتح سنة أربع وستين ومائتين وألف اه نص الكتاب الشريف وأما الحاج عبد القادر فإنه فر إلى الفرنسيس كما قلنا فبقي عنده مدة.

قال صاحب قطف الزهور ما صورته: لما فر الحاج عبد القادر إلى الفرنسيس بقي عندهم ست سنين ثم اعتقه نابليون الثالث وعين له مرتبًا سنويًا يدفع إليه من بيت مال الدولة فسكن دمشق الشام ولم يزل قاطناً بها إلى هذا اليوم اه. قلت: وهو الآن في قيد الحياة حسبما يبلغنا والله تعالى يتولى أمر المسلمين، ويتداركهم بلطفه وفضله أمين.

قال أبو عبد الله أكتنوسوس : وفي ضحى يوم الاثنين الرابع من المحرم فاتح سنة أربع وستين ومائتين وألف توفي الوزير الأعظم، الفقيه الأجل الأكرم ، إمام عملة اليراع ، ومقدم حملة ذلك الشراع ، مقلد الدولة بقلائد الشار والنظام ، في المواقف العظام ، والمزري ببدائعه ، وأوابده وروائعه ، ببديع الزمان ، والفتح بن خاقان ، أبو عبد الله محمد بن إدريس جدد الله عليه ملابس الرضا كلما لاح نجم وأضاء ، فولى السلطان مكانه الفقيه النجيب ذا الأخلاق العاطرة ، والأنامل الواكفة الماطرة ، والرأي الأصيل والأمر المحبوب ، والباطن الصافي الذي يحاكيه الذهب المسبوك ، أبو عبد الله محمد العربي بن المختار الجامعي ، ثم لما قدم السلطان رحمه الله لحضرمة مراكش ، آخر قدمها سنة سبعين ومائتين ألف عزله وولى مكانه الفقيه الكاتب اليحيى التزري أبي عبد الله محمد بن عبد الله الصفار الطاولني .

وفي أوائل رمضان من هذه السنة أعني سنة أربع وستين ومائتين وألف خرج السلطان رحمه الله من فاس إلى ناحية وجدة ، فوصل إلى عين زورة فوقف على تلك النواحي وأصلح من شأنها وعاد إلى فاس ليلة عيد الأضحى من السنة .

وفي سنة خمس وستين ومائين وألف كانت فتنة عرب بأحواز سلا وفتنة عرب زعير بأحواز رياط الفتح ، وكلب هاتان القبيلتان على المدينتين وألحوا عليهم بالغارات والنهب والمباغة في العيش والإفساد بالطرقات والجනات واستأفوا السرح مراراً وبقي النتاج عند أربابه حتى هلك ضياعاً إلى غير ذلك ، ولما تجاوزوا الحد في الطغيان بعث السلطان وصيفه البشا فرجي صاحب فاس الجديد فأوقع بعامر وقعة شنقاء رابع يوم النحر من السنة ومزقهم شذر مذر بعد أن تحصنوا بالغراث فيما بين سلا والمهدية .

وفي هذه السنة حج ولد السلطان المولى الرشيد والمولى سليمان واعتلى بشأنهما صاحب مصر وصاحب الحجاز غاية ورجعا من السنة القابلة . وفي هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب كان يطلع في ناحية المغرب ويغرب بعد

العشاء مدة من شهر ونحوه، ففزع الناس من ذلك وتخوفوه كما قال أبو تمام:

وخفروا الناس من دهاء مظلمة إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

وفي سنة ست وستين ومائتين وألف أحدث السلطان المكس بفاس
وغيرها من الأقصار، أحدثه أولاً في الجلد على يد المصطفى الدكالي بن
الجيلاطي الرياطي، والمكي القباج الفاسي، ثم أحدثه في البهائم، ثم تفاحش
أمره في دولة ابنه السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمة الله وهم
جزأا.

وفي هذه السنة وذلك ليلة السادس والعشرين من رمضان توفي ولی الله
أبو عبد الله سیدي عبد القادر العلمي البركة الشهير صاحب الأزجال
المحلونة وكانت وفاته بمكناة الزيتون ودفن بجومة سیدي أبي الطيب وعليه
بناء حفيل إلى الغاية رحمة الله ورضي عنه. وفي هذه السنة بعث السلطان
ولده المولى عبد القادر وهو ابن اشتني عشرة سنة إلى سلا بقصد القراءة بها
فنزل بدار قاضيها أبي عبد الله محمد بن حسون عواد وكتب إليه السلطان
رحمة الله بأن يعود الولد المذكور الخشن من المطعم والملابس، وأن لا
يمكنه من شرب الآتاي إلا مرة أو مرتين في الجمعة. وفي هذه السنة أيضاً
كان الغلاء الكبير والجوع المفرط وكان أكثره بقبائل الحوز من ابن مسكنين
وعبدة وذكالة وغيرهم؛ فأهرعت هذه القبائل إلى بلاد الغرب والفحص
وأكلت الناس الجيف والميّة والنبات وصار يعرف عند أهل الباية بعام
الخيبي وعام يربني، وكان الرجل يأكل ولا يشبع، وإذا أمعن في الأكل
وتضلع شبعاً لم تمض إلا هنيئة حتى تضطرم أحشاوه جوعاً، وكان المد بسلا
ورباط الفتح وهو مد كبير جداً قد بلغ ثمانية عشر مثقالاً فجعله العامة تاريجاً
يقولون كان ذلك عام ثمانية عشر مثقالاً.

وفي سنة سبع وستين ومائتين وألف وذلك ليلة الأربعاء الثالث والعشرين
من ربيع الثاني منها توفي الفقيه العلامة القاضي بسلا أبو عبد الله محمد بن
حسون عواد ودفن بزاوية الشيخ سیدي أحمد بن عبد القادر التستاوي من

حومة بباب أحسين من المدينة المذكورة وكان رحمة الله عارفاً بالفقه والحديث وال نحو قد أفنى عمره في جمع الكتب ونسخها وخطه معتمد سالم من التصحيح، وكانت فيه شفقة على الضعفاء والأسراف وذوي البيوتات، كثير البرور بهم والإحسان إليهم رحمة الله . وفي يوم الأربعاء فاتح هذه السنة توفي الشريف البركة الأفضل أبو عبد الله سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني ، وكان جليل القدر شهير الذكر نفعنا الله به وبأسلافه .

وفي سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجم الفرنسيس على سلا وذلك بسبب مركبين وردا إلى مرسى العدوتين مملوءين قمحاً وكانت السنة سنة مسغبة فنشب المركبان بساحل سلا فتسارعت العامة إليهما وانتبهوهما ثم تجاوزوا ذلك إلى ألواح المركبين وأتاهما فتوزعواها ، وكان المركبان لتجار الفرنسيس فتكلموا في شأنهما مع السلطان رحمة الله فكتب إلى عامل سلا أبي عبد الله محمد بن عبد الهادي زنiber يستكشفه عن الخبر فجحد ذلك ظناً منه أنه يدفع بذلك عن البلد، ولما لم يحصل الفرنسيس بالكلام مع السلطان على طائل هجم على سلا يوم الثلاثاء مهل صفر من السنة المذكورة في خمسة بابورات وقباق كبير، ويقال له النابيوس ، يشتمل على نحو ستين مدفعاً أو أكثر، ومن الغدر زحف بمراكبها حتى سامت بها البلد في الساعة العاشرة من النهار وشرع في رمي الكور والبنب إلا واحداً منها فإنه تباعد قليلاً ويفي بینظر قيل هو للنجليز ، وكان تراوف الكور والبنب على البلد على صورة فطيعة مثل الرعد القاصف تقاد تنهد له الجبال ، وكان في أول النهار لا يفتر وبعد الزوال صار تتخله فترات يسيرة ، واستمر الحال على ذلك إلى أن غربت الشمس ومضى نحو نصف ساعة وكانت مدة الرمي ثمان ساعات ونصفاً، وبذل الناس مجهودهم في مقابلتهم بالرمي وفي آخر النهار عجز الناس ويفي برمي وحده واستشهد من المسلمين نحو سبعة أنفس، وكان الكور والبنب الذي رمى به العدو في ذلك اليوم شيئاً كثيراً، فالعقل يقول سبعة آلاف، والمكثر يقول اثنا عشر ألفاً، وكان البنب يتفرق بعد مدة وقتل أناساً ووقع في المسجد الأعظم ومنارة كور كثیر خرق

السقوف والحيطان وكذا في دور أهل البلد فأنعم السلطان على الناس
بإصلاحها من بيت المال.

وقد ساق منويل خبر هذه القصة وقال: إنه لما انقضى للفرنسيسزاد
يعني الكور والبارود أقلع ليلاً لأنه خاف إن لم يذهب طوعاً ذهب كرهاً،
ولما اتصل الخبر بالسلطان رحمة الله وهو يومئذ بفاس كتب كتاباً يقول فيه ما
نصله: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وأله وصحبه، عبد
الرحمن بن هشام الله وليه، خديمنا الأرضي الطالب محمد بن عبد الهادي
زبيبر وفقك الله وسلم عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد: فقد وصلنا
كتابك مخبراً بما صدر من مراكب عدو الله الفرنسيس من استرسال الرمي
على المدينة من ضحى النهار إلى قرب العشاء، ثم أقلعوا بالخيبة والهوان
وردhem الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، ومنح الله المسلمين من الصبر والثبات
والبيقين ما قرت به عين الدين، وكان قدأ في عين أهل الشرك المعذبين،
واستشهد من المجاهدين من ختم الله له بالسعادة الأبدية والحياة السرمدية،
فالحمد لله على إعزاز دينه ونصر ملة نبيه، ولا زالت والحمد لله مشكاة
الإسلام ساطعة الأنوار، مشيدة المنار، ﴿وَلَلَّهِ مُتْمِثِّمٌ تُؤْهِلُ وَلَوْ حَكَرَ الْكَافِرُونَ﴾
[الصف: ٨]، ولا يخفى عليكم ما ورد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في
فضل الجهاد في سبيل الله والصبر لإعلاء كلمة الله، وقد قمنتم بالواجب
عليكم في ذلك وكتنتم عند الظن بكم وأتيتم بالمطلوب منكم أصلحكم الله
ورضي عنكم، ومن قتل فقد أكرمه الله بالنعم الذي لا تقاد له وكل ما تلف
يخلفه الله فيما كان في الله تلفه فعليه سبحانه خلفه، فزيدوا في التيقظ والصبر
أعانكم الله، وقد أمرنا خدامنا أمناء العدويتين بتوجيه معلميين للغاية لقطع
الكرياريط وكتبنا لخديمنا ابن الحفيان بإزالة خيام بقربهم يأتون إليها حسبما
طلبت ولا تعدمون شيئاً مما يخصكم إن شاء الله، وما ذكرت من اجتماع أهل
المدينة عندك مع القاضي والأمين راغبين في الكتب لحضرتنا العلية بالإنعم
عليهم بما يصلحون به صقالتهم ومساجدهم ودورهم وأسوارهم فها نحن
كتبنا لأمناء العدويتين بالقدوم عليكم والتطواف على المحال المتهدمة دور

وغيرها بمحضرك مع القاضي والعدول وتقويم إصلاح كل محل بالمناسب، وأما الجامع الكبير وسيدي ابن عاشر فييسرون لهما الإقامة وعند تيسيرها يشرعون في إصلاحهما، وأما الصقالة الجديدة والسور فيشرعون الآن في إصلاحهما إصلاحاً متقدناً بالطابية الجيدة التي لا يؤثر الكور فيها شيئاً ويجعلون لها ساتراً على كيفية بحيث يكون الضارب في أمان ولا ترافقها في ذلك، ونحن على نية إحداث بستيون جيد إن شاء الله عند منتهى السور من جهة الصقالة الجديدة فالعزل العزم والحزم الحزم، ويصلك كتاب أقرأه على خداماً أهل سلا والسلام، في ثامن صفر عام ثمانية وستين ومائتين وألف انتهى نص الكتاب الشريف وقد أحده السلطان رحمة الله هذا البستيون فجاء في غاية الجودة والمتانة والحسن وهو أثر من آثار الدول العظام.

وفي هذه السنة ورد كتاب من السلطان في شأن حصر السكة يقول فيه ما نصه: وبعد، فقد طالما حاولنا حصر الزيادة في السكة وحدزينا وأنذرنا وأوعزنا من تعدى فيها حداً أو مد فيها بغير ما عينا يداً فلم يزد الناس إلا تطاولاً فيها وإنداماً عليها فاستخروا الله في أمرها فظهر لنا أن نزيد فيها ما تواطأ الناس على زيادته ولم يرجعوا عنه تتميماً للأعذار وتكميلاً للإنذار، فمن وقف عند ما حددنا ولم يحد عما أبربنا فقد اختار سلامه نفسه وماله، ومن تعدى وافتات في ذلك بأدنى شيء فقد سعى في هلاك نفسه وبيناله من الوبال والنkal ما يتركه عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن تذكر، وقد أذر من أنذر، وما نحن جعلنا للبندقى أربعين أوقية، وللضبلون اثنين وثلاثين مثقالاً، وللريال ذي المدفع عشرين أوقية، وللذى لا مدفع فيه تسع عشرة أوقية، وللبسيطة التي بالمدفع خمس أواق، وللتى لا مدفع فيها أربع أواق، وللدرهم الرباعي أربع موزونات ونصف موزونة، وللدرهم السادس سبع موزونات، فعلى هذا العمل، فأعلموا به من إلى نظركم وفي إياتكم ومرورهم بالوقوف عنده ومن حاد عنه وشتمتم عليه رائحة الخوض والتعدى فيه ازجروه زجراً شديداً وأعلمونا والسلام، في رابع عشر ربيع الثاني عام ثمانية وستين ومائين وألف.

وفي سنة تسع وستين ومائتين وألف غزا السلطان رحمة الله قبيلة زمور الثلوج وكان بمكناسة فكتب أولاً لابنه وخليفة سيدي محمد بمراكب فنهض منها ومر على تادلا فأوقعبني موسى، وقطع منهم أربعة وستين رأساً وبقى على مائة وخمسين مسجونة وكانوا قد قتلوا عاملهم أبي العباس أحمد بن زيدون، ثم دخل الخليفة رياط الفتح يوم الاثنين الحادي عشر من شوال من السنة المذكورة فأقام به إلى يوم السبت السادس عشر منه ثم عبر الوادي ونزل بقرميم من أعمال سلا، ثم سافر من الغدريات بسيدي علال البحراوي فأقام هناك يومين، ثم رحل فنزل بتيفلت وأقام أياماً ثم تقدم إلى دار ابن الغازي وكان السلطان رحمة الله قد خرج من مكناسة فنزل الخمسينيات وشن الغارات على زمور فتوغلوا في الجبال فانتسف السلطان أموالهم وأكل زروعهم حتى أشجاهم ثم ارتحل عنهم إلى مراكش، وارتحل الخليفة إلى فاس وذلك في السادس والعشرين من ذي القعدة من السنة، ومن هذا التاريخ صار السلطان وال الخليفة رحمهما الله يغزوانهم كل سنة ويجتمعان عليهم فتتسنى الجنود زروعهم وأموالهم حتى أضر بهم الحال وأشرفوا على الهلاك وكادت تendum عندهم الأقواء وأذعنوا إلى الطاعة طوعاً وكرهاً، ولما نهض السلطان عنهم في هذه المرة كتب كتاباً يقول فيه: وبعد، فإن فساد زمور يعرفه الخاص والعام والجمهور. أشد سواداً من الليل وأقوى مضاهة بالسيل، وطالما ذكرناهم ووعظناهم، وحدرناهم وأنذرناهم، وغضضنا الطرف عنهم مقابلين شدتهم باللعن، وتحريكهم بالتسكين، فأطغاهم العجب وأبطرهم، وغطى الشر سمعهم وبصرهم، **﴿وَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ فَتَتَّهُ فَلَنْ تَتَّلَكْ لَهُ وَنَّ اللَّهُ شَيْئًا﴾** [المائدة: 41]، ولما رأينا ضلالهم لم يسفر عنه صبح الإقلاع، وشعار الإسلام استولت عليها يد الضياع، استنهضنا إليهم الجيوش المنصورة، التي لم تزل ألوية الفتح أمامها بحول الله منشورة، واستقدمنا ولدنا الأبر سيدى محمداً حفظه الله من مراكش في جيش يقدمه اليمين والإقبال ويسوقه السعد في المقام والترحال، ونهضنا نحن من مكناسة الزيتون في جيش شحن الفضاء وملا النواحي والأرجاء، خيلاً ورجالاً خفافاً وثقلاً، وكنا فيما تقدم

نحارب هؤلاء المفسدين في المحل المشهور بالخمسات فكانت المحال لا تستوعبهم قتلاً ونهباً وتشريداً وضرباً، فرأينا هذه المرة أن ننزل عليهم أولاً بعين العرمة محل أفسدهم على الإطلاق والشمول والاستغراب، فخيمنا بها أياماً ثم رحلنا منها ونزلنا بممحصى ثم رحلنا منه ونزلنا الخمسات، وفي خلال مقامنا ورحلتنا حل ولدنا سيد محمد حفظه الله من الرباط ونزل بيته محل المفسدين، ومحط رحال البغاة المعذبين، وتقارب المحلتان فعظمت على المفسدين بذلك النكبة وبلغت فيهم الحد والنهاية، واشتغلت المحال بأكل زروعهم وتبديدها واستخراج خبایاهم قدیمها وجديدة، وهم حیاری ینظرون، وإلى ما حل بهم من البلاء يبصرون، وكلما عزموا على المدافعة رجعوا بالهوان، وتخطفت رؤوس زعمائهم العقبان، فعجزوا إذا وخرجوا من بلادهم وأيقنوا أن الشقاء المكتوب عليهم حكم بطردهم وبعادهم، ولم يبق بها أئس إلا اليعافير والإعيس، وتحصنوا بأوعارهم المعلومة وصياصيهم المشؤومة، في جبال تنقيبت بالغيوم وكادت تصافح النجوم، فضاق بهم الحال وهلك العيال، وضاعت الأموال جوعاً وعطشاً، وتصرف فيهم البلاء كيف شاء، ومع تحصنتهم بتلك الأوعار وملتف تلك الأشجار، كانت الجيوش تود أن تقتسمها عليهم وتهب نفس أعمارها في أخذهم، ونحن قد هبنا الرفق الذي يزين وتركنا الخرق الذي يشين، فأمرنا بالإمساك عنهم حتى تلفظهم أو عارهم وتحرقهم نارهم، فلما طال بهم الأمد وتجرعوا حمى الكمد، استجاروا بولدنا سيد محمد حفظه الله فشفع عندنا فيهم فقبلنا شفاعته على شروط قبلوها وحقوق التزموها ومطالب نبذوها، وجنحنا إلى الحلم والعفو اللذين أمر الله بهما، وأسننا أمرهم إلى ولدنا المذكور قطعاً لأعذارهم ونهضنا عنهم والحمد لله محتسبين، والله أسأل توفيق المسلمين أجمعين أمين، في السادس والعشرين من ذي القعدة الحرام عام تسعه وستين ومائتين وألف اه نص الكتاب الشريف.

وفي هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب أيضاً، وفي أوائلها استوزر السلطان رحمة الله الفقيه العلامة الأفضل أبو عبد الله محمد بن عبد الله

الصفار التطاوني عقب قدمه إلى مراكش، وفيها تم بناء البستيون العظيم بسلا الموضوع بالزاوية الشمالية منها على شاطئ البحر، وكان الصاثر عليه بأمر السلطان من أحجاس المسجد الأعظم برباط الفتح خمسون ألف مقال أو ما يقرب منها، وفيها أيضاً وقعت نادرة بفاس وهي أن الإمام كان يخطب يوم الجمعة بمسجد القروريين فسقط بالصف الثالث منه قطعة من الجبس المبني به السقف تزن نحو ربع قنطرار ففر الناس الذين كانوا بذلك الصف فرأهم الذين من خلفهم ففرروا لفراهم فرأهم غيرهم ففعلوا مثلهم حتى تقوضت صفوف المسجد كلها وخرجوا يتسابقون إلى الأبواب ووقع عليها ازدحام شديد وجاؤت مقدمتهم سوق الشماعين وتركوا نعالهم ولبدهم وطياتهم بل وقلائهم وضاع من المصايف والأجزاء وللائل الخيرات ما لا يحصى، كل ذلك وهم لا يدركون ما وقع وما تراجعوا إلا بعد حين.

ثورة إبراهيم يسمور البزدكي بالصحراء

لما كانت أواسط إحدى وسبعين ومائتين وألف ظهر إبراهيم يسمور البزدكي بصحراء تافيلالت وكان السبب في ذلك أن برابرة الصحراء يومئذ كانوا حزبين: حزب آيت عطة ولهم العزة والكثرة بذلك القطر، وحزب آيت يفلمان وهم دون ذلك، وكانت آيت عطة تؤدي الأشراف بتلك الناحية وتسيء جوارهم فقام إبراهيم هذا في آيت يفلمان وجنج إلى الأشراف وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم وصار يأمر قومه بالمعرفة وينهاهم عن المنكر ويذكر السلطان بخير ويحضر قومه على طاعته حتى اشتهر بذلك القطر وكثير الثناء عليه، واتفق أن حدث في أثناء ذلك بينهم وبين آيت عطة شأنان فزحف إليهم إبراهيم وأوقع بهم وقعة بعد العهد بمثلها فازداد قومه فيه محبة وغبطة وعلقت به آمال الأشراف وأحبوه لأن غلبة آيت عطة يومئذ كانت من الأمر الغريب، وانضم إلى ذلك بسط يده بالعطاء للبعيد والقريب واتصل خبره بالسلطان وكان من طبعه رحمة الله محبة أهل الخير والجنوح لهم، فأقبل عليه

ورفع من قدره وولاه على تلك الناحية فاشتد أمره وطار ذكره وسرت فيه نخوة الرياسة فأراد الاستبداد واستحال حاله إلى الفساد، حتى صار يرد على السلطان أوامرها، ثم تدنى قليلاً قليلاً من أطراف المملكة وقوى حسه بالغرب فكتب إليه السلطان رحمة الله الكتائب وبعث البعوث فقاتلوا برهة ثم قبض الله بعض قرابته فاغتاله واحتز رأسه وجاء به متقرباً إلى السلطان وهو يومئذ بمراكش فأمر السلطان بإعمال المفرحتات واستدعى أهل مراكش على طبقاتهم فأفاض عليهم النعم وغمرهم بالإحسان غمراً الديم.

نادرة: كان ممن استدعاه السلطان رحمة الله في هذا الصنيع أهل المدارس من طلبة العلم المتغيرين بها، فجلسوا ناحية من القوم ولما خرج الطعام من دار السلطان وفرق على طبقات الناس اتفق تأخيره عن هؤلاء الطلبة، واتفق أيضاً أن سأله بعض الحاشية بعض الأعوان القائمين على الطعام فقال له: من الذي بقي بدون إطعام فقال: لم يبق إلا الطلبة والطحانون وكان كذلك فسمعه أحد الطلبة فقال لأصحابه: لا تسمعون إلى ما يقول هذا؟ فقالوا: وما قال؟ قال لهم: قال إنه لم يبق إلا أنتم والطحانون فقد شوركتم معهم بالعطاف بالواو والله لا جلستم، وقاموا مغضبين فتبعهم بعض حاشية السلطان واستعطفهم فلم يرجعوا، واتصل الخبر بالسلطان فقال دعهم فستصلاح شأنهم، ومن الغد دعاهم إلى بستان الوزير ابن إدريس داخل باب الرب من مراكش وأفاض عليهم من النعم ما غمرهم ثلاثة أيام حتى رضوا، ثم عمدوا إلى ثمار البستان فاستلبواها عن آخرها وهذه القصة تدل على كرم طبع السلطان رحمة الله وسعة أخلاقه وتعظيمه للعلم وأهله، وقد ذكرت بهذه النادرة قول القائل:

إذا شوركت في أمر بدون فلا يك منك في هذا نفور
ففي العيون يجتمع اضطراراً أرسطاليس والكلب العقرور
وتحقيق مسألة هذا العطف مذكور في باب الفصل والوصل من علم
المعاني، وبستان ابن إدريس هذا هو الذي يقول فيه أبو عبد الله أكنوسوس
رحمة الله :

وأدر بساحتة نجوم الأكوس
وأحلهم فيه حلول المعرس
يعنيك عن جيرون أهل المقدس
وعن الخورنق والرسوم الدرس
غرف البديع وحق مجلدك لم تس
وتحار في مرآه عين الأكيس
كل المنى أو كل معنى أنفس
إن الحنايا الحدب فيه كالقس
مخضل أو من زهره المتنفس
مثل المجرة والنجمون النكس
تحكي البرين عن الغوانى الميس
وتسابقوا اللذات نحو المحتس
واستبدلتنه أنعمًا من أبوس
نجل الأدارسة الكرام المغرس
رتب العلى أبيه وأبيح ملبس
كل الأماني والغنى للمفلس
بالسعد في عام انشراح الأنفس
بالغيد ترفل في بهي السنديس
راح المراسف من أغفن العس
كالبدر يظهر من خلال الحندس
يجلالك العالى الأعز الأقدس

وفي هذه السنة أعني سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف كان الوباء بالغرب وهو إسهال مفرط يعتري الشخص ويصحبه وجع حاد في البطن والساقيين ويعقبه تشنج وبرودة واسوداد لون فإذا تمادي بالشخص حتى جاوز أربعين وعشرين ساعة فالغالب السلامة والا فهو الحتف، وفي هذا الوباء مات

شيخ الطريقة أبا عبد الله سيدى محمد الحراق الطاونى، وبموته أقلى الوباء من تلك البلدة، ومات به بسلا متصف ذي القعدة من السنة مائة وعشرون نفساً، وفي هذا اليوم توفي عامل سلا أبو عبد الله محمد بن عبد الهادى زنبر.

وفي سنة اثنين وسبعين ومائتين وألف التفت الخليفة سيدى محمد بن عبد الرحمن إلى عرب الخلط فاستعملهم في الجندية بعد أن كانوا في عداد القبائل الغارمة من لدن المنصور السعدي فأعنتى بهم الخليفة المذكور ونقلهم من بلاد سفيان وبني مالك وأحواز العرائش وأنزلهم بزقطة ووادي مكس من أعمال مكناسة، وكساهم وأجرى عليهم العجرايات ثم اختل أمرهم بعد سنتين أو ثلاثة.

وفي سنة ثلات وسبعين ومائين وألف ورد كتاب من السلطان رحمه الله يقول فيه بعد الافتتاح ما نصه: خديمنا الأرضى الطالب عبد العزيز محبوبة وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فهو صول كتابنا هذا إليك عين عشرين من الولدان النجباء لتعلم علم تاطبجيت وانظر لهم معلماً ماهراً أو معلمين من طبجية البلد يعلمهم ويشرعون في التعلم الآن فيبدوون بمقدماته ثم يتدرّبون منها إلى الأخذ في تعلم رماية المدفع والمهارس وهكذا حتى ينجحوا ويمهرّوا في الصنعة ويصيروا قادرين على الخدمة، ونطلب الله أن يعيّنهم ويفتح بصائرهم، وهو لاء العشرون يكونون زائدين على من هنالك من الطبجية، ونأمر الأماء أن يرتّبوا لهم إعانته على ذلك خمس عشرة أوقية في كل شهر للواحد، ثم من ظهرت نجابتهم منهم وفاق غيره فإنما نزيده في المرتب، كما نأمرهم أن يرتّبوا لمعلّمهم واحد أو اثنين ثلائين أوقية للواحد في كل شهر زيادة على راتبهم المعلوم، واعتن بأمرهم غاية الاعتناء، وقد كتبنا لغيركم من المراسي مثل هذا وستنطر من تظاهر ثمرته واعتناؤه والسلام، في عشرين من ذي القعدة عام ثلات وسبعين ومائين وألف أه نص الكتاب الشريف.

وفي هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان وبين النجليز وهي قسمان: قسم في أمور التجارة، وبيان الصاكة والأعشار، وأن لا تعطى من أعيان السلع إلا إذا أراد التاجر ذلك عن طيب نفسه وهي خمسة عشر شرطاً. وقسم في أمور الهدنة بشمول الأمن والاحترام لرعايتهم الجنابين في أي موضع كانوا، وهي ثمانية وثلاثون شرطاً، وكان المباشر لعقدها أبو عبد الله محمد الخطيب النطاواني بطنجة.

بعث السلطان المولى عبد الرحمن أولاده إلى الحجاز وما اتفق لهم في ذلك

وفي سنة أربع وسبعين وألف بعث السلطان رحمه الله أولاده إلى الحجاز بقصد أداء فريضة الحج وهم المولى علي والمولى إبراهيم والمولى عبد الله والمولى جعفر وابن عمهم المولى أبو بكر بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله وبالغ السلطان رحمه الله في حسن تجهيزهم بما لم يتقدم مثله لإخوتهم الذين حجوا قبلهم لا من الأموال ولا من الرجال ولا من الأدوات والمراكب الفارهة والمرافق العديدة، وبعث معهم من الأموال شيئاً كثيراً لأشراف الحرمين، ولخواص معينين من الفقهاء والمجاورين، ووجه أكابر التجار والأمناء العارفين بعادات البلاد والأقاليم والأمم، مثل الحاج محمد بن الحاج أحمد الرزباني النطاواني، وال الحاج محمد بن جنان البارودي التلمساني، وبعث معهم قاضي مكتنasa الفقيه العلامة السيد المهدى بن الطالب بن سودة العري الفاسي وأخاه الفقيه العلامة السيد أحمد بن سودة في جملة من الفقهاء يقرؤون عليهم.

أخبرني الحاج عبد الكرييم بن الحاج أحمد الرزباني وهو أخو الحاج محمد المذكور آنفأ أن السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله لما عزم على بعث أولاده إلى الحجاز استدعى الأمين الحاج محمد المذكور فدخل عليه

فأوصاه بما تنبغي الوصاة به وأخبره أن المال الذي عينه للنفقة على الأولاد المذكورين هي نفقة جمعت من حلال بعضها من أصول باتفاقيات وبعضها من غيرها مما هو حلال وقال له: احتفظ بذلك المال واجعل السخاء فيه بمنزلة الملح في الطعام، اه ولما عزم الأولاد المذكورون على الانفصال إلى وجهتهم أصحابهم السلطان رحمة الله وصية كافية يقول فيها ما نصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآلله وصحبه أولادنا عبد الله وإبراهيم وعلياً وأبا بكر وجعفرًا وفقنا الله وإياكم للعمل بطاعته وحفظكم وأرشدكم وتولاكم، وكان لكم فيسائر أحوالكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإنه لما كانت الأولاد قطع الأكباد وعماد الظهور وثمار القلوب وشفاء الصدور، وجب أن يكون لهم الآباء السماء الظلية والسحابة المبنية، وخير الآباء للأبناء ما لم تدعه المودة للتغريب في الحقوق، وخير الأبناء للأباء ما لم يدعه التقصير إلى المخالفات والعقود، قال رسول الله ﷺ: «الأولاد من رياحين الجنة» وقال القائل:

إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم تمتنع العين من الغمض

هذا وإن أولى ما زود به والد ولده وصية يتخذها في سفره إمامه ومعتمده، فاعلموا أنا وجيئناكم لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، واستودعناكم الله الذي لا تضيع ودائمه، فاقدروا قدر هذه الوجهة التي قصدتموها، واعرفوا حق هذه العبادة التي يممتموها، فتوجهوا لها بحسن النية راجين من الله سبحانه بلوغ القصد والأمنية، وأوصيكم بتقوى الله في السر والعلنية فإن خير الزاد التقوى، وبما أوصى به إبراهيم بنيه «يَبْيَقُ إِنَّ اللَّهَ أَضْطَلَنَّ لِكُمُ الَّذِينَ فَلَا تَمُوْنَ إِلَّا وَأَشَرَّ مُشْلُمُونَ» [البقرة: 132]،
وبيما قال لقمان لابنه وهو يعظه: «يَبْيَقُ لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنْكَ أَفْرَكَ لَظُلْمًا عَظِيمًا» [يَبْيَقُ أَفْرَكَ الصَّلَاةَ وَأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ] [القمان: 13، 17]، الآية واستوصوا ببعضكم بعضاً خيراً وتواصلوا بالصبر وتواصلوا بالمرحمة، وأخوكم مولاي عبد الله أكبركم فكونوا عند إشارته فإن للسن حقاً في

التقدم، وفي الحديث الشريف: كبر كبر، ومنذ نوينا توجيهكم لهذه الوجهة السعيدة ونحن نجحيل الفكر فيمن نوجّهه معكم حتى وقع اختيارنا على خديمنا الحاج محمد الرزيني لكونه نعم الرجل واجتمع فيه من الأوصاف المحمودة ما افترق في غيره، فلكونوا له بمنزلة الأولاد البررة ول يكن لكم بمنزلة الوالد الشفيف كما قال القائل:

وكان لها أبو حسن علي أباً بزاً ونحن له بنين

وأزرناه بالحاج أبي جنان البارودي لمروعته وحسن هديه وسمته وكلاهما خير والحمد لله، وأثراكم على أنفسنا بالفقية الأولي المشارك السيد المهدي ابن سودة وتوجه معه أخيه وهو أيضاً من يشفع بعلمه فألوفوا كل واحد منهم قسطه ومستحقه مما أرشد إليه الرسول فهذب وأدب إذ قال: «ليس منا من لم يوكل بغيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقة» وحافظوا على دينكم واستغلوا بما يعنيكم، واتركوا ما لا يعنيكم، ففي الحديث الشريف: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» واعكفوا على قراءتكم ولا تضييعوا الأوقات في البطالة خصوصاً ما يتعلق بالعبادة التي أنتم بصددها، فمن الأن اصرعوا كليةكم لقراءة المناسبات وابذوا بأسهلهما وأقربها مناسك المرشد المعين ثم منها إلى ما هو أوسع فروعاً وأكثر مسائل، وعلى الفقيه السيد المهدي المذكور أن لا يألو جهداً ونصيحة في تعليمكم القراءة معكم، واجعلوا أيضاً وقتاً مع أخيه فإنه من طلبة الوقت المدرسين فلم يبق لكم عنذر في التقصير والبطالة وكل من توجه معكم من الأصحاب والأتباع والدaias فهو في رعايتكم، وفي الحديث: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، فعلمونهم أمر دينهم ومناسك حجتهم وخطبوا لهم في ذلك على قدر ما يفهمون ليكون عملهم في صحيحتكم، وفي الحديث: «خيركم من تعلم وعلم» وفيه أيضاً: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً لك مما طلت عليه الشمس» وتحلوا بحلية أهل الفضل والكمال، وككونوا على ما ينبغي من الأدب مع الخلق ومع الخالق، وهذبوا أخلاقكم وهشوا ويشوا لملاقاة الناس وعاملوا كل واحد بما يستحقه، ولا زال الناس يذكرون هنالك أخاكـم مولاـي سليمان

أصلحه الله ويدعون له في تلك الأماكن الشريفة لما رأوا من سعة أخلاقه وحسن بشره ويشاشته مع الناس، ونعهد إليك أن لا تتركنا من الدعاء في أي موطن حلتموه من تلك المواطن الشريفة خصوصاً عند الملتم والمقام وغيرهما من الأماكن التي ترجى إجابة الدعاء عندها، وتوبوا عنا في استلام الحجر الأسعد وفي زيارة قبر النبي ﷺ والتسليم عليه وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وعليكم بالاستقامة في جميع أموركم وسلوك سبيل الموافقة والاشتلاف، وترك المشاجرة والاختلاف، ومخالفة الهوى والنفس والشيطان فإن له مزيد تسلط بالشر في طرق الخير فكونوا في جميعها على حذر قال تعالى: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُلُّ عُدُوٍّ فَاقْتُلُوهُ عِدُوًّا» [فاطر: ٦] نسأل الله لكم الحفظ والسلامة والأمن والعافية ذهاباً وإياباً في أنفسكم ودينيكم ودنياكم، ونستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتم عملكم فتوجهوا في حفظ الله على مهل حتى تصلوا إلى القصر وأقيموا به في جوار أبي الحسن بن غالب نفعنا الله وإياكم ببركاته كما فعل إخوانكم قبل فإن المقام بالقصر خير من المقام بطنجة حتى يقدم البابور ويكتب لكم الخطيب بالإعلام وحينئذ توجهوا إليها راشدين، وقد كتبنا بذلك للطالب محمد الخطيب، وطالعوا الحاج محمد الرزيني على كتابنا هذا حين تلاقوا معه إن شاء الله، واعلموا أننا عينا عشرين ألف ريال بقصد أن يشتري بها حبس في سبيل الله عشرة آلاف ريال يشتري بها ما يكون حبساً بمكة، وعشرة آلاف ريال يشتري بها ما يكون حبساً في سبيل الله بالمدينة المنورة، وهي من جملة ما حاز الحاج محمد الرزيني ورفيقه فيما حازا من الصائر رجاء أن يبقى أجراً ذلك جارياً متفعلاً به إن شاء الله والسلام، في السادس من رمضان المعظم عام أربعة وسبعين ومائتين وألف.

قال أكنسوس: وكان ركوبهم من طنجة في قرصان التجليز، فلما بلغوا إلى الإسكندرية تلقاهم صاحب مصر بغایة الفرح والسرور وفوق ما يوصف من الإكرام والبرور، وأنزلهم في أعز مساكنه وأبهاهها وأبهجهها وأشهها، وأعد فيها كل ما يحتاج إليه من أواني الفضة والذهب وفرش الحرير

والديباج والنفائس الغريبة، ورتب لهم الرواتب العالية من أنواع الأطعمة والأشربة الفاخرة التي تناسب أقدارهم، وأباح لهم الدخول إلى كل محل أرادوا رؤيته من الأبنية والمصانع والرياض والبساتين المملوكة التي يتعجب من رؤيتها وتنقل أخبارها فشاهدوا من ذلك ما لا يكشف حقيقته اللسان، وما لا يظن أن تناوله قدرة الإنسان، ثم ركبوا في بحر القلزم إلى جدة فقضوا مناسكهم وشفوا غلتهم من مباشرة شعائر الشريعة المطهرة من الطواف والسعي وال الوقوف وزيارة المشاهد المباركة، وتوجهوا إلى أعظم المقاصد وأنساناها التي هي لنفوس المؤمنين غاية منها زياره شفيع الأمم في الموقف الأعظم، وكانوا صادفو بمكة وخمّاً وفساد هواء مات منه كثير من العجاج الأفاقين فمات من أصحابهم جملة ومات من أولاد السلطان المولى إبراهيم والمولى جعفر، الأول بمكة والثاني بالمدينة وسلم الله الباقي وأكرمه، وأعلى مقامه وعظمته وجمع له بين شرف الحياة وثواب احتساب مصيبيه لمن مات، ولما فازوا بزيارة سيد الأرضين والسموات ووافقتهم السعادة في ذلك المقام الذي تتضاءل دونه جميع المقامات، وأدركوا ما أملوه من لثم تراب أشرف البقاع وأكرم الحجر وانفجر عليهم من كرم الله ما انفجر، ونان كل واحد ما كان يؤمله ويرجوه، فخرجوا من المدينة راجعين بكل خير وغسلوا بالدموع ما كانوا عفروه في تلك الأماكن من الوجوه، ولكن نالتهم مشقة فادحة من عنة الأعراب في المسافة التي بين المدينة وبينع لأنهم انفردوا عن الركب عند الرجوع ولو لا لطف الله لاستؤصلوا عن آخرهم، ولقد كانت نجاتهم من تلك الشدة من أعجب العجائب، وفي خلوصهم منها عبرة لأولي الألباب، فإنهم كمن بعث بعد سماته وإقباره، وانقطاع أنفاسه وأخباره، والحمد لله الذي لا تخفر ذمته ولا تنتهي حرمته، فلما بلغوا ينعم وجدوا المراكب التي تحملهم في انتظارهم فركبوا قافلين ورياح السلامه تسوقهم، وأرباح التجارة والسعادة قد تكفل بها سوقهم، فلما وردوا حضره مراكش تحت ظلال السلامه وقد نشر عليهم القبول بنوده وأعلامه، باتوا بقنطرة تانسيفت وفي الغد ركبوا الخيول والعساكر السلطانية لتلقاهم، وخرج أهل

مراكش في زيهم وزينتهم وكان يوم لقائهم يوماً مشهوداً، موسمأً من المواسم المعظمة معدوداً اهـ.

وفي سنة خمس وسبعين ومائتين وألف وذلك يوم الجمعة السابع عشر من محرم منها توفي عالم فاس والمغرب والمجيد في صناعة التدريس والتحرير لا سيما مختصر الشيخ خليل الفقيه العلامة الأوحد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الفيلالي الفاسي، وكان المصاب به خصوصاً عند طلبة العلم عظيماً ولم يترك بعده في إجادة تحرير المسائل الفقهية مثله رحمة الله ونفعنا به وفي ليلة السادس من شعبان منها بعد العشاء الأخيرة زلزلت الأرض زلزاً يسيراً، وفي رابع شوال من هذه السنة ورد المجاهد أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي فنيش السلاوي من مدينة لوندرة إلى ثغر سلا ومعه مركب موسوق فيه سبعة عشر مدفعاً ومهرسان عظيمان من المعدن وأشياء آخر من آلة الحرب، وكان جلبه لذلك بأمر السلطان المولى عبد الرحمن لعمارة البستيون الجديد بسلا الذي قدمنا ذكره قبل والله تعالى أعلم. وفي هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب أيضاً وهي المرة الثالثة في هذه المدة.

وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمة الله

كان أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن رحمة الله قد قدم مراكش فاتح سنة سبعين ومائتين وألف ولأول دخوله عزل الوزير أبي عبد الله الجامعي ورتب مكانه الفقيه أبي عبد الله غريط أياماً يسيرة، ثم استوزر الفقيه أبي عبد الله الصفار التطاوي، واستمر السلطان مقيناً بمراكش إلى آخر سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف فغزا زمور الشلح واجتمع عليها هو وال الخليفة سيدى محمد على العادة، ثم صار الخليفة إلى مراكش وانحدر السلطان إلى مكناسة فاستمر مقيناً بها يغزو زمور الشلح ويعود إليها وربما ذهب في بعض

الأحيان إلى فاس إلى أن دخلت سنة ست وسبعين ومائتين وألف فمرض مرض موته، وقد كان ابتدأ به وهو منازل لزومه فنهض عنها إلى مكناسة وتمادى به مرضه إلى أن توفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من محرم فاتح سنة ست وسبعين ومائتين وألف ودفن بين العشاءين أول ليلة من صفر بضريح السلطان الأعظم المولى إسماعيل رحم الله الجميع بنته، وقد كنت رثيته بقصيدة شذت عني الآن وأولها:

أمن طيف ذات الحال قلبك هائم
وسمعك هام واكتئبك دائم
· وهل أذكرتك النائبات عشائرأ
عفت منهم بعد المعالي معالم
ورثاه الفقيه أبو عبد الله أكتسوس بقوله:

هذا الحياة شبيهة الأحلام
حسب الفتى إن كان يعقل أن يرى
فيري بداية كل حي تنتهي
والنفس من حجب الهوى في غفلة
أوليس يكفي ما يرى متاعباً
من لم يصب في نفسه فمصابه
بعد الشيبة شيبة يخشى لها
دار أريد بها العبور لغيرها
منع البقاء بها تخالف حالها
لو كان يتجو من رداها مالك
لنجا أمير المؤمنين ومن خدا
خير السلاطين الذين تقدموا
سر الإله ورحمة منشورة
قصدته عادية الحمام فما عدت
لم تحجب الحجاب منها طارقاً
والملك في عز مهيب شامخ

ما الناس إن حققت غير نیام
منه لأدام رؤیة استعلام
أبداً وإن طال المذا التمام
عماء يراد بها من الأحكام
بين الورى من سطوة الأيام
بحببیه حکماً على إلزم
ذو صحة أن يبتلى بسلام
ويظنها المغرور دار مقام
وتكرر الإشراف والإظلم
في كثرة الأنصار والخدم
أعلى ملوك الأرض نجل هشام
في الغرب أو في الشرق أو في الشام
كانت سراديق ملة الإسلام
إن هددت علماء من الأعلام
كلا ولا دفعت يد الأقوام
واسماء في جرأة الضراغم

والأسد تزار حوله وتحامي
والوجه أبهيج من بدور تمام
متهدجاً لله خير قيام
من معنقاً وأرامل الأيتام
لأجل من أسف وف्रط هيام
ظلاً ظليلاً دائم الإنعام
دار الهناء وجنة الإكرام
من حورها بتحيبة وسلام
درية الألوان والأجسام
وتدير كأساً من مدام مدام
ولك الهناء بنيل كل مرام
عجبًا لها لم تخش من فتكاته
عجبًا لها لم تستح من وجهه
عجبًا لها لم ترع طول قيامه
تبأ لها لم تدر من فجعت به
أسفاً على ذات الجلال وأنه
يا مالكاً كانت لنا أيامه
لا ضير أنك قد رحلت ميمماً
في حضرة تغدو عليك بشائر
ضاجعت في تلك القصور كواعباً
تسقيك صرف السلسيل مروقاً
فلك الرضى فانعم بما أعطيته

بقية أخبار أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن وسيرته ومآثره

يكفيك أيها الواقف على أخبار هذا الإمام الجليل السري النبيل من مناقبه خصلتان: إحداهما شهادة عمه السلطان المولى سليمان له بالتفوى والعدالة والمحافظة على خصال الخير ونواقله حتى قدمه على بنيه حسبما مر ذلك كله مستوفى والثانية إقامته صلب هذه الدولة الشريفة بعد إشرافها على الاحتلال وردها إلى شبابها بعد أن حان منها الزوال والارتحال كما رأيته أيضاً، فعلى التحقيق أن المولى عبد الرحمن رحمة الله هو المولى إسماعيل الثاني، وأما حزمه وضبطة وكمال عقله وتأنيه في الأمور ووضعه الأشياء مواضعها وتبصره في مبادئها وعواقبها وإجراؤها على قوانينها فما أظنك تجهل منه شيئاً بعد أن فصصنا عليك ما مضى من أخباره رحمة الله وقد رأيت كيف نزلت به التوازن وترادفت عليه الهازم من غير معين يذكر أو وزير يعتبر إلا في القليل النادر، فقام رحمة الله بأعباء ذلك كله وعالج حلوه ومره حتى رد النصاب الملكي

إلى أصله وأحل عزه في محله، وأما ورمه وصبره وحياؤه وتوقفه في الدماء توافقاً تماماً إلا إذا حصص الحق وصرح الشرع فكل ذلك أمر معلوم يعلمه الخصوص والعموم، وأما آثاره بال المغرب فشيء كثير من ذلك ما افتتح به ولايته من بناء ما تهدم من مرسي طنجة وصبر عليه مالاً عظيماً حتى أعاده أحسن وأحسن مما كان، ومن ذلك تجديد الحرم الإدريسي بفاس وبناء مسجده وتوسيعته وتنميته حسبما مر، ومن ذلك البرجان العظيمان بسلا وأشجار الكبير المواجه للبحر منها والمارستان الكبير بضريح الشيخ ابن عاشر والمنار الشهير بالمسجد الأعظم منها وخزين البارود بالقلية وغير ذلك، وأشجار الكبير برباط الفتح، وينى بأعمالها لحفظها وتأمين طرقها قصبيتين كبيرتين إحداهما الصخيرات والأخرى قصبة أبي زنيقة فأمن الناس بهما وارتقاوا بالتردد إليهما، وجدد ما تهدم من أبراج الصويرة واعتنى بها وصبر عليها أموالاً ثقلاً فجاءت في غاية الإنقاذ والحسانة، ومن آثاره بمراكبش آجال الشهير وتجديد جامع المنصور بالقصبة بعد أن لم يبق منه إلا الاسم فأعاده إلى حالته الأولى على ضخامته وانفساحه وعلو بنائه، وتجديد جامع الكتبين مرتين وإصلاح قبة الشيخ أبي العباس السستي رضي الله عنه، والزيادة في جامع الشيخ أبي إسحاق البليفي بسوق الدقادين منها، وهدم جامع الوسطى وإعادته على شكل بديع وهيئة حسنة، وبناء جامع أبي حسون وإقامة الجمعة به كما كانت أولاً، وبناء جامع القنارية والزيادة فيه، ومن آثاره بحضوره فاس العليا تجديد بستان آمنة المرينة.

قال أكتنسوس: وكان هذا البستان خراباً تألفه الوحوش مع أنه بباب دار السلطان وفي سرة الحضر، وقد كان في الدول المرينية على هيئة بهية فيه ظهرت زينة تلك الدولة وضخامتها، وفيه مقاعدتهم ومنازلهم العالية ومجالسهم المشرفة على بساتين المستقى إلى أن قال: وبالجملة فقد كانت تلك العرصة منية من زينة الحياة الدنيا، وجنة حائزة من البهجة المرتبة العليا، ثم أخذت عليها الأيام بصروفها ومحبت من تلك الرسوم جميع حروفها، فرأها

الملوك قبل مولانا المؤيد فلم يرقوا لحالها ولا أنقذوها من أوحالها، مع أنها في جوارهم وعقر ديارهم، فعطف الله عليها هذا السلطان المبارك فأعاد بعد الممات محياتها وأبرز من ظلمات العدم جميل محيتها.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله

كان سيدى محمد بن عبد الرحمن بن هشام رحمه الله بعين الرضى من والده منذ نشاً وشب، وكان متميزاً عن سائر إخوته بشدة البرور بأبيه ومتتفقاً بالسكينة والوقار والصلاح والتقوى وسائل خصال الخير، واستخلفه أبوه صغيراً فجرى على السنن الأقوم وحمدت سيرته، ولما رأى منه السلطان رحمه الله مخايل النجابة والصلاح فوض إليه، وألقى بزمام مملكته بيديه، ولم يدخل عنده شيئاً من أمور الملك ووظائفه، فاستلحق في أيام أبيه واستركب واتخذ العساكر وجند الأجناد وقدم وأخر وخفض ورفع وأعطي ومنع حتى كأنه ملك مستقل، وكانت العادة أنه إذا كان السلطان بمراكش كان سيدى محمد هذا بفاس أو بمكناة وبالعكس، فلما مرض السلطان رحمه الله مرض موته بمكناة كان سيدى محمد بمراكش فلم يرمه إلا ورود الكتب عليه من أخيه المولى العباس ومن الوزير أبي عبد الله الصفار أن السلطان قد أشرف ووقع اليأس منه، فنهض سيدى محمد من مراكش متزوجاً وجد السير لعله يدرك حياة أبيه فلما كان ببلاد السرااغنة على مرحلتين من مراكش اتصل به الخبر بوفاة السلطان رحمه الله، ثم قدمت عليه بيعة أهل الحضرتين فاس ومكناة وجميع الجيش البخاري وسائل أهل الحل والعقد من أعيان القبائل والبربر فاسترجع السلطان لمصابه وشكر الله إذ أبقى أمر المسلمين في نصابه، وكتب بالخبر إلى مراكش وبعث باليعة الواردة عليه فاجتمع أهل مراكش على طبقاتهم بجامع الكتبين وحضر عامل البلد يومئذ أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي ستة وقائد الجيش السوسي بالقصبة أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد

الجراوي وقواد الحوز من الرحامنة وغيرهم فقرىء كتاب السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن بالأخبار بموت والده واجتماع الناس على بيعته فارتفعت الأصوات بالترحم على السلطان الصابر إلى عالم الرضى والرحمة، وبالنصر لهذا الذى اختاره الله لحماية الأمة، وكتب أهل مراكش بيعتهم من إنشاء أبي عبد الله أكتنوس وكذا الجيش السوسي وأهل الحوز وقدموا على السلطان سيدى محمد بمكتasse مؤدين الطاعة داخلين فيما دخلت فيه الجماعة فأكرم وفادتهم وأجل مقدمهم وأفاض عليهم من الإحسان ما غمرهم، وكان مما قيل في تهنته بالملك قوله تعالى: **أَبْيَ عَبْدُ اللَّهِ أَكْنُسُوسُ :**

ومنظرها يحكيه خد مورد
ممالك أرباب الجمال وأعبد
يفر من السود العيون ويبعد
مهفهف مستن الوشاحين أغيد
وأي فؤاد عاشق ليس يفقد
نفوس ضعاف ليلهن مسهد
وليس لها غير الكواكب منجد
إلى رشفات للصباية تبرد
فظن بأن الجزء ثغر منضد
عليهين مرفض الجفان معقد
تقسمها شطرين نسر وفرقده
مدامعه مثل العقيق تبدد
إذا العيش غض والحبائب تسعد
وتتنفي الذي نهواه عنا وتبعده
وكهفي أمير المؤمنين محمد
وصارمه الشاكي الشبات المهند
وناهيك ملكاً بالإله يشيد
وأعلى ذوى التيجان فخراً وأمجد

وجوه الأماني حسنها متجدد
قضى الحب في كل القلوب بأنها
وكم من عصي للهوى متعطف
تصيده ظبي على حين غفلة
فأصبح مفقود الفؤاد مخبلاً
ولله في أسر الغرام ونهره
إذا الليل أضواها تكتفها الهوى
وذى ظماً بين الضلوع يجنه
تراءى له من منحنى الجزء برقة
وتذكره تلك البروق مباسماً
يراقب أسراب النجوم بمقلة
ويهفو لأيام العقيق فتشتني
وهل يتناهى عهد من سكن اللوى
ومما زالت الأيام تغري بنا النوى
ولست أبالي للزمان صروفه
خليفة رب العالمين بأرضه
إمام تولى الله تشييد ملكه
ووصفوه هذا الخلق من آن هاشم

وأكثرهم في الفضل حظاً وأزيد
وكم عاشق عنها يذاد ويطرد
فطاب لها منه الجناب الممهد
وتنعم في ظل الهناء وتسعد
وفي بابه الخيرات تولي وتزجد
وحضارته للأمن واليمن موعد
وتتركع مهما أبصرته وتسجد
وما البحر والدر النفيس المقلد
وتسحب أذیال السماح وترفرد
مقالة من في المكرمات يزهد
ويفسخ ما أيدي التوابع تعقد
محيا له وقت السعادة مولد
يكبر ربي إن بدا ويوحد
تجر ذيول الفخر إن هو يحمد
صوارم منه والمدافع ترعد
من الرعد يحدوها الوشيع المسدد
وكل صقيل وهو ماضٌ مجرد
فصارمه يغري الطلي وهو مغمد
 وبالعلم والشهب الدراري تشهد
ركائب أنضاعها الدؤوب المشدد
أحاديث من بحر إذا البحار يزيد
وليس لها إلا حمام المؤيد
ويحييهم بالبذل والبذل أرغد
تعود بما يرضون والعود أحمد
ويصلح بالصمصام من هو مفسد
يدوم بحمد الله وهو مسرمد

وارحبهم في العز باعاً وفي العلى
أنته عروس الملك عاشقة له
وألقت على شوق إليه زمامها
فأصبحت الأيام تزهو بعدله
فهي بابه مأوى المكارم والندي
ودولته للعز والنصر مألف
تذل ملوك العالمين لباسه
له راحة في الجود ما الغيث عندها
له أنعم تأوي إلى ظلها المنى
وعزم على الخيرات ليس بسامع
ورأي ينير الخطب عند اعتماده
ووجه إذا ما لاح أيقنت أنه
حيبي كثير الابتسام مبارك
أهز بهذا المدح منه معاطفاً
له العسكر الجرار تبرق في الوعا
يعد إلى الأعداء كل كتيبة
وكل كمي كالغضنفر مغضباً
يبد العدا قبل اللقاء مهابة
هو الملك المشهور بالحلم والدها
تشد لإدراك الغنى عند بابه
يحدث عنه الوفد عند صدوره
إلى مجده آمالنا قد تطاولت
فيما ملكاً يحمي الرعية بأسه
يدبر فيهم كل يوم مصالحاً
ويشملهم بالعدل والفضل والندا
هنيئاً لك الملك الجديد فإنه

هنيئاً لنا نحن العبيد فإننا
بسؤدد مولانا الإمام نسود
بدونك يا خير السلاطين كاعباً
بديعة حسن للنهي تتودد
تدير كؤوس الراح دون تأشيم
إذا هي أثناء المحافل تنشد
فلا زلت ما بين الملوك مخيراً
كما اختبر ما بين المعادن عسجد

وفي هذه الأيام ظهر المولى عبد الرحمن بن سليمان بن محمد وقرب من فاس طالباً للملك قيل: إن بعض أبناء عمه بفاس ومكناة لما توفي السلطان رحمة الله كاتبوا واستحوذوا للقدوم وواطأهم على ذلك بعض عبيد البخاري وبعض البربر الذين بأحواز مكناة، ولما قرب من فاس كان الفقيه أبو عبد الله محمد العربي بن المختار الجامعي يومئذ يلي أمر شرارة بها، فقام في ذلك أحسن قيام وحمل الناس على الثبات والتمسك بطاعة أمير المؤمنين سيدى محمد بن عبد الرحمن فكان ذلك سبباً في سكون هذه الفتنة وانحسام مادتها، فرجع المولى عبد الرحمن بن سليمان عوده على بدئه وأيّس من بلوغ قصده وأقام بزاوية العياشي عند البربر إلى أن اضمرحل أمره، ولما قدم السلطان سيدى محمد رحمة الله من مراكش إلى مكناة اجتاز بمدينة سلا ونزل برأس الماء في الثالث والعشرين من صفر سنة ست وسبعين وألف وبعد الزوال دخل في جماعة من حاشيته وزار الشيخ أبي محمد عبد الله بن حسون والشيخ أبي العباس أحمد بن عاشر رضي الله عنهما، ودخل البيستيون الكبير ورأى مدافعه منصوبة على عجلات الحديد وكانت تغوص في الأرض إذا جرت من شدة ثقل المدفع فأشار بأن يفرش لها بساط من العود الجيد المحكم الصنعة والتركيب حتى يتأنى جريانها عليه بلا كلفة فصنعت لها كما أشار رحمة الله، وقد كنت مدحته بقصيدة لم يبق على ذكري الآن منها إلا بيتان وهما:

حوى العلويون المعالي كلها
وما منهم إلا ذرى المجد صاعد
ولكن أمير المؤمنين محمد
هو البدر في العلياء وهي الفرائد

انتهاض الصلح مع الإصبعيول واستيلاؤه على تطاوين ورجوعه عنها والسبب في ذلك

كان السبب في انتهاض الصلح مع جنس الإصبعيول أن العادة كانت جارية مع أهل سبعة من النصارى وأهل اللانجرة من المسلمين أن يتخذ كل من الفريقين محللاً للحراسة على المحددة التي بينهما، وكان النصارى يتخدون هنالك بيوتاً صغراً من اللوح والمسلمون يتخذون أخصاصاً من البردي ونحوه، فلما كان آخر دولة السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله بنى نصارى سبعة على المحددة بيتاً من حجر وطين وجعلوا فيه علامات طاغيتهم المسماة عندهم بالكرونة فتقدمن إليهم أهل اللانجرة وقالوا لهم: لا بد أن تهدموا هذا البيت الذي لم تجر العادة بنائه وترجعوا إلى حالتكم الأولى من اتخاذ بيوت الخشب، فامتنع النصارى من ذلك فعمد أهل اللانجرة إلى ذلك البيت فهدموه وإلى تلك الكرونة فنجسوها بالعنزة وقتلوا منهم أناساً وضيقوا على أهل سبعة بالغارات حتى كانوا يصلون إلى السور، فرفع أهل سبعة أمرهم إلى كبيرهم بطنجة فكلم كبيرهم نائب السلطان بها وهو يومئذ أبو عبد الله محمد ابن الحاج عبد الله الخطيب التطاوني وشكى إليه ما نال أهل سبعة من عيش اللانجرة فداعمه الخطيب فلم يندفع وقال: لا بد من حضور اثنى عشر رجلاً منهم بطنجة ومساهم بأسمائهم ولا بد من قتلهم جزاء على فعلهم، فعظم الأمر على الخطيب وریساً كالم في ذلك باشدور النجليز فقال له: أحضر هؤلاء المطلوبين على عين الأجناس وإذا حضروا وظهر حق الإصبعيول فانا ضا من أن لا يصيهم شيء، فأعجب الخطيب ذلك وعزم عليه فاتصل الخبر بأهل اللانجرة وأن الخطيب عازم على أن يكتب إلى السلطان في شأن اثنى عشر رجلاً منهم بأعيانهم فمشوا إلى الشريف سيد الحاج عبد السلام بن العربي الوزاني وقالوا له: إن الخطيب لا ينصرح السلطان ولا المسلمين وإن كل ما قاله النصارى يساعدهم عليه حتى جسرهم علينا، ونحن جئناك لتعلم السلطان بأمرنا وتسأله أن يمدنا بالقبائل المجاورة لنا ونحن نكتفي به

هذا المهم، وفي أثناء هذه المدة توفي السلطان المولى عبد الرحمن رحمة الله وولي ابنه سيد محمد وقدم مكانة واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه فكتب له الشريف سيد الحاج عبد السلام بأمر أهل اللانجرة وقرر له مطلبهم فشاور السلطان في ذلك بعض حاشيته فمال إلى الحرب وذلك كان الراجح عند السلطان لأنه عظيم عليه أن يمكن العدو من اثنى عشرأً من المسلمين وفق اقتراحه واختياره يقتلهم بمحضر الملا من نواب الأجناس، ورأى رحمة الله أن لا يمكنه من مطلبه حتى يعذر فيه فاستخار الله تعالى وبعث خديمه الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبيدي الرباطي إلى الخطيب بطنجة وأمره أن ينظر في القضية ويستكشف الحال وأن لا يجنب إلى الصلح إلا إذا لم يجد عنه محيضاً، وكثير المتصحرون لدى السلطان وهونوا عليه أمر العدو جداً مع أنه ليس من السياسة تهويين أمر العدو وتحقيقه ولو كان هيناً حقيقةً فوصل الزبيدي إلى طنجة واجتمع بالخطيب وفاوضه في القضية فوجد الخطيب جانحاً إلى السلم فأبى أن يساعده على ذلك وأظهر كتاب السلطان بتفويض النظر إليه في النازلة، فتأخر الخطيب عنها وترك الخوض والكلام فيها، وأخر الأمر أن الزبيدي انفصل مع نائب الإصينيول على الحرب وذهب إلى حال سبيله وأزال الإصينيول سنجقه من طنجة وركب إلى بلاده في العين وكتب الزبيدي إلى السلطان بالخبر، فكتب السلطان إلى الشغور يخبرهم بما عقده مع الإصينيول من الحرب وأمرهم أن يكونوا على حذر وأن يأخذوا أهابتهم للجهاد، وفتح السلطان بيت المال وأبدأ وأعاد في تفريق المال والسلاح والكمسي وقدم أولأ القائد المأمون الزاري إلى تطاوين في نحو مائة فارس وخمسين من رماة العسكر فرابطوا خارج تطاوين إلى جهة سبتة، ثم بُرِزَ جيش الإصينيول من سبتة في نحو عشرين ألفاً من العسكر في غاية الاستعداد وكمال الشوكة ونزل على طرف المحمدة داخل أرضه وكان خروجه يوم السبت أواسط ربيع الأول سنة ست وسبعين ومائتين وألف، فنهض إليه أهل اللانجرة ومن جاورهم من قبائل الجبل وتسامع الناس بذلك فقدموا من كل جهة حتى اجتمع منهم نحو

الخمسة آلاف وزحفوا إلى العدو وقاتلوا نحو نصف شهر وكل يوم يقتل منه ضعف ما يقتل من المسلمين لأن حربه كان زحفاً بالصف وحربهم كان مطاردة بالكر والفر فلا بد أن يهلك منه أكثر مما يهلك من المسلمين، غير أنهم لم يتمكنوا من مخالطته في معسكره ولا من هزيمته لأنه كان يحصل على نفسه بأшибارات والمتأرثات بخناش الرمل وغيرها غاية التحصين، ثم بعث السلطان رحمة الله أخاه الفقيه العلامة المولى العباس في كتبية من الخيل نحو الخمسمائة فارس فنزل بموضع يعرف بعين الدالية قرب طنجة، ثم بعد أيام زحف إلى العدو فنزل بمدشر يقال له : البيت باللانجرة واستمر القتال بين المسلمين والنصارى على نحو ما سبق نحو العشرة أيام، ثم انتقل المسلمون إلى موضع آخر يعرف بأبي كدان خوفاً من كرة العدو ودهمه إياهم فكان ذلك مما جرأ العدو عليهم وأظهر الفشل فيهم وقاتلوا هنالك نحو الخمسة عشر يوماً، ثم إن العدو اجتمع يوماً وتحمل بخيله ورجله وزحف إلى المسلمين فصدتهم بجميع قوتها وشوكته فصبروا له وصدقوا اللقاء فردوه على عقبه، ولما لم يستقم له ذلك جمع نفسه ذات ليلة من غير شعور من المسلمين وركب البحر ونزل بمحل يعرف بالفنيدق لأنه كان هنالك فندق قديم، وكان العدو في تنقلاته هذه لا يفارق الساحل ليحمي ظهره بمراكبها البحرية، وكان بين الفندق ومحلة المسلمين نحو ساعة ونصف فأشار أهل الرأي على المولى العباس بأن يتأخر قليلاً لكون العدو قد ضايقه فتأخر المولى العباس بالجيش إلى موضع يعرف بمجاز الحصا فزاداد طمع العدو في المسلمين وظهر له ضعف رأيهم في مكائد الحرب وعدم ثباتهم لدى الطعن والضرب، وكان قائد عسكر الإصبعيول يسمى أردنيل وزير المشير عليه يسمى بريم وريتهم يومئذ إيسابيلا الثانية ثم عاد المسلمون إلى مطاردة العدو ومقاتلته على نحو ما أسلفنا فكانوا يذهبون إليه وهو بالفينيدق فيقاتلونه من الصباح إلى المساء فكانوا ينالون منه وينال منهم، وفي أثناء هذه المدة وفد جماعة من أهل تطاوين على السلطان رحمة الله بمكتنasse فأعظموا أمر العدو

وتخوفوا معرته في مالهم وأولادهم لأنهم كانوا قد أحسوا بشدة شوكته فوعدهم السلطان رحمة الله بأن يمدهم ويحمي عنهم ولا يدخل عنهم شيئاً من العدد والعدد حتى يعذر فيهم وفي غيرهم، ثم إن العدو ارتحل من الفنيدق بعد نحو عشرة أيام وتقدم نحو تطاوين وكان الناس قبل هذا لا يدرؤن أين هو قاصد، ولما ارتحل من الفنيدق عرفوا أنه قاصد تطاوين فنزل بموضع يقال له: النيكرو فأقام هنالك نحو ثمانية أيام والقتال على حاله المتقدم، غير أن العدو كان في مادة قوية من البر والبحر يصل إليه من سبعة وغيرها كل ما يحتاج إليه من طعام وعلف وأرز وشعير ويقسماط وغير ذلك حتى أنه كان إذا ارتحل ترك من ذلك فضلة كثيرة يتعيش فيها ضعفاء أهل تلك الناحية، وكان ذلك مكيدة مقصودة عنده يظهر بها القوة والرفاهية، وكان شذاذ المتطوعة من أهل الباية يهجمون على معسكته بالليل ويجلبون منه البغال والنيران ويصيرون بها في تطاوين وغيرها، وكان ضعفاء العقول من العامة يستحسنون ذلك وينشطون له ويرون أنهم قد صنعوا شيئاً مع أن ذلك لا عبرة به في جنب ما كان يستولي عليه العدو من الأرض ويتقدم به في نحر المسلمين. وهم يتأخرون والحاصل أن المسلمين لم يكونوا يقاتلونه على ترتيب مخصوص وهيئه منضبطة إنما كانوا يقاتلونه وهم متفرقون أيدي سبا فإذا حان المساء تفرقوا إلى محالهم في غير وقت معلوم وعلى غير تعبيه، فكان قتالهم على هذا الوجه لا يجدي شيئاً، وكان العدو يقاتل بالصف وعلى ترتيب محكم، وكانت عناته بما يستولي عليه من الأرض ويرى تقدمه إلى أمام وتأخر المسلمين بين يديه إلى خلف هزيمة عليهم.

وقد ذكر ابن خلدون في فصل الحروب قتال أهل المغرب الذي هو المطاردة بالكر والفر وعابه فقال: «وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليفة منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف صفوافاً، ونوع بالكر والفر، أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم، وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب، وقتل الزحف أوثق وأشد

من قتال الكفر والفر، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفواف وتسمى كما تسمى القداح أو صفواف الصلة ويُمشون بصفوفهم إلى العدو فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطعم في إزالته.

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ يُفْتَنُونَ فِي سَيِّلِهِ، صَفَّا كَانُوا هُمْ بِئْكَنْ مَرْضُوفُونَ﴾ [الصف: ٤] اه ولا زال العدو هكذا يتنقل شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى وادي يعرف بوادي آسمير، وكان يتحرى في تنقلاته يوم السبت معتمداً في ذلك حكماً نجومياً على ما قبل، فلما احتل بآسمير صادف ريحاناً شرقية هاج من أجلها البحر حتى لم تقدر مراكبه أن تحاذيه قرب الساحل فانقطعت عنه مادة البحر وطلع ماء البحر في وادي النيكرو من خلفه فأفعمه وقطع عنه المادة من سبعة كما طلع أيضاً في وادي آسمير من أمامه فحبسه عن العبور، وصار العدو متوسطاً بين الواديين والبحر عن يساره، وانقطعت عنه المواد حتى حكى بعض عسكره بعد ذلك اليوم أن الكلية وهي خبزة صغيرة تشبه البقسماط كانت أول النهار تباع ببساطة وفي آخره بيعت بريال ولا وجود لها، وأيقنوا بالهلاك لو وجدوا من ينتهز الفرصة فيهم ولكن أين اليد الباطشة، ويقولوا على تلك الحال يومين أو ثلاثة، ثم سكن البحر وانفس الواديان وجاءه المدد، ولما رأى المسلمون أن العدو وصل إلى ذلك المحل تقهروا وتزلوا بمدشر القلالين بينه وبين نطاوين نحو نصف ساعة، ثم إن العدو عبر الوادي من آخر الليل وأصبح بموضع يقال له: المضيق وكان متقطعة الأعراب في هذه المدة على قسمين: الحازمون وأهل الغيرة منهم يقولون: لو لا أنه بين الجبال ومحصن بالمتارزات لفعلنا و فعلنا، والآخرون يقول أحدهم: ما لي وللتقدم إلى هذه الشرشمة وإنما أهل نطاوين يقاتلون عن نطاوينهم وأما أنا فحتى يصل إلى بخيتي في عبة أو دكالة أو كلاماً هذا معناه بأنه يعتقد أنه لا تجب عليه نصرة المسلمين، نعم الذين قاتلوا قتالاً شديداً وأحسنوا الدفاع وقاموا بالنصرة بنية خالصة وهمة صادقة هم طائفة من شبان أهل فاس، وطائفة من أهل زرهون، والبعض من آيت يمور وخصوصاً

الحسين المعروف بأبي ريالة منهم فإنه أبداً وأعاد وأتى بما لم يسمع إلا في زمان الصحابة رضي الله عنهم.

حکی من حضر وتواتر عنه أنه كان معلماً برایة صفراء وكان يضمها إلى صدره ويسددها نحو العدو ثم يحمل على صفهم فيخرقه حتى يأتي من خلفه ويقتلك فيهم أشد الفتک ثم يعود ويستلب خيل العدو ويقودها بأرسانها ويأتي بها حتى يدفعها لمن بازائه، وكان إذا تقدم نحو العدو يقول لمن حوله: تقدموا فأنا درقتكم وأنا سوركم تكرر ذلك منه المرة بعد المرة، ولما أصبح العدو بالمضيق فارق البحر وصمد إلى تطاوين فدخل بين جبلين وكان في انتهاء ذلك المضيق الذي بين الجبلين من جهة تطاوين ويسمى فم العلیق بعض أخيه أهل فاس وغيرهم فصمد العدو نحوهم وبعثهم بالكور والضوبيلي وهو يقع طبوله حتى أتعجل البعض منهم عن حمل أثقاله، ولما وصل إلى هذا الموضع حصل بتطاوين انتزاع كبير واستأنف الناس الجد والاجتهاد والقتال ونذامر جيش المسلمين وكان اليوم شديد المطر وقاتلوا قتالاً شديداً، وأبداً أبو ريالة وأعاد في هذا اليوم هلك تحته فرسان وأرسل له المولى العباس فرسه، وكان يعني به وينوه بقدره ويعثط الطلبل يقع على خيائه، وأصابته في هذا اليوم جراحة خفيفة وهلك من المسلمين والنصارى عدد كثير، قيل هلك من أهل تطاوين فقط نحو الخمسة، وكان الظهور في ذلك اليوم للعدو ومن الغد ارتحل من فم العلیق وعدل يساراً إلى المرسى فنزل بها ليتمكن من مدد البحر واستولى على برج مرتيل وما والاه كدار مرتيل التي هي الديوانة، وبمجرد وصوله إليها حصنها بأشبارات الرمل والمدافع وغير ذلك واتخذ بها دوراً من اللوح وحوانيت منه وأقام مطمئناً وصارت المراكب تتردد له في البحر بالأقوات والعدة والعسكر وجميع ما يحتاج إليه حتى استراح ثلاثة عشر يوماً ولم يكن في هذه المدة قتال ولا أنشبه العدو، وفي هذه الأيام ورد المولى أحمد بن عبد الرحمن في جيش بعث به السلطان من مكناة ونزل بموضع يقال له: فم الجزيرة بالتصغير وكان المولى العباس نازلاً بمدشر القلالين بمحل مرتفع يشرف على ما حوله، ولما استراح العدو

وصلحت أحوال جيشه أنساب القتال فكان يخرج فيحوم حول المحتلين فيقاتل ويرجع فكان بريم دائمًا يكون في أول المقدمة على فرس أبيض مشهوراً عندهم موصوفاً بالشجاعة وجودة الرأي، ثم إن العدو عزم على مصادمة المسلمين والهجوم على تطاوين فارتاحل يوم السبت الحادي عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين وألف وانكمش واجتمع وتقدم للقتال وأرسل جناحاً من الخيول طالعاً مع الوادي إلى جهة المدينة وجناحاً من العسكر الرجال طالعاً من الغابة إلى جهتها أيضًا، وزحف بعسكره شيئاً فشيئاً وهو في ذلك يرمي الكور والضوبيلي والبيغال تجر المدافع والجناحات متداهن يكتفان محلة المولى أحمد، ولما قربا منها وكاد ينطبقان عليها فر من كان بها وتركوا الأخبية والآثار بيد العدو فاستولى عليهما ونزل هنالك بعسكره وحصن عليه وتقهقر المولى العباس بجيشه حتى نزل خلف تطاوين وبقيت بينه وبين العدو وكان في تقهقره هذا قد دخل المدينة ومر في وسطها وأضعافاً منديلاً على عينيه وهو يبكي أسفًا على الدين وقلة ناصره، ولما استقر بال محلة مع العشى خرج إليه أهل تطاوين وشكوا إليه ما نزل بهم من أمر العدو واستأنذوا في تحويل أناثهم وأمتعتهم وحريمهم إلى مداشر الجبل وحيث يأمنون على أنفسهم قبل حلول معركة العدو بهم فأذن لهم وعذرهم وكان قبل ذلك قد منع الناس من نقل أمتعتهم وحريمهم لثلا يفتنتوا المسلمين ويجرروا عليهم الهزيمة ولكي يقاتلوها عليها بالقلب والقالب، فلما كان هذا اليوم وشكوا إليه أمر العدو الذي قد أطل عليهم ولم يبق إلا أن يشب وثبة أخرى فيصير بها في وسط البلد عذرهم وكان العدو حين نزل بضم الجزيرة عشية ذلك اليوم قد أرسل أربع كورات على تطاوين فوquette في وسط المدينة كأنه يعلمهم بأنه قد أشرف عليهم ولم يبق دون أخذهم قليل ولا كثير، ولما سمع الناس كلام المولى العباس انطلقوا مسرعين إلى نقل أمتعتهم وقام الضجيج في المدينة واختلط المرعى بالهممle وامتدت أيدي الغوغاء إلى النهب وخلع الناس جلباب الحباء وانهار من كان هنالك من أهل الجبل والأعراب والأباش يتقطعون ويكسرون أبواب الدور والحوانيت والداخل للمدينة أكثر من الخارج،

وباتوا ليتهم كذلك إلى الصباح، ولما طلع النهار وتراءت الوجوه انتقلوا من نهب الأمتعة إلى المقاتلة عليها فهلك داخل المدينة نحو العشرين نفساً وعظمت الفتنة وتخوف من بقى بتطاوين عاجزاً عن الفرار فاجتمع جماعة منهم على الحاج أحمد بن علي أبيير أصله من طنجة وسكن تطاوين وتشاوروا فيما نزل بهم فأجمع رأيهم على أن يكتبوا كتاباً إلى كبير محلة العدو أردنيل يطلبون منه أن يقدم عليهم لتحسم مادة الفتنة التي هم فيها، فكتبوا الكتاب ووجهوه مع جماعة منهم فما انفصلوا عن المدينة غير بعيد حتى عثروا على طلائع العدو يطوفون حول المدينة ويحرسون محلتهم فتسابقوا إليهم وهشاوا ويشوا وسائلوهم ما الذي أقدمكم فقالوا: جئنا بكتاب إلى أردنيل فأبلغوهم إليه فأظهره أيضاً البشر والفرح وقدم إليهم طعاماً من الحلوا و قال لهم في جملة كلامه: إني أفعل معكم ما لم يفعله الفرنسيين مع أهل الجزائر وتلمسان يعني من الإحسان. وكذب خذه الله فإن ذلك من حيلة التي يستهوي بها الأغمار ويفسد بها الدين، وإن فاي إحسان فعله الفرنسيين مع أهل الجزائر وتلمسان. ألسنا نرى دينهم قد ذهب، وأن الفساد قد عم فيهم وغلب، وأن ذراريهم قد نشروا على الزندقة والكفر إلا قليلاً، وعما قريب يلحق التالي بالمقدم، والله تعالى يحوط ملة الإسلام، ويكسر بقوته شوكة الزنادقة وعبدة الأصنام، ولما عرضوا على العدو الدخول إلى بلدتهم قال لهم: أما اليوم في يوم الأحد وهو عيد النصارى ولا يحل لي التحرك والانتقال، وأما غداً فانظروني في الساعة العاشرة من النهار، فرجعوا إلى أهلهم وأصحابهم وأعلمواهم بمقالة العدو والحال ما حال والقتال لا زال وأبواب الحوانيت تكسر والدور تخرب والقوى يأكلن الضعيف، وباتوا ليلة الاثنين كذلك وأصبحوا من الغد كذلك، ثم إن العدو استعد وأخذ أهبيه وتقدم إلى تطاوين بعد أن فرق عسكره على جهتين: فرقة مرت مع أردنيل على الجبانة فاصدة الباب الذي يفضي إليها، وفرقة ذهبت مستعملية إلى جهة القصبة والبرج، ولما وصل أردنيل إلى الباب وصل الآخرون إلى القصبة، فاما أردنيل فوجد الباب مغلقاً وكلمه المسلمون من داخل المدينة فأمرهم

بالفتح فقالوا: إن المفاتيح قد ذهبت في الفتنة، فقال: اكسروا الأقبال فكسروها ودخل، ودخل معه كبراء عسکرہ فتوجه هو إلى دار المخزن فنزل بها، واقترب كبراء العسكري في المدينة بأيديهم ورقات مكتوب فيها أسماء الدور التي ينزلون بها كل واحد بداره مكتوبة في ورقته، فكان أحدهم يسأل عن دار الرزني وأخر يسأل عن دار اللبادي وأخر يسأل عن دار ابن المفتري وهكذا بحيث دخلوا على بصيرة بأمره البلد ودور كبارها فاستقر كل واحد منهم في داره التي عينت له، وأما الذين ذهبوا نحو القصبة فإنهم لما وصلوا إلى السور أتشبوا فيه سلاليم من قمن غلاظ برؤوسها مخاطيف معوجة وتسلقوا فيها بسرعة ولما صاروا في أعلى البرج رفعوا سنجقهم في أعلى الصاري وأخرجوا عليها مدفعاً، ولما سمع المستغلون بالنهب والقتل حس المدفع رفعوا رؤوسهم إلى البرج وب مجرد ما وقع بصرهم على بنديرة العدو تلوح خرجوا على وجوههم فارين كالنعم الشارد فالأمر لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأسفى على الدين وأهله، ولما استقر العدو بالبلد رتب حكامها وكف اليد العادية عنها وولى على المسلمين الحاج أحمد آبغير المذكور آنفاً، وكان دخوله إلى تطاوين واستيلاؤه عليها ضحوة يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين ألف، ورثاها الأديب الشريف السيد الفضل أفلال بقصيدة يقول فيها:

يا دهر قل لي على مه	كسرت جمع السلامة
نصبته للدواهي	ولم تخف من ملامه
خفضت قدر مقام	للرفع كان علامه
ملكته لأعاد	ليست تساوي قلامه
فالدين يبكي بدمع	بحكيه صوب الغمامه
على مساجد أصبحت	تابع فيها المدامه
كم من ضريح ولی	تلوح منه الكرامة
علق فيه رهيب	صلبيه ولجامه
ومنزل لشريف	وعالم ذي استقامة

صار كنيفاً للعلج
وكم وكم من أمور
تبكي عليها عيون
تطوان ما كنت إلا
أوك خطيب تردى
بل كنت روضاً بهيجاً
أوك محياً عروس
فقت بهاء وحسناً
رملاً بالعين دهر
فرق الأهل حتى
ما كان أحلى زماناً
مضى لنا مع بدور
ما بين إنشاد شعر
وشنلنا في التئام
حن السرور إليه
ساعده السعد حتى
يا حسنها من ليالٍ
تطوان يا دار أنس
هل للوصال سبيل
والقلب ذاب اشتياقاً
والوجود أضعف جسماً
يا أهل طوان صبراً
دوام حال محل
إن غاب نجم سعود
فسوف يطلع بدر
فاعتتصموا برجاء

دُنْيَا وَيَوْمُ الْقِيَامَةِ
 وَحَسَنُوا الظُّنُونَ تَنْجُوا
 يَكْفِ عَنَّا انتِقامَهُ
 وَفَسُوضُوا الْأَمْرُ لَهُ
 قَدْمُ خَيْرًا أَمَامَهُ
 مَا فَسَازَ إِلَّا ذَكَرِيَ
 وَلَوْ بِقُصْرِ كِتَامَهُ
 حَيْثُ أَقامَهُ يَرْضِيَ
 فِي كُلِّ وَقْتٍ خَتَامَهُ
 وَلَا يَزِلُّ ذَا انتِظَارِ
 وَجْهَرَةً بِاسْتِدامَهُ
 يَرَاقِبُ اللَّهَ سَرَّاً
 بِطَلْبِ حَسَنٍ خَتَامَهُ
 وَحَلَّ دَارَ الْمَقَامَةِ

ثم إن أردنيل بعد أن رتب الحكام بتطاوين عاد إلى محلته وقسم عسكره قسمين وأنزله مكتنفاً للبلد شرقاً وغرباً، واختار منه عشرة آلاف فأدخلها المدينة ويقي هو خارجاً بإحدى المحلتين قال: إن جيشه كان يوم دخل تطاوين سبعين ألفاً كلها مقاتلة في غاية الاستعداد وكمال الشوكة، ثم أمر بالنداء في البلد أن من أوقد ناراً تلزمته العقوبة الشديدة حذراً من أن تكون هنالك مينا للمسلمين أو ما أشبهها فبقي الناس على ذلك نحو أربعة أيام لم يرقدوا فيها ناراً، ونادي أيضاً بأن من فر من أهل البلد ولم يأت إلى متاعه وأصله إلى سبعة أيام فلا شيء له بعد، ولم يقدم شيئاً على نقل البارود والمدفع الذي كان للمسلمين بالمدينة، فأمام المدفع فحمله إلى أص biania وأما البارود فجعله بضربيعولي الله تعالى سيدى السعدي، وكذا فعل بجميع آلات الجهاد، ثم عمد إلى ضرب سيدى عبد الله البقال فجعله كنيسة، وجعل مسجد الباشا مخترنا للأرز والشعير، ومسجد القصبة مخترنا للكليط، ثم سار في المسلمين بالتوقير والاحترام ولم يسمهم خسفاً ولا كلفهم شغلاً ولا اقتضى منهم مغرماً، كان يتأنفهم بذلك ومن باع منهم شيئاً أضعف له في الثمن وأريحة، وكذا فعل مع أهل المداشير الذين حول البلد حتى اتخاذ الناس سوقاً بموضع يعرف بكدية المدفع خارج تطاوين وشاع خبره في قبائل الجبل فانهاروا عليه من كل جانب وربحت الناس فيه، ثم كتب أردنيل كتاباً وبعث بها إلى قبائل الجبل يعدهم وينبههم إن هم قدموا عليه وخالطوه بالبيع والشراء ويتوعدهم إن لم يفعلوا فقدموا من كل أوب وارتتفعت الأسعار

فزادت ضعف ما كانت عليه وأكثر واستمرت كذلك فلم ترجع بعد، ثم أخذ في ترتيب بناء المدينة وتبدل شكلها حسبما جرت به عادة النصارى في مدنهم، فهدم ما لم يوافق نظره وفرز الدور من سور البلد، وكل دار كانت ملتصقة بالسور فصلها عنه، واستمر على هذا الحال نحو العشرين يوماً، ثم دار الكلام بينه وبين المولى العباس في الصلح وتسامع الناس به ففرح المسلمون والنصارى معاً، أما المسلمين فوجه فرجمهم ظاهر، وأما النصارى فإنهم وإن كان لهم الظهور فهم لا يدركونه سهلاً بل مع القتل العظيم والجرح الكبير والمشقة الفادحة، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَائِمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُكُمْ وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] هذا إلى مفارقة بلادهم التي أفسوها وعوايدهم التي ربوا عليها لا سيما عامة جيشهم الذين الغلبة في ضمن هلاكهم، فدماؤهم هي ثمنها كما قيل: بجهة العبر يفذ حافر الفرس.

حكي من حضر أن عسكر النصارى لما سمعوا بتناول الصلح حصل لهم من الفرح أضعاف ما حصل للMuslimين وصاروا يتربدون إليهم وبيحثونهم عما تجدد من الأخبار، وكلما سمعوا بشيء من أمر الصلح طاروا فرحاً وذلك لأن قتال النصارى كله على الإكراه إذ لا يمكن عسكرياً منهم أن يفر من الزحف حال القتال لأن الخيالة والسيافة من ورائهم يذمرونهم إلى الإمام ومهمما رجع أحد منهم إلى خلف وترك في الصد فرجة ضربت عنقه في الحين، فالموت عندهم في الفرار محقق وفي التقدم مظنون، فيختارون المظنون على المحقق، اللهم إلا إذا اشتدت الحرب وحمي الوطيس واحتللت الرجال بالرجال أمكن الفرار حينئذ لاشتغال الرئيس والمرؤوس كل بنفسه وبهذا الضبط لم تتفق لهم هزيمة منذ خرجوا من سبتة، ومن عادة العدو في الحرب أنه إذا نهض للقتال ارتحل بجميع ما في عسكره كأنه مسافر، فترى العسكري منهم إذا تقدم للقتال حاملاً معه جميع ما يحتاج إليه من ماء وطعام وبارود ورصاص حتى الموسى والمقص والمرآة والصابون وغير ذلك، قد اتخذ لجميع ذلك أوعية لطافاً وعلقها عليه فلا يؤده حملها لأنه اقتصر من كل على

قدر الحاجة، وأما الأخبية فيحمل كل ثلاثة رجال خباء ولا تلحقهم كلفة في حمله لأن أخبيتهم في غاية اللطافة والصفافة، وأعمدتها لطاف صلبة فهي مع كفايتها على الوجه الأثم في غاية الخفة بحيث إذا لف الخباء بما فيه كان كلام شيء، ولو أراد أن يحمله واحد لفعل لكنه يقسمه ثلاثة أشخاص زيادة في الرفق ولئلا يحصل الضجر إذا طال السفر، وأما المدافع فقد اتخذوا لها عجلات أفرغت إفراغاً وركبت عليها على وجه محكم واتخذوا للعجلات بغالاً خصبة تجرها في غاية الفراهة والارتياض، ويجعلون فوق تلك العجلات صناديق الإقامة من بارود ورصاص وضوبي وغير ذلك، وتجلس الطبيعية على تلك الصناديق ويقوم آخرؤن حولهم قد أخذوا أهبيتهم للقتال بكل ما يمكن، ثم تندفع العساكر على هذا الترتيب صفوافاً صفوافاً وتتقدم شيئاً فشيئاً يخلف بعضها بعضاً كأنها أمواج البحر تبرق الشمس على طموس رؤوسها وتلمع على عددها المصقوله والآلاتها، وهو في هذه الحالة لا يفتر من رمي الكور والضوبي والشرشم على كل جهة هكذا قتاله أبداً، وإذا أدركه المساء أو وقعت المحاجزة أثناء النهار وكان قصده الثبات ثبت بمحله ذلك ولا يتزحزح عنه بحال إلا إذا فني كل عسكره أو جله، فبمثل هذا الضبط كان له الاستيلاء والظهور، وأما مقاتلة المسلمين له فكانت غير منضبطة وإنما قاتله من قاتله منهم باختياره ومن قبل نفسه، وإن كان هنالك ضبط من أمير الجيش فكلا ضبط، ومتنى ظهر له أن يذهب ذهب مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا
كَانُوا مَعَهُمْ عَلَى أَمْرِهِ جَاءُوكُمْ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوكُمْ﴾ [النور: 62] لكن المقاتل من المسلمين يأتي القتال وليس معه ما يأكل ولا ما يشرب فالضرورة إذا جاء أو عطش ذهب يبحث عما يقيم به صلبه، ثم هم يقاتلون على غير صف ولا تعبيه بل يتفرقون في الشعاب ومخارم الأودية وحول الأشجار فيقاتلون من ورائهم وإذا دفعوا في نحر العدو دفعوا زرافات ووحداناً، ثم إذا أدركهم المساء ووقيعت المحاجزة ذهب كل إلى خيائه الذي تركه وراءه بمسافة بعيدة

وهم في هذا كله ليس لهم وازع يحملهم على ما يريد منهم.

فالحاصل أن جيش مغربنا إذا حضروا القتال وكانوا على ظهور خيولهم فهم في تلك الحال مساوون في الاستبداد لأمير الجيش لا يملك من أمرهم شيئاً، وإنما يقاتلون هداية من الله لهم وحياة من الأمير وقليل ما هم، وقد جربنا ذلك فصح ففروا عن السلطان المولى سليمان في وقعة ظيان أولأ وفي وقعة الشرارة ثانياً، وكان السلطان المولى عبد الرحمن أهيب في نفوسهم منه فكانوا يلزمون غرزه لكنه لما بعثهم إلى تلمسان فعلوا فعلتهم وسلكوا عادتهم، ولما شهدوا مع الخليفة سيدى محمد بن عبد الرحمن وقعة إيسلي جاؤوا بها شناء غريبة في القبح ولو لا أنه قام بنفسه ليلة الحاج عبد القادر ومنع الناس من الركوب لربما عادوا إلى فعلتهم، وأحسن ما كانت حالهم في هذا الحرب فإنهم قاوموا العدو وفرقوا صفوفه غير مرة لكنهم أتوا من عدم الضبط الذي هو كضبطة فعدم ملاقاتهم للعدو في الكيفية القتالية هو الذي أضر بهم وأوجب لعدوهم الظهور عليهم، إذ الشيء كما علمت إنما يقاوم بمثله، والشر إنما يدفع بضده، فالتنافي إنما يحصل بين الضدين أو المثلين وحربنا وحرب الإصبعيول كان من باب الخلافين ولا تنافي بين الخلافين كما هو مقرر في علم الحكمة، والتوفيق إنما هو بيد الله.

ولترجع إلى الكلام على الصلح المتناول فنقول: لما دار الكلام بين المولى العباس رحمه الله وبين أردنيل في الصلح استعدوا للاجتماع في يوم معلوم بمكان سوي بين المحلتين فلما كان ذلك اليوم ضرب بالمحل المعين خباء وجاء المولى العباس ومعه جماعة من وجوه جيشه وفيهم أبو عبد الله الخطيب التطاوني، وخرج أردنيل ومعه جماعة من وجوه عسكره وخرج معه مقدم المسلمين بتطارين الحاج أحمد آبغير رجاء أن يكون هو الترجمان بين الأميرين فيفوز بذلك الجميع وفخره فأخفق رجاؤه لأنه لما توافي الجuman إلى الخباء بقي الناس كلهم قائمين على بعد منه ولم يدخله إلا المولى العباس وأردنيل والخطيب لا رابع لهم فيما قيل، وأبدى أردنيل من

الأدب والخضوع للمولى العباس ما جاوز الحد وتفاوضوا ساعة ثم انقض المجلس وتناقل الناس أن حاصل ما دار بينهما أن أردنيل رغب في الصلح وتأكيد الوصلة بينهم وبين المسلمين على شروط ذكرها، وأن المولى العباس توقف فيها وأحال ذلك على مشورة أخيه السلطان سيد محمد وذهب كل إلى سبيله، وبقي الناس ينتظرون الجواب بأي شيء يأتي من عند السلطان وبعد أيام ورد الخبر بأن السلطان لم يقبل ذلك الصلح، فاستمر الناس على حالتهم الأولى من كون محلة العدو بتطاوين وبعضاها خارجها شرقاً وغرباً ومحلة مولاي العباس على بعد من البلد مقدار نصف يوم، ثم إن المسلمين اجتمعوا ذات يوم وبيتوا محلة العدو النازلة خارج البلد في ليلة معلومة فتقدموها إليها وذلك في أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين ألف وهجموا عليها في ليلة مظلمة والنصارى غارون وفتوكوا فيهم فتكاً بكرة باتوا يقتلونهم الليل كله، ومن الغد كذلك إلى المساء، وقاتل النصارى ذلك اليوم أيضاً ولكن الظهور كان للمسلمين ولو لا قوة نفوس العدو باستنادهم إلى البلد وتحصن كبيرهم بها لكانوا انكسرموا كسرة شنيعة، وكان عدد القتلى من النصارى في هذه الواقعة نحو الخمسين والجرحى أكثر من ألف، وأما المسلمين، فكان القتل فيهم ضعيفاً، ولما أصبح أردنيل ورأى ما حل بعسكره ساءت أخلاقه وقلب لأهل تطاوين ظهر المجن وأبدل تلك الشفقة التي كان يعاملهم بها بالغلظة وال بشاشة بالاكفهار، وعمد إلى مسجد الشيخ أبي الحسن علي برقة رحمة الله فاتخذه مارستانأً للجرحى فظللت الجرحى تنقل إليه وفرض على أهل تطاوين اللحف والقطائف فجمع من ذلك شيئاً كثيراً فرشه بالمسجد المذكور لجرحاه، وصار عامة عسكر النصارى بتطاوين كلما لقوا أحداً من المسلمين عيروه بالغدر وبخوه، ثم إن أردنيل أقام بعد هذه الواقعة نحو عشرة أيام ريثما استجم جيشه وأبلت جراحه وخرج في تمام الشوكة وكمال الاستعداد يريد أن يضرب في محلة المسلمين فجعل تطاوين

خلفه وتقدم حتى كان بوادي أبي صفيحة فلما شعر به الناس من أهل المداشر والمتطوعة تسابقوا إليه من كل جانب ووافق ذلك اليوم قドوم عرب الحيائنة جاؤوا في حرد كبير وحقن شديد فقويت قلوب الناس بهم واشتد أزرهم وتقدموا إلى العدو فأنشبوا معه الحرب بأبي صفيحة قبل أن يصل إلى محلة المسلمين وكثروه فأوقعوا به وقعة أئست ما قبلها فقتلوا منه ما خرج عن الحصر، وأما الجرحى فقل ما شئت، وكست قتلاه الأرض، ولما أعياه الدفن جعل يجمع الجماعة من الثمانية إلى العشرة وبهيل عليها التراب، ومع ذلك بقي منه عدد كبير بلا دفن حتى أتنن موضع المعركة من شدة نتن الجيف، ونان المسلمين من عدوهم في هذا اليوم ما لم ينالوا قبله مثله ولا ما يقاريه، وكان الذكر فيه لعرب الحيائنة ثم للمتطوعة غيرهم، وأما محلة المولى العباس فكانت بعيدة عن المعركة بمسافة كبيرة.

وقد ذكر منويل خبر هذا اليوم : فأقر بأنه أهرق منهم دم كثير وخسروا فيه عدداً كبيراً من نفوس العسكر والخييل ، ولما بلغ المولى العباس أن العدو قد برز من تطاوين وأن المسلمين يقاتلونه الآن في أبي صفيحة قلب رأيه واستأنف النظر في عاقبة أمره ، ورأى أن المسلمين وإن نالوا من العدو في هذه المرة وأبلغوا في نكايته لكن الشمرة ضعيفة من جهة أن نكايتنا له إنما هي في القتل والجرح ونكايتها في أخذ الأرض والاستيلاء عليها كما قلنا غير مرة فجنجع رحمه الله إلى الصلح واختاره على الحرب حتى تدور للMuslimين سعود إن شاء الله .

أخبرني صاحبنا القائد الأجل أبو عبد الله محمد بن إدريس بن حمان الجراري حفظه الله قال : لما طالت الحرب بين المسلمين والنصارى على تطاوين استدعاني السلطان وسيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله وأعطاني ستين ألف مثقال أذهب بها إلى جيش المسلمين المرابط على تطاوين بقصد المؤنة والصائر . وقال لي مع ذلك : إذا وصلت إلى محلة المسلمين فانظر

حالهم وتبصر في جميع أمورهم وما هم عليه في قتال عدوهم من الضبط وعدمه، وهل هم مكتفون في جميع ما تدعو الحاجة إليه أم لا؟ واستوعب ذلك وأثنى بالأمر على وجهه، قال: فذهبت فوصلت إلى المحلة يوم الخميس وفي صبيحة اليوم الذي يليه كان حرب أبي صفيحة فجاء النذير إلى المولى العباس وأخبره بأن المسلمين الآن يقاتلون العدو، قال: فركبت في جماعة من الناس وذهبت لأنظر حال المسلمين وحال عدوهم كما أمرني السلطان رحمة الله فوصلت إلى مقاتلة المسلمين فإذا هم يرتادون موضعًا يتزلون به أنقالهم ويضربون به أخبيتهم ليغزوا لقتال عدوهم، فإذا هم عزموا على النزول بوادي آكراز فأجهضهم العدو عنه بالرمي بالكور والضوبي وهو متقدم أمام لا يثنيه شيء فتأخروا عن ذلك المحل ونزلوا بمحل أمنوا به على أخبيتهم وأثنائهم، ثم تقدموا إليه وقاتلوه قتالاً شديداً حتى ردهم على عقبه بالموضع المعروف بأصال مرتين أو ثلاثة، وقتلوا منه ما جاوز الحصر، وفي ذلك اليوم استشهد عامل سفيان وبني مالك أبو محمد عبد السلام بن عبد الكريم بن عودة الحارثي وبات العدو تلك الليلة بوادي آكراز الذي كان المسلمون أرادوا أن يتزلوا به وباتت محلة المسلمين بالفنيديق وتفرق جل متقطعتها كل إلى حال سبيله على عادتهم وكان الوقت وقت شتاء وبرد غاية قال: فلم يعجبني ذلك ومن الغد وهو يوم السبت أصبح العدو مقيناً والمسلمون مقيمين كذلك وكان الرأي أن يماجلوه بوقعة أخرى ويلحقوا عليه كي يكسروا شوكته ويهدضمو ما دام متالماً ولا يتركوه حتى يجم ويستريح، لكنهم لم يفعلوا ودار الكلام في ذلك اليوم في الصلح فأذعن كل من الأميرين أمير المسلمين وأمير النصارى وجئنوا إليه لأنهم كانوا معًا قد سمعوا الحرب وملوا القتال، ثم من الغد وهو يوم الأحد تداعوا للاجتماع بعد أن نهض العدو من محله الذي كان نازلاً به واجتمع وانكمش وأظهر القوة بالتهيء للحرب والتعبئة للقتال حتى أنه إذا كان صلح فذاك وإنما فالقتال، فعل ذلك مكيدة، والحاصل أن المولى العباس تقدم في جماعة من وجوه الجيش

وتدنى أردنيل في جماعة من أصحابه كذلك بعد أن أمر بضرب خباء صغير يجتمعان به، وتقدم أردنيل على الخباء بكثير لملاقاة المولى العباس وإظهاراً للأدب معه فتلاقى به وعادا إلى الخباء وحضر معهم الترجمان ورجلان آخران وأبرموا الصلح وأعطى كل خط يده بذلك وانفصلوا وذهب كل إلى محله، وكان ذلك آخر حرب بين المسلمين والإصينيول، ولما وصل الخبر بانعقاد الصلح إلى عسكر النصارى فرحاً لم يعهد مثله وجعلوا ينادون الباص الباص أي الصلح الصلح ودخلوا تطاوين وهم رافعون بها أصواتهم وكلما لقوا مسلماً هشوا له كأنهم يهنتونه بالصلح، وكان الصلح قد انعقد بين المسلمين والإصينيول على شروط منها أن يدفع السلطان إليهم عشرين مليوناً من الريال ويخرجوا من تطاوين وما استولوا عليه من الأرض التي بينها وبين سبتة إلا شيئاً يسيراً يزداد لهم في المحددة على سبيل التوسعة، وكان انعقاد هذا الصلح في أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين ألف وتراتيبي السلطان رحمة الله في دفع هذا المال فاستمر العدو مقيناً بتطاوين حتى يستوفيه، وبعد سنة من يوم هذا الصلح استوفى عشرة ملايين منه وبقيت عشرة وقع الاتفاق فيها على أن يقتضيها العدو من مستفاد مراسى المغرب فأقام أمناء بها لاقتضاء نصف داخل كل شهر منها وهم الآن بهذا الحال والله تعالى يكفي المسلمين شرهم وشر كل شر، وبعد ما وقع هذا الاتفاق أسلم النصارى تطاوين إلى المسلمين وكان خروجهم منها ضحوة يوم الجمعة الثاني من ذي القعدة سنة ثمان وسبعين ومائتين ألف بعد أن مكثوا فيها ستين وثلاثة أشهر ونصفاً، ووقة تطاوين هذه هي التي أزاللت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انكساراً لم يعهد لهم مثله وكثرت الحميات ونشأ عن ذلك ضرر كبير نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، ولما فرغ السلطان رحمة الله من أمر تطاوين جد في جمع العسكر المرتب على الترتيب المعهود اليوم، وكان هذا السلطان أول من أحدهه من ملوك المغرب وكان إحداثه إياه في دولة أبيه رحمة الله بعد رجوعه

من وقعة إيسلي مع الفرنسيس، ثم جد فيه في هذه الأيام فجمع منه ما تيسر جمعه، ثم رتب المكوس على الأبواب والمبيعات وكتب في ذلك كتاباً للآفاق، فمما كتبه لأمناء مرسى الدار البيضاء في ذلك ما نصه: وبعد فإننا لما أخذنا في جمع النظام للمصلحة المتعينة، الواضحة البينة، المقر أمرها لدى الخاص والعام واجتمع منه عدد يسير، واحتبرنا ما صير عليه في شهر واحد فاجتمع فيه عدد كثير، فكيف أن جمعنا منه عدداً معتبراً يحصل به المراد، ويكون قدّي في أعين أهل العناد، اقتضى الحال ذكر ذلك لكتباء التجار لينظروا فيما يستعن به على أمرهم، إذ لا بد من كفايتهم، وإن حل نظام جمعهم، وفي ذلك ما لا يجهله من له أدنى عقل ومحبة في الدين، فأشاروا بفرض إعانة لا ضرر فيها على الرعية وسطروها في ورقه وهي كل شيء بالنسبة لما ارتكبه الملوك في مثل هذا للاستعانة به على المصالح المرعية، وللضرورة أحکام تخصها كما هو معلوم مقرر، ومسطر في غير ما ديوان محرر، ثم اقتضى نظرنا أن نسند الأمر في ذلك لأهل العلم ليقرروا للناس حكمه تقريراً تنشرح له الصدور ويعمل بمقتضاه في الورود والصدور، وإن كان جلهم يعلم هذا إذ من المعلوم أن الرعية لا يستقيم أمرها إلا بجند قوي بالله ولا جند إلا بمال وهو لا يكون إلا من الرعية على وجه لا ضرر فيه، وقد أخذ الناس هذه مدة بحضورتنا العالية بالله وبإمكانه وتزاها والعدوتين ومراکش في ذلك، وسلكوا في ترتيبه أحسن المسالك، ولا شك أن بركة ذلك تعود عليهم في أموالهم وأولادهم وأنفسهم، فبوصول هذا إليكم قوموا على ساق الجد في القبض من الناس بالباب على نحو ما في الورقة المشار إليها ولا دخل للنصارى في ذلك، والله أسأل أن يبارك لل المسلمين في مالهم ويعوضهم خلفاً آمين والسلام في الثاني والعشرين من رجب الفرد الحرام عام سبعة وسبعين ومائتين وألف، وإذا انجر بنا الكلام على اتخاذ العسكر وترتيبه فلا بد من تميم الفائدة بذكر كلام نافع.

القول في اتخاذ الجيش وترتيبه وبعض أدابه

اعلم أنه واجب على الإمام حماية بيضة الإسلام وحياطة الرعية وكف اليد العادمة عنها والنصح لها والنظر فيما يصلحها ويعود عليها نفعه في الدين والدنيا، ولا يمكنه ذلك إلا بجند قوي وشوككة تامة بحيث تكون يده غالبة على الكافة وظاهرة لهم، فاتخاذ الجند إذاً واجب وعليه فيندب له أن يتخد لهم ديواناً يجمع أسماءهم ويخصي عددهم ليحصل الضبط ويتنافى اللبس، وأول من اتخذ الديوان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أمر عقيل بن أبي طالب ومحزمه بن نوفل وجبيير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبا ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب مبتداً من قرابة رسول الله ﷺ فما بعدها الأقرب فالأقرب، فهكذا ينبغي للإمام أن يرتب جنوده في ديوان يحفظها ودستور يجمعها، ثم ينبغي أن يكون عنده أولاً ديوان كبير هو الأم يجمع أسماء العساكر كلها الحاضرة والغائبة والخاصة وال العامة، ثم يجعل دواوين صغاراً يشتمل كل واحد منها على طائفة مخصوصة مثل عسكر الإمام الذي يلازمه حضراً وسفراً وعساكر النفور والقلاع ونحو ذلك، وتكون هذه الدواوين الصغار بمنزلة الفروع للكبير تجدد كلما تجددت الطوائف كما سيأتي، وكل ديوان منها يشتمل على أرحام مثلاً وكل رحى على مثنين وكل مائة بضباطها وطبيتها وعالملها الذي يعلمها أمر دينها وغير ذلك.

قال صاحب مصباح الساري ما ملخصه: كانت الدولة العثمانية في أول أمرها إذا استخدمت طائفة من الجند بقيت في الخدمة طول عمرها ولما كان هذا الأمر صعباً يعني وغير مقتض للتسويقة بين الرعية في هذا الحق العظيم اقتضى نظرهم أن يعملا القرعة بين أبناء الرعاعيا عند انتهاء كل خمس سنين فمن استكمل مدة خدمته وتبصر بما يلزمها من حرب عدوه وقدر على المطالبة والمدافعة ذهب إلى حال سبيله لطلب معيشته، فذو الحرفة يرجع إلى حرفته

والناجر إلى تجارتة وهكذا، ويؤتى بطائفة أخرى بدلها حتى تصير الرعية كلها جنداً قادرة على المطالبة والمدافعة متى احتجت إلى ذلك، ثم من استوفى مدة خدمته بقي معدوداً في صنف الرديف سبع سنين أخرى، ومعنى الرديف أنهم يكونون عدة للدولة متى احتجت إليهم في نازلة عظيمة أو حرب عامة مثل ما يكون بين الأجناس، فإذا اسلخت السبع سنين فهو حر دائمًا وأبداً فلا يضرب عليه بعث، ولا يكلف بغزو إلا أن يشاء، فجملة مدة الخدمة العسكرية بين أصلية ورديفية اثنتا عشرة سنة، وشرط المستخدمين في العسكر أن يكونوا في سن العشرين إلى خمس وعشرين سنة، فمن زاد على ذلك أو نقص لا تقبله الدولة لينضبط الأمر، وإن اصطلاح على أقل من ذلك أو أكثر فلا بأس، فإذا أريد إعمال القرعة بينهم وذلك عند رأس خمس سنين كما قلنا اجتمع كل من هو في ذلك السن من أهل الناحية مثل مراكش وأعمالها وفاس وأعمالها والعدوتين وأعمالهما في يوم معلوم من السنة لا يتقدم ولا يتأخر فيحضر نائب السلطان ويحضر القاضي والشهدود وتكتب بطائق على عدد رؤوس الحاضرين فلان بن فلان الفلااني سنة كذا فإذا اجتمع لنا من البطائق مائة ونحن غرضنا استخدام خمسين مثلاً أخذنا تلك البطائق واحدة واحدة حتى تستوفي الخمسين ثم نفتحها فمن عثرنا عليه فيها فهو عسكري في تلك المدة، ومن أخطأته القرعة ذهب إلى حال سبيله، لكنه إن جاوز سن العسكرية الذي هو خمس وعشرون سنة ولم تصبه القرعة فهو في صنف الرديف إلى سبع سنين كما قلنا، والذين أصابتهم القرعة وأثبتوا في الديوان يرخص لهم في الذهاب إلى محالهم عشرين يوماً لقضاء أوطارهم ثم يحضورون بعدها إلى القشلة، ومن تخلف عن حضور هذا الجمع بدون عذر مقبول يثبت في الديوان بلا قرعة، ويسقط من أصل العدد المطلوب، ولا تقبل فيه شفاعة ولا فداء، ومن ليس له إلا ابن واحد من رجل كبير أو امرأة أرملة أو نحو ذلك ولا كافي له سواه فإنه يسرح له لثلا يضيع لكن بعد حضور الجمع وإثبات ما ادعاه، ومن له ولدان وأصابتهما معاً القرعة فيمسك واحد ويسرح له الآخر، ومن له أربعة أو خمسة وأصابت القرعة منهم ثلاثة

فأكثر أمسك اثنان وسرح الباقي، ويعرف عن كل من كان مفرداً في بيته وعن كل أعزور وأشل وأعرج وأحدب، وعن كل مبتلى بداء مزمن أو علة معدية أو ضعيف الجسم نحيف البنية لا يقدر على الأعمال الجنديه وغير سالم المزاج وهكذا، ويعرف عن طلبة العلم لكن بعد حضورهم وامتحانهم فمن ظهرت نجابتهم خلي سبيله لأنه قد قام بوظيف هو من أهم الوظائف ومن كان قليل الفهم أو مقسم البال أو طائش الفكرة لا ترجي فائدته وإنما تستر بطلب العلم دخل في القرعة، وإذا كان لرجل ولدان وأصابت القرعة أحدهما وأراد إيداله بالآخر فذلك له إذا توفرت فيه شروط الخدمة، وإذا أراد أن يبدله بغير أخيه من عبد أو أجير فلا بد من زيادة قدر معلوم من المال لا يجحف به ولا يؤدي إلى تعطيل تجارته ولا بيع أصله، ولهذا البدل شروط: الأول أن يكون سالماً من الآفات المتقدمة، الثاني أن لا يكون من استوفى مدة الخدمة التي هي خمس سنين ودخل في صنف الرديف اللهم إلا إذا لم تكن القرعة أصابته حتى جاوز السن المعلوم وصار في صنف الرديف فهذا يقبل، الثالث أن يكون من أهل تلك الناحية فلا يقبل مراكشي عن فاسى مثلاً وبالعكس، الرابع أن لا يكون من العبيد السود اللهم إلا إذا كان في الجند صنف منهم فقبل في صنفه ولا بأس إذا كان مملوكاً أبيض، الخامس أن لا يكون من الذين استعملوا في الجنديه وأخرجوا منها لعارض خلقي أو خلقي مثل آفة بدنية أو فعل قبيح من سرقة ونحوها، السادس أن لا يكون البدل قد جيء به بعد ثلاثة أشهر ثم إذا فر البدل فيتظر مجئه إلى شهر فإن جاء وإن أخذ به صاحبه الذي جاء به، ثم إذا انتظم هذا الجمع العسكري فأول ما يعلموهم أمر دينهم مما لا بد منه على سبيل الاختصار بأن يلقنوا كيفية اللفظ بالشهادتين وبين لهم معناها بوجه إجمالي، فإن جل العوام سيماء أهل البدية والقرى النائية لا يفهمون ضروريات دينهم، ويعلمون كيفية الوضوء والصلاه ويلزمون بالمحافظة عليها حتى أن من لم يحضر منهم وقت النداء لها يعاقب عقاباً شديداً وإنما فلم يحضر عند سماعه الطرنبيطة ولا يحضر إذا سمع داعي الله وهذا أول ما يتعلمونه لتعود عليهم بركة الدين وينجح سعيهم في حماية

المسلمين، فإنما لم نرد بجمع هذا الجندي إلا حفظ الدين فإذا كان الجندي مضينا له فكيف يحفظه على غيره ويعود على المسلمين نفعه، ثم بعد هذا يعلمون الأمور التي تدل على كمال المروءة وعلو الهمة من الحياة والخشمة والإيثار وترك الكلام الفحش وتوفير الكبير ورحمة الصغير ويلقون أن من أفضل الحال عند الله وعند العباد الغيرة على الدين والوطن ومحبة السلطان ونصحه، ويقال له مثلاً: إذا كان العجمي الزنديق يغضب لدينه الباطل ووطنه فكيف لا يغضب العربي المؤمن لدينه ودولته ووطنه، ولا بد من ترتيب مجلس يومي يسمعون فيه سيرة رسول الله ﷺ ومغازييه ومحاسنهم الراشدين وسلف الأمة وأخبار رؤساء العرب وحكمائها وشعرائها ومحاسنهم وسياساتهم وليتخير لهم من الكتب الموضوعة في ذلك أنفعها مثل: «كتاب الأ��اء» لأبي الربيع الكلاعي، وكتاب ابن النحاس في الجهاد، وكتاب «سراج الملوك»، ونحوها، فإن ذلك مما يقوى إيمانهم ويحرك هممهم ويؤكد محبتهم في الدين وأهله، وينبهون على التحفظ على ثيابهم وأطرافهم من الأوساخ والأوضار التي تدل على دناءة الهمة ونقصان الإنسانية وعدم النحوة، ويلزمون بترك استعمال الدخان فإنه مناف لنظافة الدين ومذهب للمرءة والمال بلا فائدة، ثم إذا رسخت فيهم هذه الآداب في ستة أشهر أو عشرة أو أكثر أخذوا في تعلم الثقافة وأمور الحرب، ثم من أهم ما يعني به في شأنهم أن لا يتخلقوا بأخلاق العجم ولا يسلكوا سبيلهم في اصطلاحاتهم ومحارباتهم وكلامهم وسلامهم وغير ذلك، فقد عممت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخليق بخلق العجم فيريدون تعلم الحرب ليحافظوا الدين فيضيعون الدين في نفس ذلك التعلم، فلا تمضي على أولاد المسلمين ستان أو ثلاث حتى يصيروا عجماً متخلقين بأخلاقهم متأدبين بأدابهم حتى أنهم تركوا السلام المشروع في القرآن وأبدلوا بوضع اليد خلف الأذن، فيجب على معلمهم في حالة تعليمه إليهم أن يعدل عن الاصطلاح العجمي إلى العربي ويعبر عن الألفاظ العجمية بالعربية، وإن كان أصل العمل مأخوذاً عن العجم فليجتهد

المعلم الحاذق في تعربيه وليس ذلك بعسيرة على من وفقه الله إليه، وليس فيه إلا إيدال لفظ عجمي بلفظ عربي بأن يقول مثلاً: أمام، خلف، دائرة، نصف دائرة، وهكذا، فإذا مررنا عليه شهراً أو شهرين كان أسهل شيء عليهم لأن تلك هي لغتهم التي فيها نشأوا وعليها ربوا، فالعمل عجمي والكلام الذي ينبعون به على ذلك العمل عربي فائي كلفة في هذا وبه يندفع عنهم التشبه بالعجم المنهي عنه شرعاً، فإن التزيي بزبدهم لا يأتي بخير أبداً وهو والله من أفسد الأشياء للدين الذي نريد أن نحوطه بهم.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: من لم تصلحه السنة فلا أصلحه الله، ثم عمود هذا كله وصلبه العقيم له وروحه الذي به حياته هو الكفاية في المطعم والملبس، وليختار لهم من الأغذية أطيبها وأنفعها للبدن، وليجعل لهم كسوتان كسوة الشتاء وكسوة الصيف، وليتخير لهم من المساكن والمنازل أطيبها وأصلحها هواء وأبعدها عن محل الوخم، وليلزمهم بالاعتناء بتنظيف مساكنهم وتبریدها وتطيبتها حتى لا ينشأ عنها داء، وإذا تراخوا في مثل ذلك عوقبوا عليه لأنه دال على دناءة الهمة ودنيء الهمة لا يأتي منه شيء، وليرتب لهم الأطباء العارفون حتى إذا أصاب أحداً منهم مرض عالجه الطبيب في الحال، فإن هذا الجندي هو سور الإسلام وسياج الدين فبحفظه يحفظ الدين وبسلامته يسلم، فإذا اتخاذ الجندي على هذه الكيفية التي ذكرنا سهل على الناس الدخول في الجندية وتنافسوا فيها، ومن كان عنده من الرعاية درهم طابت نفسه بأن يقتسمه معهم ويكون الجندي حينئذ في مرتبة هي أشرف من مرتبة الرعاية بكثير لأن الجندي يحفظهم والرعاة تكسب وتبدل لهم، ثم إذا ظهر من آحاد الجندي نجابة أو شجاعة أو نصيحة في الخدمة السلطانية رفع قدره ونره باسمه ليغتبط هو بمنزلته ويزداد في خدمته ويغبطه غيره وينافسه في خصاله التي أكسبته تلك المنزلة وليقس ما لم يقل، والله الهادي إلى التوفيق بمته ولنرجع إلى التاريخ فنقول:

وفي سنة سبع وسبعين ومائتين وألف وذلك في يوم الثلاثاء الثاني عشر

من ذي القعدة منها توفي والدنا الفقيه المرابط الأخير أبو البقاء خالد بن حماد بن محمد الكبير الناصري بقبيلة سفيان، ودفن بتربة الشيخ أبي سلهم رضي الله عنه، وكان رحمه الله من الورع والتحرى في أكل الحلال على جانب عظيم بحيث فاق أكثر أهل زمانه في ذلك، وكان ديناً وقوراً كثيراً الأوراد ذا صمت وجد، وله إمام بالفقه والسير النبوية مرجو البركة عند العامة رحمتنا الله وإيه والمسلمين.

ثورة الجيلاني الروكي ومقتله

كان الجيلاني الروكي من عرب سفيان رجالاً خاملاً الذكر ساقط القدر حرفة رعي البهائم ونحو ذلك من عمل أهل البايدية، فوكل به جندي أو شيطان ففاه بالمخاريق وتبعته العامة فثار ببلاد كورت وتقدم إلى دار القائد عبد الكريم بن عبد السلام بن عودة الحارثي السفياني في أخلاقه من الأوباش بالعصي والمقاليع فحاصر القائد المذكور في داره من الظهر إلى الغروب ثم اقتحم العامة عليه داره فقتلوا وقتلوا جماعة من إخوته وبني عمده ونهبوا ما وجدوا بداره وكان شيئاً كثيراً من المال والأثاث، وبقي أولئك القتلى مصرعين ببناء الدار ثلاثة أيام لم يدفنوا وافتنتت العامة بهذا الروكي ونسبوا له الخوارق والكرامات من غير استناد إلى دليل ووعدهم بأنه يستولي على الملك ويحكم المتمسكون بدعوته في الأموال كيف شاؤوا، وضاعت نفوس في تلك الفتنة ونهبت أموال واختلط المرعى بالهمم، وكانت حاضراً لهذا الخطب العظيم فكان من افتتان العامة بهذا المعتوه واعتقادهم فيه وجهلهم المركب في أمره ما لا يكاد يصدق به إذا حكى، وكان السلطان سيد محمد رحمه الله يومئذ برياط الفتح فاهتز لها النصارى الذين كانوا بتطاوين أباطيل الروكي وشاعت في العالم حتى اهتز لها النصارى الذين كانوا بتطاوين وحدثوا أنفسهم بالفرار، ثم إن السلطان رحمه الله أغراه أخاه المولى الرشيد، فلما سمع الروكي بمجيئه وعد أوباشه بأنه سينصر عليه وأن خيل السلطان

تكون غنية له وقال لهم: اتخذوا الشكائم أي الأرسان من الدوم وأعدوها لتقودوا بها خيل السلطان، فاتخذ جمع عظيم من العامة الحبال والأرسان وتوشحوا بها تحت الثياب وجعلوا يتبعون الروكي أينما ذهب انتظاراً لوعده، ولما قرب المولى الرشيد منه أخذ أمره في النقصان وناموسه في البطلان، ولما كان المولى الرشيد قرب سوق الأربعاء من بلاد سفيان جعل الشكائمية يقربون من المحلة ويتطوفون حولها مختفين بالأودية والشعاب والكدى ينتظرون هزيمتها بخارق من خوارق دجالهم، فأعلم المولى الرشيد بمكانتهم فبعث الخيل فالقطوهם في ساعة واحدة ولم يفلت منهم إلا القليل وسيقوا إلى رباط الفتح فسجنا به مدة، وأما الروكي فإنه قصد جبل زرهون ودخل روضة المولى إدريس الأكبر رضي الله عنه فاجتمع عليه جماعة من الأشراف الأدارسة والعلويين وغلقوا أبواب القبة وتقدم إليه شريف علوى ففتثك فيه وأراح الناس من شره واحتزوا رأسه بيده وحملوهما إلى السلطان فبعث بهما إلى مراكش فعلقا بجامع الفنان مدة، وكان جهلة العوام لا يصدقون بموته وبقوا ينتظرون رجعته سنتين أو ثلاثة ﴿وَمَنْ يُفْسِلَ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْ هَذِهِ﴾ [الرعد: ٣٣] وكان مقتل الروكي في أواسط شعبان سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف ولم تجاوز مدة أربعين يوماً، وكان مما كتبه السلطان في شأنه ما نصه: وبعد فإن فتاناً من سفيان مرق من الدين وفنن بأمر شيطنته من اغتر به من المسلمين، وجمع عليه أوباشاً من أمثاله وأضرابه وأشكاله، وتقدم بهم لدار خديمنا ابن عودة فقتلوه ثم تقدم بهم للشارادة فقاتلوه ثم تقدم بهم لزاوية مولانا إدريس فقاتلته أهلها قتالاً يرضي الله ورسوله ولم يحصل لهم من قتاله ضجر ثم قبضوا عليه وقتلوه وعلقوا رأسه بباب الزاوية المسمى بباب الحجر وأغلقوا الأبواب بعد ذلك على من دخل معه من أتباعه وأنصاره وأشياعه، فقبضوا عليهم وجعلوهم في السلسل والأغلال، ونحن على نية إقامة الحد عليهم إن شاء الله جزاء وفاقاً على ما ارتكبواه من الفساد وقبح الأعمال، ومن كان منهم حيتذ خارجاً عن الباب تخطفته الأيدي، وجئوا ثمار ما سعوا فيه من البغي والتعدى، وقطع دابر جميعهم فالحمد لله حق حمده وما كل نعمه إلا

من عنده، وأعلمناكم لتكونوا على بصيرة إذ ربما يبلغ المرجفون على عادتهم النازلة على غير وجهها والسلام، في ثامن عشر شعبان المعظم عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف.

إيقاع السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله بعرب الرحامة

لما كان السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله ببلاد الغرب مشتغلًا بأمر الإصبيوں وحربه على تطاوين ثار عرب الرحامة بالحوز وعمدوا إلى سوق الخميس بمراكش فأغاروا عليه وانتهبوه وسلبوا المارة وأرباب الجنات وضايقو أهل مراكش حتى منعوهم من الارتفاع حول المدينة، فانقطعت السبل وارتقت الأسعار وقطع الرحامة ما حول الأسوار من الأشجار واحتطبوها، وحصدوا الزروع في الفدان واغتصبواها، واشتد الحصار وتخاذلت الأنصار ودام الحال إلى أن فرغ السلطان رحمه الله من حرب الإصبيوں وفتنة الروكي فوجه وجهته إلى مراكش، فلما قرب منها تحزب الرحامة وأجمعوا على حرية فانحازوا إلى ناحية الرميلة والأودية وزاوية ابن ساسي ليحولوا بينه وبين الدخول إلى مراكش فهجم عليهم وأوقع بهم وقعة سيقوا بها بعد ساعة إلى مراكش مقرنين في الحال حتى ضاقت بهم السجون، ولولا أنه رحمه الله كف أيدي الجيش عنهم لاستأصلوهم ثم عفا عنهم بعد أن انتزع منهم بلاد آيت سعادة وغواطم والأودية وهي من أخصب البلاد وأذكاءها، وكتب السلطان في هذه الوعة لأخيه المولى الرشيد بكتاب مختوم عليه بالخاتم الكبير بن الافتتاح والخطاب، ويدخل الخاتم: محمد بن عبد الرحمن غفر الله له، وبدائرته:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها تجم
 ﴿وَمَا تَؤْتِيقُ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوْكِيدُ وَإِلَيْهِ أُثْبَتُ﴾ [مود: ٨٨] وبباركان الخاتم: الله

محمد أبو بكر عمر عثمان علي ونص الافتتاح : الحمد لله الذي تدارك الأمة باللطف الكفيل بتمهيد أقطارها ويسير أوطارها وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه الذين نصروا الدين بالصفاح والأسنة، وأوضحا أحکام السنة، أخانا الأعز الأرضي مولاي الرشيد أصلحك الله وأعانتك وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإنه لما تواترت الآباء المحققـة بعد التباسـها وتواردـت الأخـبار التي يـعني نـصـها عنـ قـيـاسـها بـما ارتكـبـه ظـالـمـوا أنـفسـهم الرحـامـةـةـ منـ أنـوـاعـ الفـسـادـ التيـ أـذـاعـهـاـ وأـظـهـرـهـاـ وأـشـاعـهـاـ،ـ وـقـدـ كـانـتـ فـيـ صـدـورـهـمـ كـامـنـةـ،ـ صـرـفـنـاـ الـوـجـهـ إـلـيـهـمـ وـطـوـبـنـاـ الـمـرـاحـلـ مـنـ أـجـلـهـمـ،ـ وـلـمـ حـلـلـنـاـ بـيـلـادـهـمـ أـرـسـلـنـاـ عـلـيـهـمـ سـيـلـ الـعـرـمـ مـنـ الـعـسـاـكـرـ الـمـنـصـورـةـ وـالـجـيـوشـ الـمـوـفـورـةـ،ـ فـمـاـ كـانـ غـيـرـ بـعـيدـ حـتـىـ أـتـوـ بـرـؤـوسـ مـنـهـمـ كـثـيرـ مـحـمـولـةـ عـلـىـ أـسـنـةـ الـرـماـحـ،ـ وـأـسـارـىـ مـنـ مـقـاتـلـهـمـ مـجـرـدـيـنـ مـنـ الشـيـابـ وـالـسـلاـحـ،ـ وـمـنـ نـجـىـ مـنـهـمـ رـجـعـ مـجـرـدـاـ إـلـاـ مـنـ خـيـبةـ سـعـيـهـ،ـ وـمـاـ سـقـيـ إـلـاـ بـكـأسـ بـغـيـهـ،ـ وـاـسـتـولـتـ الـعـسـاـكـرـ وـالـأـجـنـادـ عـلـىـ جـمـيعـ مـاـ كـانـ عـنـدـ أـهـلـ الـفـسـادـ،ـ وـمـنـ الـمـعـلـومـ أـنـ مـنـ سـلـ سـيفـ الـبـغـيـ يـعـودـ إـلـىـ نـحـرـهـ،ـ وـمـنـ رـكـبـ مـنـ الشـقـاقـ يـغـرـقـ فـيـ بـحـرـهـ،ـ وـأـنـ الـفـتـنـةـ نـارـ تـحرـقـ مـنـ أـوـقـدـهـاـ،ـ وـالـمـخـالـفـةـ صـفـقـةـ تـعـودـ بـالـخـسـارـةـ عـلـىـ مـنـ عـقـدـهـاـ،ـ وـلـمـ أـرـدـنـاـ مـعـاـدـتـهـمـ لـقـطـعـ دـاـبـرـهـ وـتـشـتـيـتـ مـاـ بـقـيـ مـنـ رـمـادـ أـثـرـهـمـ تـعـلـقـواـ بـالـمـرـابـطـينـ مـنـ ذـوـيـ الـوـجـاهـاتـ،ـ وـأـكـثـرـهـاـ مـنـ الـذـبـائـحـ عـلـىـ الـمـحـالـ وـتـوـجـيهـ الـعـارـاتـ،ـ وـقـامـواـ بـوـاجـبـ السـمـعـ وـالـطـاعـةـ فـيـ كـلـ مـاـ أـمـرـنـاهـمـ بـهـ جـهـدـ الـاسـطـاعـةـ،ـ فـأـبـقـيـنـاـ عـلـيـهـمـ وـإـنـ عـادـتـ الـعـقـوبـ عـدـنـاـ بـحـولـ اللهـ لـهـاـ وـكـانـ النـعـلـ لـهـاـ حـاضـرـةـ،ـ فـالـحـمـدـ للـهـ الـذـيـ خـيـبـ آـمـالـهـمـ وـأـبـطـلـ أـعـمـالـهـمـ وـخـذـلـ أـنـصـارـهـمـ،ـ وـأـرـكـدـ أـعـمـارـهـمـ لـمـ أـعـمـىـ أـبـصـارـهـمـ،ـ وـرـدـهـمـ نـاكـصـيـنـ عـلـىـ الـأـعـقـابـ بـعـدـ سـلـبـ الـأـمـوـالـ وـقـطـعـ الرـقـابـ،ـ **«ذـلـكـ يـأـتـهـمـ شـأـنـهـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ وـكـانـ يـشـافـقـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ فـكـارـكـ اللـهـ شـيـدـ الـعـقـابـ»** [الأنـفالـ:ـ 13ـ]ـ،ـ وـنـعـوذـ بـالـلـهـ مـنـ الـأـرـاءـ الـمـعـكـوـسـةـ وـالـحـظـوظـ الـمـنـكـوـسـةـ،ـ وـسـوـءـ الـفـعـلـ الـذـيـ يـورـدـ الـمـهـالـكـ،ـ وـالـحـرـمانـ الـذـيـ يـجـعـلـ الـبـصـيرـ كـالـأـعـمـىـ فـيـ دـجـنـةـ الـلـيـلـ الـحـالـكـ،ـ هـذـاـ وـيـصـلـكـمـ مـاـ قـطـعـ مـنـ رـزـقـهـمـ قـتـلـاهـمـ لـتـتـعـلـقـ بـبـابـ الـمـدـيـنـةـ وـيـعـتـبـرـ بـهـاـ الـمـعـتـبـرـونـ،ـ وـيـتـذـكـرـ بـهـاـ

المتذكرون، والله أسأل أن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، وأن يكون لنا وللمسلمين بما كان لأولئك وأحبائهم وأصفيائهم، وأن يوفقاهم لما يحبه ويرضاه، ويختتم للجميع بخير والسلام، في ذي الحجة الحرام عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف ومن تمامه: وأن علقت يوماً واحداً فادفعها لحملتها ولا بد ليتوجهوا بها إلى مكتاسة صح به اه نص الكتاب الشريف.

وفي سنة تسع وسبعين ومائتين وألف سافر شيخنا الفقيه العلام البارع أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوي إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فوافته منيته بمكمة المشرفة بعد الفراغ من الحج والعمرة ودفن بالمعلاة، وكان رحمه الله واعية دراكه نفاعة كثير الدرس والتقييد والنصح للكتب المعترفة فصيبح العبارة حسن النغمة والصوت عارفاً بالحديث دؤوباً على سرده عارفاً بال نحو والفقه وعلوم الآلة، لازمناه وانتفعنا به وعادت علينا برకاته رحمه الله ونفعنا به، وكانت رثيتها بقصيدة ذهبت في جملة ما ذهب من شعري إذ لم يكن لي اعتناء بتقييده ومطلعها:

ملازمنة التذكرة تذهب بالللب وتغري قديم الوجد بالهائم الصب

وفي سنة ثمانين ومائتين وألف وذلك يوم السبت الرابع عشر من شعبان منها كانت هذه البارود بمراكبش وذلك أنه كان بجامع الفناء منها فندق في بعض بيته نحو أربعمائة قنطار من البارود وبه أيضاً شيء من فحم الريش المستخدم للبارود فوقع في نار وسرت منه إلى البارود فنفخ وقت الغروب من اليوم المذكور والناس كثيرون حول الفندق فطار الفندق بما فيه، وكانت حيطانه عادية وطار من كان حوله من الناس قيل نحو الثلاثمائة فعنهم من لم يوجد أصلاً و منهم من وجد بعضه من يد أو رجل و نحو ذلك، وتهدمت كل دار كانت متلاشية بمراكبش وانخلعت الأقفال من الأبواب وصر صر صر السقوف والحيطان وكان الحادث عظيماً، وفي هذه السنة ورد يهودي من اللوندرة على السلطان بمراكبش يطلب منه الحرية ليهود المغرب وذلك لأنه

لما كانت وقعة تطاوين ودهم الناس ما دهمهم من أمر الحمايات وأكثر من تعلق بها اليهود لم يقتصروا على ذلك وراموا الحرية تشبيهاً بيهود مصر ونحوها فكتبوا إلى يهودي من كبار تجارهم باللوندرة اسمه روشاپيل وكان هذا اليهودي قارون زمانه وكانت له وجاهة كبيرة في دولة النجليز لأنها كانت تحتاج إليه فيسليفها الأموال الطائلة وله في ذلك أخبار مشهورة فكتب يهود المغرب إليه أو بعضهم يشكون إليه ما هم فيه من الذلة والصغار ويطلبون منه الوساطة لهم عند السلطان رحمة الله في الإنعام عليهم بالحرية فعين هذا اليهودي صهراً له للوفادة على السلطان رحمة الله في هذا الغرض وفي غيره وأصحابه هدايا نفيسة وسأل من دولة النجليز أن يشعروا له عند السلطان ويكتبوا له في قضاء غرضه ففعلوا، وقدم على السلطان بمراکش وقدم هداياه وسائل تنفيذ مطلبه فتجأفى السلطان رحمة الله عن رده مخفقاً وأعطاه ظهيراً فتمسك به اليهودي يتضمن صريح الشرع وما أوجب الله لهم من حفظ الذمة وعدم الظلم والعسف ولم يعطهم فيه حرية كحرية النصارى، ونص الظهير المذكور بالطابع الكبير:

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نأمر من يقف على كتابنا هذا أسماء الله وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة ويدره من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر إيانا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام حتى لا يلحق أحداً منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام، ولا ينالهم مكره ولا اهتضام، وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم، وأن لا يستعملوا أهل الحرف منهم إلا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيقهم بما يستحقونه على عملهم لأن الظلم ظلمات يوم القيمة، ونحن لا نوافق عليه لا في حقهم ولا في حق غيرهم، ولا نرضاه لأن الناس كلهم عندنا في الحق سواء، ومن ظلم أحداً منهم أو تعدى عليه فإنما تعاقبه بحول الله، وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحتناه وبيناه كان مقرراً ومعروفاً محرياً لكن زدنا هذا المسطور تقريراً وتأكيداً

ووعيدها في حق من يريد ظلمهم، وتشدیداً لیزید اليهود أمناً إلى أنهم، ومن يريد التعذی عليهم خوفاً إلى خوفهم، صدر به أمرنا المعتز بالله في السادس والعشرين من شعبان المبارک عام ثمانين وماتين وألف، ولما مکنهم السلطان من هذا الظهیر أخذوا منه نسخاً وفرقوها في جميع يهود المغرب وظهر منهم تطاول وطیش وأرادوا أن يختصوا في الأحكام فيما بينهم لا سيما يهود المراسی فإنهم تحالفوا وتعاهدوا على ذلك ثم أبطل الله کیدهم وخیب سعیهم على أن السلطان رحمة الله لما أحس بطیش اليهود عقب ذلك الظهیر بكتاب آخر بين فيه المراد وأن ذلك الإیصاء إنما هو في حق أهل المروءة والمساكین منهم المستغلین بما یعنیهم، وأما صعالیکهم المعروفون بالفجور والتطاول على الناس والخوض فيما لا یعني فیعاملون بما یستحقونه من الأدب.

واعلم أن هذه الحرية التي أحدثها الفرنج في هذه السنین هي من وضع الزنادقة قطعاً لأنها تستلزم إسقاط حقوق الله وحقوق الوالدين وحقوق الإنسانية رأساً، أما إسقاطها لحقوق الله فإن الله تعالى أوجب على تارك الصلاة والصوم وعلى شارب الخمر وعلى الزاني طائعاً حدوداً معلومة والحرية تقتضي إسقاط ذلك كما لا يخفى، وأما إسقاطها لحقوق الوالدين فلأنهم خذلهم الله يقولون: إن الولد الحدث إذا وصل إلى حد البلوغ والبنت البكر إذا بلغت سن العشرين مثلاً يفعلان بأنفسهما ما شاءوا ولا کلام للوالدين فضلاً عن الأقارب فضلاً عن الحاكم ونحن نعلم أن الأب يسطخه ما يرى من ولده أو بنته من الأمور التي تهتك المروءة وتزرى بالعرض سيما إذا كان من ذوي البيوتات، فارتکاب ذلك على عينه مع منعه من الكلام فيه موجب للعقوق ومسقط لحقه من البرور، وأما إسقاطها لحقوق الإنسانية فإن الله تعالى لما خلق الإنسان كرمه وشرفه بالعقل الذي یعقله عن الواقع في الرذائل ويبعثه على الاتصاف بالفضائل وبذلك تمیز عما عاده من الحیوان، وضابط الحرية عندهم لا یوجب مراعاة هذه الأمور بل یبيح للإنسان أن یتعاطى ما ینفر عنه الطبع وتباہ الغریزة الإنسانية من التظاهر بالفحص والزنی وغير ذلك إن شاء لأنه مالک أمر نفسه فلا یلزم أن یتعمد بقید ولا فرق بينه وبين البهيمة

المرسلة إلا في شيء واحد هو إعطاء الحق لإنسان آخر مثله فلا يجوز له أن يظلمه، وما عدا ذلك فلا سبيل لأحد على إلزامه إياه، وهذا واضح البطلان لأن الله تعالى حكيم وما ميز الإنسان بالعقل إلا ليحمله هذه التكاليف الشرعية من معرفة خالقه وبارقه والخضوع له لتكون له بها المتنزلة عند الله في العقبين ﴿إِنَّا عَرَّضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى الْمُتَّوَلِينَ وَالْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية.

واعلم أن الحرية الشرعية هي التي ذكرها الله في كتابه وبينها رسول الله ﷺ لأمته وحررها الفقهاء رضي الله عنهم في باب الحجر من كتبهم فراجع ذلك وتفهمه ترشد وبالله التوفيق.

وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف كمل بناء الدار الفيهام التي أنشأها السلطان سيدى محمد رحمة الله بأجادال من ظاهر رباط الفتح بجوار ضريح جده سيدى محمد بن عبد الله وهي دار كبيرة حسنة البناء واسعة المقاعد والفناء يقال إنها من أخوات بديع المنصور، ولما كمل بناؤها أمر السلطان رحمة الله أن يختتم فيها فقهاء رباط الفتح صحيح البخاري أولًا وفقهاء سلا ثانياً فدخلناها في جملتهم وتقصينا منازلها ومقاعدها فرأينا ما ملأ أبصارنا حسناً وإتقاناً وعجب صنعة.

وفي سنة اثنين وثمانين ومائين وألف حدثت فتنة بفاس وذلك أن الناس كانوا في صلاة الجمعة بمسجد القرويين الخامس ربيع الأول وكان فيهم التاجر الأميد أبو عبد الله حبيب بن هاشم بن جلون الغاسي فلما سجد مع الناس شدح بعض اللصوص رأسه بحجر كبير من أحجار التيمم التي تكون بالمسجد ثم انحنى عليه بخنجر كان بيده فقطع به صفاق بطنه وساوره التاجر المذكور وما بالغير من قصاص، ولما وقعت الضجة قطع الناس صلاتهم وخرجوا فارين من المسجد وتركوا ثيابهم ونعالهم ومصاحفهم وغير ذلك فقاتل يقول: إن الإمام المهدي قد خرج، وأآخر يقول: إن الناس يذبح بعضهم بعضاً في الجامع، واهتزت المدينة ثم تراجع الناس بعد حين، وأما اللص فإنه خرج شاهراً سلاحه حتى وصل إلى باب المسجد فكثرة الناس وقبضوا عليه وانتزعوا السلاح من يده وكشفوه فإذا به قد أدار حبالاً كثيرة من تحت الثياب

على بدنها وقاية له فقتلوه هنالك وبقي التاجر ابن جلون يعالج جراحاته إلى أن مات من آخر الليل واتهم أولياؤه ناساً من أعيان فاس بأنهم أغروا بقتله ولم يثبت ذلك.

وفي هذه السنة أعني سنة الثنتين وثمانين ومائتين وألف وجه السلطان رحمه الله قائد جيشه أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم الشرقي وعامل سلا أبا عبد الله محمد بن سعيد السلاوي باشدورين إلى دولة فرنسا بباريس، وكان السبب في ذلك ما أخبرني به القائد أبو عبد الله بن سعيد المذكور قال: كان سيدنا أمير المؤمنين سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمة الله قد أصحبنا كتاباً إلى طاغية الفرنسيس وأمرنا بالكلام معه في شأن هؤلاء النواب الذين يبعثهم إلى المغرب وأن يكون يتخفهم من بيوت الأعيان وممن يتصرف بالتأنى وحسن السيرة والوقوف عند ما حد لهم، ولما وصلنا إلى باريس شرحنا ذلك للطاغية المذكور كتابة ففرح وقابلنا بما لا مزيد عليه من البرور الذي لا نقدر على شرحه مع أن إكرامنا والحمد لله لهم يفوق ذلك في الصوائر وكنا توجهنا ومعنا خيول وغيرها وأقمنا بباريس شهراً وكان مقامنا بدار كثيرة الفرش والأثاث من الفضة والمعدن ووكل بنا أمين يصير علينا حسب نظرنا وقبة يباشرون فرش المنزل وتنظيفه وغير ذلك ومعنا أصحابنا وطباخنا إلا أنهم منعزلون بمحل يخصهم، وفي كل يوم تستدعينا الدولة للفرجة بمحل يسمى التياترو فيه مواعظ وحكم لمن تبصر ومتعة للنفس لمن كان حظه النظر، وقد أكرمنا الطاغية بمنزله وأكرمنا الوزراء وعامل البلد والأعيان ليلاً وكل واحد يجمع علينا أعيان الدولة وأهل البلد نساء ورجالاً، وعادتهم عند دخولك المنزل أن تحبب الزوجة ومن معها بالسلام أولاً ثم بعد ذلك تحبب الرجل، ورأينا من الطاغية وزيره على الأمور البرانية من البرور وال بشاشة ما جاوز الحد وطلب منها هذا الطاغية أن نبحث له في كتب التاريخ بالمغرب هل نعثر على تاريخ بناء روما وفي أي وقت بنيت باسم بانيها ونبعث به إليه اهد كلام العامل المذكور وهو حفظه الله من أمثل الناس

وأعدلهم وأتقاهم وله المنزلة الكبيرة عند السلطان وعنده الناس حرس الله
مجادته، وأدام بمته عافيته وسلامته.

ونص الكتاب الذي وجههم به السلطان رحمة الله مكتوباً فيه اسم
السلطان بداخل الطابع الشريف: بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة
إلا بالله العلي العظيم من عبد الله المتوكلا على الله المفوض أمره إلى الله
أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بالمغرب
الأقصى وهو محمد بن عبد الرحمن وفقه الله أadam الله نصره وزين بالخيرات
عصره، إلى المحب الذي حل من مراتب الرياسة أسنهاها، وحاز من خصال
النقدم أقصاها وأدنها، فأصبحت السن الرؤساء لهجة بذكره مفصحة بتسليم
نتائج فكره، ملك المالك الفنساوية السلطان نابليون الثالث بونابارتي، أما
بعد فموجب تحرير هذا المسطور إليكم إعلامكم بما تضمنه الفؤاد من
خالص المحبة وحفظ الوداد، وإننا مسوروون بما يتجدد لدينا كل وقت من
عقد أسبابها وما يظهر كل حين من تشييد أركانها وفتح أبوابها فإن محبتنا
معكم الشخصية زادت على ما كانت عليه في عهد الأسلاف، وذلك لما
جلست عليه من صفاء الطوية وحسن الاتلاف فإن القلوب في الوداد تتضاهى،
وما بني على أصل وثيق كان جديراً بأن يعظم ويتناهي، وبموجب ذلك عينا
للسفارة إليكم خالنا الأرضي الأنجد القائد محمد بن عبد الكريم الشرقي وهو
أحد باشات جيșنا ومن كبراء رجال دولتنا مع ما تشرف به من قرابة الرحمن
لدينا، ومعه خديمنا الأرضي الأمين الحاج محمد بن سعيد قائد سلا وهو
عندنا أيضاً بالمكان المكين لما تخلق به من الأدب والعقل الرصين والغرض
من توجيههما تجديد العهد بكم والحرص على موالة المواصلة معكم لما في
ذلك من تأكيد أسباب المحبة بين الدولتين وتمهيد طريق الخير بين الإيتالتين،
والظن بشيمتكم مقابلتهم بحسن القبول وتبلیغهم في وجهتهم غایة المأمول
جرياً على عادتكم القديمة، وسلوکاً على طريقتكم القوية، وقد حملناهم ما
في خاطرنا من أمور السياسة الجالية لمصالح الجانبيين ما يقررونه لدیکم
ويعرضونه عليکم، في أخبارهم كفاية وأوصيتم بحسن الاستماع لما تلقونه

إليهم والأدب في تلقي ما تعرضونه عليهم كما أثنا نتحقق أنكم لحسن معاملتكم ومزيد محبتكم توصون نوابكم الذين توجهونهم للخدمة ببابالتنا السعيدة بحسن المعاملة والتقصي في ترحيب الصدر والمجاملة، والوقوف عند الشروط والعمل بمقتضاها وال تمام في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة اثنين وثمانين ومائتين وألف اهـ.

واعلم أن هذا الكتاب بديع في بابه غريب في متواله قد اشتمل من التوريات والنكات ومقتضيات الأحوال على ما يشهد لمنشئه بالمعرفة والمهارة والبصيرة والبصرة رحمة الله، وفي شوال من هذه السنة مرض السلطان رحمة الله مرضًا شديداً أشرف منه على الهاك بل أشع المرجفون أنه قد هلك واضطربت أحوال الرعية وعاد أعراب البدية إلى العبيث في الطرقات واستلاب الناس بها من المارة وغيرهم وحاصر عرب عامر مدينة سلا وعاثوا في جناتها ومنعوا الداخل إليها والخارج منها وغلقت الأبواب واستمر ذلك إلى عيد الأضحى، ثم ورد الخبر اليقين ببابال السلطان وإفاته من علته وكانت علته الداء المعروف بالخوانق بلغ به إلى حد اليأس والإشراف ثم تدارك الله المسلمين بلطفه ومن على إمامهم بعافيته فأعملت المفرحت والولائم في جميع الأمصار.

قال أبو عبد الله أكتسوس ما ملخصه: لما أفاق السلطان رحمة الله من علته هذه كتب حجاب الحضرة وزراؤها لابنه الخليفة المنتصر بالله أبي علي المولى حسن بن محمد يهنتونه بعافية السلطان فأمر هذا الخليفة أعزه الله بخروج المدافع والأنفاس حتى اهتزت الجبال، ثم دعا أいで الله الناس الدعوة الحفلا فلم يختلف ممن كان بمراکش أحد من العلاء فأمر أいで الله بتهيئة جنان رضوان ففتحت أبوابه وفرشت قصوره وقبابه وفجرت أنهاره حتى تفتقت أزهاره، وحضر وجوه الدولة وأعيانها ورؤساء القبائل وأقیالها، وكان ذلك بأثر عيد الأضحى قبل انفصال وفود العيد عن الحضرة، ثم اندفع عليهم من الدار المولوية من سيول موائد الطعام الفاخر ما عم الأول منهم والآخر هذا للعامة المطلقة والأوزاع الملفقة، وأما الخواص والوجوه

فلهم الحظ الأوفر من العناية، والخطاب بصريح الترحيب دون كنایة بالقعود على الفرش الحريرية المذهبة، والمقاعد العالية المطنبة، والرشن بمياه الأزهار ومبادر الطيب وكل معنى لطيف ومنظر عجيب، وقد أحضر كل واحد ما شاء من آلات اللهو والفرح على حسب ما اشتته واقتصر، فلا تكاد تسمع في تلك المجالس والمغاني إلا أصوات المثالث والمثاني وضروب الألحان والأغانى، واستمر الناس في ذلك ثلاثة أيام والمولى الخليفة أعزه الله مع إخوته وبني عمه في القبة المحمدية الصويرية المشرفة على مجاري الخيل وملاعبها ومطاردها ومتاعبها، وكل عشية يركب من بالحضرمة من الوجوه والأكابر على عنق الخيل والجیاد الضوام ويندبى ما عنده من الثقافة والفنونية مع إظهار الشارة المخزنية والأبهة الملوكية ثم بعد هذا شرع كبار الدولة ورؤساؤها وقوادها في انتخاب الصنائع والولائم كل على حسب ما أداء إليه اختياره واعتناؤه، ثم تتبع الناس في نزهاتهم وإظهار أنوثتهم وانتخاب دواعي الأفراح، ومقتضيات الازدهار والانشراح فما يمر أحد بيستان إلا ويجد به جماعة زاهية وطائفة منبسطة لاهية اهـ.

وفي سنة ثلاط وثمانين ومائتين وألف كان بالمغرب جراد سد الأفق وذلك في ربى الأول الموافق لشهر مارس العجمي فأكل النجم والشجر ثم عقبه فرخه المعروف بأمرد فأكل كل خضراء على وجه الأرض واستلبت الأعواد من أوراقها وقشرها من لحائها وفاض في الأمصار حتى دخل على الناس في بيوتهم .

وفي سنة أربع وثمانين ومائتين وألف كان الغلاء المفرط بالمغرب الذي لم يتقدم مثله بلغ فيه الرياح وهو ربى ثمن المد بسلا ورباط الفتح ستين أوقية وباع الناس أناثهم وحلبهم بالبخس وكان الأمر شديداً على الضعفاء وفي ذي القعدة من هذه السنة توفي القائد الأجل أبو محمد عبد الله بن عبد الملك بن بيهى الحاجى وكان من كبار قواد المغرب وأهل البذل والإيثار والمعرف له في ذلك أخبار مذكورة رحمه الله .

وفي سنة خمس وثمانين ومائتين وألف كان الوباء بال المغرب بالقيء والإسهال المفرطين على نحو ما وصفناه في السنين الماضية. وفي زوال يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة توفي قاضي سلا الفقيه العلامة الورع أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد بن منصور ودفن بالجبانة المتصلة بضريح الشيخ أبي العباس بن عاشر رضي الله عنه، وكانت لهذا القاضي سيرة حسنة وعدل في الأحكام وتأن فيها مع سمت ومرودة وانقباض رحمه الله، وبقيت سلا بلا قاض أربعين يوماً حتى وقع اختيار السلطان على شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدى أبي بكر ابن الفقيه العلامة القاضي سيدى محمد عواد رحم الله الجميع.

وفي هذه السنة أمر السلطان رحمة الله بضرب الدرهم الشرعي وحاول ضبط السكة به وحمل الناس على أن لا يذكروا في معاملاتهم وأنكحthem وسائل عقودهم إلا الدرهم الشرعي وشدد في ذلك وكتب فيه إلى ولاة الأمصار يقول في كتابه ما نصه: وبعد فإن أمر السكة من الأمور الواجبة المتعين رد البال إليها والاهتمام بشأنها والنظر فيما يصدر بسببيها من النفع والضرر للمسلمين وبيت مالهم، وقد كان أسلافنا رحمهم الله اعتنوا كثيراً بشأنها وبضبط مصالحها ودفع مفاسدها وجعلوها على قدر شرعى معلوم لضبط أمرها والتبرك بتلك النسبة إذ بذلك يعلم المسلم علم يقين كمال النصاب عنده فتجب عليه فيه الزكاة التي هي من دعائم الإسلام أو عدم كماله فلا يكون مخاطباً في شيء، ولما رأينا ما حدث فيها من التغير وعدم الضبط ونشأ عن ذلك من الضرر للمسلمين وبيت مالهم ما لم يخف على أحد اقتضى نظرنا السديد ردها لأصلها الأصيل الذي أسسه أسلافنا الكرام سنة ثمانين ومائة وألف أذلنا فيهم أسوة حسنة في الإجمال والتفصيل، فرددنا الدرهم الكبير المسلوك على وزن الدرهم الشرعي والمنهاج المرعى كما كان على عهد جدنا سيدى الكبير قدس الله وجدد عليه وابل رحمة بحيث تكون عشرة دراهم منه هي المثقال كما هو معلوم، إن عشرة دراهم من الدرهم التي كانت تروج قبل على عهد أسلافنا رحمهم الله هي المثقال وبهذا العدد

الذى هو عشرة منه فى المثال تكون جميع المعاملات والمخالطات فى البيع والابتاع وغيرهما بين جميع رعيتنا السعيدة فى كل البوادي والمحاضر وبه أمرنا جميع العمال، ومن هو مكلف بعمل من الأعمال، وإشاعته ليبلغ الشاهد الغائب وبه يقبل لجانب المال وأمرناهم بالعمل بهذا الأمر الذى أصدرناه وأبرمناه بحول الله وأمضيناه، وأن يعقوبا كل من عثروا عليه ارتكب خلاف ذلك، وبيان يسلكوا به أضيق المسالك جراء وفاقاً على مخالفته وتعليمه الحد وافتياه، نعم ما سلف من المعاملات بجميع أنواعها فيما تقدم قبل تاريخ هذا الكتاب فحكمه حكم ما تقدم في السكة فلا يكلف أحد بزيادة، ومن كان بذمته شيء فيما سلف يؤديه بحساب ما كانت تروج به السكة في الريال والدرهم والعمل بهذا الذى أمرنا به هو من الآن لما يستقبل إن شاء الله، وبهذا يزول الإشكال فيما تقدم بين الناس في المعاملات، ونسأل الله أن يخلص العمل في سبيله ومرضاته ويجاري من فضله وكرمه على قصده وصلاح نياته والسلام، في ثامن شوال عام خمسة وثمانين ومائتين وألف اهـ.

وفي يوم الجمعة السادس عشر من شوال المذكور توفي البركة الخير المستحب سيدى الحاج محمد بن العربي الدلائى الرباطي بالدار البيضاء ودفن يوم الجمعة بالزاوية المنسوبة إليه بها رحمة الله ونفعنا به، وفي هذه السنة كان سوق دار البلاز بباريس من أرض افريقيا وذلك أن الطاغية نابليون الثالث لما بلغ من ضخامة الدولة ونفوذ الكلمة ما قل اتفاقه لغيره من الأجناس حاول أن يتجاوز ذلك إلى أن يجلب إلى رعيته ودار ملكه كل أمر غريب في العالم حتى يجتمع عنده ما افترق عند غيره فكتب إلى ملوك الآفاق يقول: إنه قد عزم على إقامة سوق بباريس في وقت معلوم وطلب منهم أن يبعثوا بتجارهم لحضورها وجلب سلعهم وغرائبهم إليها وقصده بذلك عموم النفع وتعدي الصنائع والحرف من أمة إلى أخرى، فأجاب الملوك داعيه بمقتضى العرف الجاري بين الدول، والعادة المقررة من عهد الملوك الأول، ولم يبق إلا من بعث تجاره ونفائسه وغرائبها من الجليل إلى الحقير، وكان السلطان سيدى محمد رحمة الله قد بعث تاجره الحاج محمد بن العربي القباج الفاسي

المعروف بالفرنساوي وهذا الرجل من العارفين باللسان الفرنجي البصيري المعروفة ذلك الجيل ولذا لقب بالفرنساوي ويُعثث معه السلطان رحمة الله كل شيء غريب مما اختص به قطاع المغرب من سروج مذهبة، ومناطق مزخرفة، وقطائف منمقة، وغير ذلك من الأعلى إلى الأدنى حتى الزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون ترسيمه في محاله وحضر هذا السوق الملوك فمن دونهم من كل إقليم حتى السلطان عبد العزيز العثماني رحمة الله، فكان الحال كما قال أبو الطيب المتنبي:

تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجم
وأقامت عمارتها ثلاثة أشهر ثم انفض الناس إلى بلادهم، ولما بلغ نابليون الثالث إلى هذه الغاية فجئته وقعة البروس التي كسرت من شوكته وقتل من غيره وفيض عليه باليد وحضرت دار ملكه باريس مدة طويلة فبلغ فيها لحم الحمار أربعة ريالات افرنك لكل رطل على ما قيل، ولم تغ عنهم محنة ووقع الصلح على شروط منها ألف مليون من الريال تدفعها دولة افرانسا لدول البروس.

وفي سنة ست وثمانين ومائتين وألف وذلك عشية يوم الخميس الرابع عشر من شعبان منها توفي الوزير أبو عبد الله محمد الطيب بن اليماني المدعو بأبي عشرين وكان سبب وفاته أنه كان به داء الحصر فدخل الميضاة التي بمشور أبي الخصيصات من دار السلطان بحضور مراكش فيقال: إن ثنايته تمزقت فمات رحمة الله وحمل إلى داره وصلى عليه بعد الجمعة بمسجد المواسين وحضر جنازته الجم الغفير ودفن بضريح الشيخ أبي محمد الغزواني من حومة القصور، وكان رحمة الله ذا جد في الأمور ونصح للسلطان وللمسلمين.

وفي سنة سبع وثمانين ومائتين وألف وذلك ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الثاني منها خسف القمر خسوفاً كلياً بعد الغروب إلى نصف الليل، وفي فجر يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى من السنة المذكورة توفي الولي الصالح الناصح السنّي أبو عبد الله محمد الطيب ابن الشيخ الأشهر مولاي

العربي الدرقاوى ودفن بمدخل زاويته بأمجوطة من بلاد بنى زروال، وكان من خيار عباد الله على غاية من التقوى واللورع والتواضع مع الناس، يركب الحمار ويلبس الجبة ولا يتميز عن أصحابه بشيء مع السكينة والوقار وعدم الخوض فيما لا يعني والإعراض عن زهرة الدنيا وأهلها رحمة الله وفعلاً به، وفي التاسع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة انكسفت الشمس وكان ابتداء الكسوف على ما أعطاه التعديل بعد الزوال بنحو نصف ساعة، وكاد يكون كلياً حتى أظلم الجو وبقي من الشمس حلقة نورانية يسيرة ولم يمكن تحقيق وقت التجلی لتراكم السحاب، وفي هذه الأيام ظهرت حمرة في السماء غريبة أرجوانية مع غاية الصحو وكان ظهورها يكون فيما بين العشرين معظمها في جهة الشمال ودامت كذلك نحو سبعة أيام وانقطعت وفي ليلة السبت الثامن من شوال من السنة وذلك في الساعة الثالثة منها زلزلت الأرض ولم يشعر بها كثير من الناس لكونهم نياماً.

وفي سنة تسع وثمانين ومائتين وألف غزا السلطان سيدى محمد رحمة الله قبائل تادلا فمر على السماولة متصرف رجب، ثم منهم لبني زمور، ثم لأبي الجعد، ثم منه توجه لقضبة تادلا وعبر القنطرة ونزل على بني عمير، ثم زحف لبني موسى فأوقع بهم لأنهم كانوا خارجين على عاملهم الغزواني ابن زيدوح فقطع منهم خمسين رأساً وقبض على أربعين مسجونة، وفي أثناء ذلك قدم عليه وفد أهل مراكش وكانت قد ثاروا على عاملهم أحمد بن داود لكونه كان يسير فيهم سيرة غير حميدة فقدموه على السلطان متنصلين مما فرط منهم فأعرض السلطان عنهم ولم يسمع منهم كلاماً ولا قبل لهم عذرًا فرجعوا مخفقين، ثم تقدم السلطان رحمة الله إلى مراكش وهو غضبان على أهلها وكانت مظلومين فيما قيل إلا أنه ليس على السلطان في أمرهم فلما شارف المدينة خرجوا إليه بالعلماء والقراء وصبيان المكاتب متشفعين فلم يقف لهم ولا التفت إليهم، وكان ابنه وخليفة المولى الحسن حاضراً يومئذ فتقدما إلى أهل مراكش ورق لهم وقال لهم قولاً جميلاً، وكان هذا الحادث في رمضان

من السنة المذكورة ثم لم يلبث ابن داود بعد ذلك إلا مدة يسيرة حتى توفي وتخلصت قائلة من قوب، وعفو الله بعد ذلك مرقوب.

وفي سنة تسعين ومائتين وألف كانتجائحة النار بكثير من بلاد المغرب أحرقت الزروع والشمار وأججحت الجنات وتراجع الناس في أيام ما يبع منها بعد إثبات الموجبات، وكانت أيام السلطان سيدي محمد رحمه الله في أولها شديدة بسبب ظهور العدو على المسلمين وما عقبه من الغلاء والموت، ثم بعد ذلك اتسع الحال وحصل الأمن وانخفضت شوكة قبائل العرب بالغرب وأمنت الطرقات من عيشهم وازدهرت الدنيا ورخصت الأسعار رخصاً يسيراً وكان الناس معيشين في أيامه وغلت الدور والأملاك حتى كانت في بعض السنتين لا تسمسر ومن يشتري داراً إنما يشتريها بالتقير عنها والطلب من ربها بالشمن الجافي، واتخذ الناس ذرو اليسار المراكب الفارهة والكسبي الرفيعة والذخائر النفيسة، وتألقوا في البستان بالزليج والرخام والنقش البديع لا سيما بفاس ورباط الفتح، ولاحت على الناس سمة الحضارة الأعممية، وكان للسلطان سيدي محمد رحمه الله في كل بلد عيون يكتبون له بما يقع من الولاة فمن دونهم، فكانت الرعية كأنها في كف يده، وكان يختار أولئك العيون من العوام فكانوا يكتبون له بالغث والسممين فيسمع ذلك كله فيتنقي منه الصحيح ويطرح السقيم فاستقامت أحوال الرعية بذلك.

وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله

كانت وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله في زوال يوم الخميس الثامن عشر من رجب الفرد الحرام سنة تسعين ومائتين وألف بداره بحضورة مراكبش في البستان المسمى بالنيل ولم يمرض إلا يوماً أو بعض يوم قبل إنه شرب دواء مسهلاً فكان فيه أجله والله أعلم، ودفن ليلاً بضریح جده المولى علي الشريف قرب ضریح القاضي عیاض، وكتب على رخامة قبره أبيات ليست من جيد الشعر وهي:

ضریح سعید حل فیه سعید
امام له فی الملک سعی حمید
فقد کان یبیدی فی العلی ویعید
فعقد نفیس قد اصیب فرید
بشعرک أرخ ما علیه مزید
أمستعبراً حولی رویدک إنني
هو العلوی الهاشمي محمد
أبوه أبو زيد وقدس ذكره
ترحم عليه واعتبر بمحاباه
ومن رام تاريخ الوفاة فقل له

بقية أخبار السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمة الله ومارثة وسيرته

كان السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمة الله متقياً لله تعالى بانياً أمره على الشرع لا يشد عنه طرفة عين حتى أنه لما عزم على بناء داره التي برباط الفتح قام جماعة من أهل البلد يطلبون منه النصفة في جناتهم التي هنالك فأذعن رحمة الله لإنعام الشرع معهم واستتاب وكيلًا عنه واستتابوا هم وكيلهم أيضاً وتحاكموا لدى قاضي سلا الفقيه أبي عبد الله محمد العربي بن أحمد بن منصور، ثم انفصلت القضية عن ضرب من الصلح بأن أعطاهم أثمان جناتهم أو بعضها وذهبوا بسلام، وكان رحمة الله حازماً في أمره عالي الهمة راماً بها الغرض الأقصى إلا أن الزمان لم يساعده كل المساعدة فكانت همه أجل من دهره وكان ذا سياسة وسکينة وتأن في الأمور وتبصر بالعواقب كثیر الحیاء بعد الغضب سریح الرضى مشفقاً على الرعية متوقفاً في الدماء لا يزايل خوف الله قلبه رحمة الله ونفعنا به وبآلافه، وله آثار بال المغرب منها ما خلده أيام خلافته في حياة والده ومنها ما فعله بعد ولادته.

فمن آثاره في أيام أبيه كما قال أكنوسوس: إجراء الأنهر وتفجير العيون التي عجز الملوك المتقدمون عنها، وتكملة غرس آجدال بحضورة مراكش وكان في زمان الصيف يناله الجدب من قلة الماء لأن بركه التي كان يخترن بها الماء كانت قد تعطلت بامتلاتها بالتراب والطين الذي

تجلبه السيل إليها وأعظمها البركة الكبرى التي بدار الهناء، وكان يقال لها: البحر الأصغر، وطولها اثنتا عشرة مائة قدم، وعرضها تسعمائة قدم حسبما أخبر من قاسها، وكان تربيعها بمنزلة سور قصبة فجاء منبني في وسطها قرية بدورها وأزقتها وأسواقها، فجاء السلطان سيدى محمد رحمة الله أيام خلافته فأمر بإخراج ما في تلك البرك والصهاريج كلها وتنقيتها من الطيور المتحجرة فاجتمع على ذلك عالم من الناس فكتنسوها وعادت إلى حالها الذي بنيت لأجله وهو اختزان الماء لوقت المصيف وبذلك كمل المراد من آجدال وصار آمناً من العطش والأمحال، ومن ذلك أيضاً إحياء عين أبي عكاز خارج باب الطبول من مراكش وكانت لها بركة بائدة على الوصف الذي ذكرنا فعمد إليها سيدى محمد رحمة الله وفجر لها عيناً ثرة وماء غدقأ وأجراء إلى البركة المذكورة بعد أن أمر بتنقيتها وإصلاحها فعاد ذلك البسيط الذي حولها مزارع نفاعة تغنى الزارعين وتبهج الناظرين، وبنى رحمة الله حولها قلعة يأوي إليها الأكراة والحراثون بأنعامهم ومواشيهم، واتخذ هنالك من إناث الخيل المعدة للنجاج عدداً كثيراً، ومن ذلك إحياء عين المنارة وبركتها العظمى التي تقرب من البحر الأصغر بدار الهناء وكانت قد عطلت منذ زمان فقيض الله لها هذا السلطان فجمع الأيدي عليها حتى أخرج ما في جوفها من جبال الطين وأصلح ما نشعت من خيطانها وأجرى إليها العيون والأنهار وأمر بغرس ما حولها من الفضاء بأنواع الأشجار وضاهى بها جنة آجدال، ومن ذلك أيضاً إجراء النهر المسمى بتاركي المستمد من وادي نفيس فإنه ضاهى به النهر القديم الذي هناك وهذا النهر الجديد أتفع منه وأوسع أحبي الله به تلك البساتين التي بين مراكش ووادي نفيس، ومن ذلك أيضاً إجراء النهر الذي جلبه من تاساوتس إلى البسيط الذي بين بلاد زمان والرحمانية والسراغنة وهو المسمى بفيطبوط فصار ذلك كله رياضاً مخضرة، وبساتين

ذات أزهار مفترة، و بنى رحمة الله فيها قصبة عامرة يأوي إليها الوكلاء وال فلاجون و صارت آهلة عامرة بعد أن كانت بائدة غامرة.

و من آثاره بعد ولادته أمر المؤمنين داره الكبير بأجدال رباط الفتح وال سور الكبير المحيط ببساطها، و جلب الماء إليها بعد أن صير عليها أمواياً كثيرة، وأحيى جامع السنة قربها وكان بائداً يعيش فيه الصدى واليوم وأقام فيه الصلوات الخمس والخطبة كل جمعة، وأحيا المسجد الصغير هنالك المسمى بمسجد أهل فاس واعتنى به وزخرف سقوفه و انتهجه الطريق من الدار المذكورة إلى الوادي أسفل من حسان تسهيلاً على المارة وتقريراً عليهم، ومنها أنه نقل طاففة من الجيش السوسي الذي بالمنشية وأوطنه حول الدار الناحية وهم الآن بهذا الحال، و منها بالدار البيضاء المسجد الجامع بالسوق وكان الصاثر عليه من أحباب المسجد القديم وإنما السلطان رحمة الله أذن في بنائه بإشارة عاملها يومئذ أبي عبد الله محمد بن إدريس الجرازي، و منها الحمام القديم الذي بها وكان الصاثر عليه من بيت المال، وأصلاح رحمة الله أسوار الجديدة وأبراجها واعتنى بشأن التغور وبعث من نوابه من يتقدّد أحوالها، و منها بمراكب دار (فابريكة) السكر بأجدال منها صير عليها أمواياً طائلة وجاءت على عمل متقن وهيئة ضخمة إلا أنها اليوم معطلة لقلة المادة، و منها دار (فابريكة) تزدجع البارود بالمحل المعروف بالسجينية من مراكش أيضاً، ومن ذلك برج الفتار الذي على ساحل البحر بأشقار قرب طنجة يسرج فيه ضوء كثير يظهر للسيارة في البحر ليلاً من مسافة بعيدة و صير عليه مالاً له بال وكانت المراكب تنشب بذلك الساحل كثيراً إذ لم يكن لها عالمة تهتدي بها في البحر، ولما اتخد السلطان رحمة الله هذا الفتار أمنت من تلك الآفة، وله رحمة الله آثار كثيرة يطول ذكرها جعلها الله في ميزان حسناته ورفع بها في عليين درجاته.

الخبر عن دولة ملك الزمن أمير المؤمنين المولى حسن بن محمد بن عبد الرحمن خلد الله ملكه

لما توفي السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمة الله اجتمع أهل الحفل والعقد من كبار الدولة وقادة الجيش والقضاة والعلماء والأشراف وأعيان مراكش وأحوازها على بيعة نجله أمير المؤمنين المولى أبي علي حسن بن محمد لما توفر فيه من شروط الإمامة، وتتكامل فيه من النجدة والشهامة والزعامة، ولما اتصف به من الفضل والدين وسائر خصال الخير وأسباب اليقين، ولأن والده رحمة الله كان استخلفه في حياته وألقى عليه بجميع مهماته، فنهض بأعبائها وتقلب من مغانى السعادة في ظلالها وأفياها.

قال أبو عبد الله أكتنوس : لما استخلف المولى الحسن حفظه الله لم تشغله شؤون الخلافة المترادفة آناء الليل وأطراف النهار، ولا في قصورة السلطانية من الحدائق والأزهار، عن وظائف الدين وأسباب اليقين من نوافل الخير من صلاة وصيام وتلاوة، كما حدثني بذلك بعض بطائنه وأنه يجد لها في خلواته لذة وحلاؤه، فلما توفي السلطان كما قلنا كان المولى حسن أيده الله غائباً عن الحضرة بأبي ريقى من بلاد حاجة فكتب إليه رؤساء الدولة بما حدث من موت السلطان واجتماع الناس على بيعته فقدم مراكش في السابع والعشرين من رجب سنة تسعين ومائتين وألف، ولما دنا منها خرج للقاء الوزراء والقضاة والأشراف والأعيان وسائر أهل مراكش برجالهم ونسائهم وصبيانهم فملؤوا تلك البطاح وضاقت بهم الأرض وأخذوا يعزونه ويهنؤنه وهو أيده الله يقف لكل جماعة منهم عل حدتها حتى النساء والصبيان إشفاقاً عليهم وتطيباً لنفسهم، وكان يوم دخوله لحضرمة مراكش يوماً مشهوداً وموسمأً من مواسم الخيرات معدوداً، ولما استقر بدار الملك قدمت عليه الوفود من جميع الأنصار ونسروا إليه من سائر التواحي والأقطار، وكل وفد يأتي ببيعته وهديته، واغتبط الناس بولايته وتيمنوا بطلعته، فقابل أيده الله كلأ

بما يستحقه من الإكرام وأفاض على الرعية جلائل الإنعام، وشرع في تجهيز الجيوش وفتح بيوت الأموال فغمر الناس بالعطاء وكسا وأركب، ونهض من مراكش يوم الاثنين رابع رمضان من السنة المذكورة قاصداً حضرة فاس والوقوف على الرعاية والنظر فيها بما يصلحها فمر على بلاد السراغنة وخرج منها إلى البروج ومنها إلى كيسر من بلاد تامسنا فاتصل به هنالك خبر فتنة أهل فاس وإيقاعهم بالأمين الحاج محمد بن المدنی بنیس، وكان السبب في ذلك على ما قيل أنه لما وصل خبر وفاة السلطان إلى فاس وأن الناس اجتمعوا على بيعة أمير المؤمنين المولى حسن أعزه الله واجتمع أهل فاس لعقد البيعة أيضاً اشترط عامتهم لا سيما الدباغون أن يزال عنهم المكس فيقال إن بعض من أراد جمع الكلمة من العلماء والأعيان تكفل لهم بذلك عن السلطان، ولما تمت البيعة أصبح الأمين بنیس غادياً على عمله من ترتيب وكلائه لقبض الوظيف في الأسواق والأبواب وغيرها فكلمه بعض أعيان فاس في التأخر عن هذا الأمر قليلاً حتى تطمئن النقوص ويثبت الحق في نصبه، وحيثئذ يؤتى الأمر من بابه فأبى وأصر على ما هو بصدده فثار به العامة وهدموا داره وانتهبا أثاثه واستصفوا موجوده وأرادوا قتله فاختفى ببعض الأماكن حتى سكنت الهيئة ثم تسرب إلى حرم المولى إدريس رضي الله عنه فأقام به وأمن على نفسه، وكانت فتنة عظيمة يطول شرحها واتصل بالسلطان وهو بكيسر أيضاً خبر فتنة أهل آزمور وقتلهم لنائب عاملهم وكان عاملهم يومئذ أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي ستة المراكشي ونائبه هو أحمد بن المؤذن الفرجي من سكان آزمور، وكان قتلهم له تاسع عشر رمضان من السنة، ثم أن أهل فاس كتبوا إلى السلطان أعزه الله وهو ببلاد تامسنا رسالة بليغة يتصلون فيها من فعلة بنیس ويرمون بها العامة والغوغا ومن لا خلاق لهم (ونصها):

الحمد لله وحده الكريم الذي لا يتعجل بعقوبة من ارتكب الذنب وتعمدته، والصلة والسلام على سيدنا محمد صاحب الشفاعة الكبير والجاه العظيم، المخاطب بقول مولانا في كتابه الحكيم: «وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ خُلُقَ عَظِيمٍ»

[القلم: 4] وعلى آله الذين أوجب الله لهم مودة وحبأ وأنزل فيهم ﴿فَلَا أَنْتُمْ
عَلَيْهِ أَنْجَرُ إِلَّا الْمَوَدَةُ فِي الْقُرْبَةِ﴾ [الشمرى: 23] وأصحابه الذين كانوا أشداء على
الكافر رحماء بينهم فكانت الملائكة يوم حنين نصرهم وعنهم، هذا،
ونخص المقام الذي علا قدره، واستثار ضوءه وفجره، وجلل الفخار والوقار
وعلاء البهاء وكساه، وألبسه الرسول من رداء الشرف يوم كان علي وفاطمة
والحسنان في داخل كساه، من ارتقى وفاق وساد ومهد به للخلافة المهاجر
والوساد، وتزيين بمداده الطروس العاطلة، وخجلت لسماحته الغivot
الهاطلة، من ضربت المفاخر رواقها بناديه ولم تزل المعالي تدعوه لنفسها
وتناديه، واتخذت بيته جلباباً للأجياد والاعناق وأغضبت مهابته الجفون
والآذاق، عين أعيان الدولة الشريفة المولوية وصدر المملكة العلوية، الذين
لم تزل سيرتهم في سجلات الآثار المحمودة مرسومة، ومائتهم في الدواوين
مرقومة، وألقى إليه هذا القطر المغربي الرسن وحل منه محل الوسن،
السلطان المؤيد مولانا الحسن سلالة القوم الذين زكت نفوسهم وأينعت في
حدائق المزايا غروسيهم، ويسير المجد تحت ألوائهم وتعطر المجالس بطيب
أفنيتهم، لا زال السعد يراوحك ويعاديك، والعز نائماً بواديك، والطعن في
عين حاسديك، والقذى في عين أعاديك، وجعلك الله من صروف الزمان في
أمان، ولا قطع الله عن جماعة العلماء جميل عادتك، ولا سلب المسلمين
ملابس سعادتك، ورفع في بروج السعادة أعلامك ومكن من رقاب الأعداء
حسامك، وجعل الفتح أينما توجهت قبالتك وأمامك، وشريعة جدك مقلدك
وأمامك، في نعمة طويلة الأعمار وروضة حلوة الشمار، أما بعد، أبعد الله عن
ساحة سيدنا كل شر، وقرب منها المحسن والبر، وأبقاها ملجاً للمحتاج
والمضطر، فإنه لما ورد علينا من حضرة سيدنا العظمى ومكانته الشما كتاب
سنى معظم الصفات والأسماء بديع المعانى رائق المباني، غمر ببلاغته البلغا
ورقى ببراعته أعلى المنابر فمن تكلم دونه فقد لغا، بادرناه بانتقبيل وأحلناه
محل الناج والإكيل، فقرى على الجم الغفير وفرح بوروده الكبير والصغير،
واطمأنت بنشره النفوس وارتفع به كل كدر وبوس، وتشوق الحاضرون

لسماع ما فيه، وأنصت لقراءته ذو المروءة والسفية، والجامع غاص بأهله وكل حال بمحله، فلما قرئ الكتاب تبين أن صدره مدح وعجزه لوم وعتاب، فاشتمل على بسط وجمال وقبض وجلال، وجمع بين ترغيب وترهيب فارتاتب منه كل مریب، فلما تم وختم وتقرر كل ما فيه وعلم، تفرقت الجماعات أفواجاً وارتجمت المدينة ارتاجاً، وحصل للناس بذلك الجزع وعمهم الخوف والفزع، والذي أوقع الناس في ذلك ما في الكتاب من الأمر بتدارك ما وقع ففهموا أن ذلك برد ما ضاع، وقد تفرق في الآفاق وما اجتمع، وذلك غير ممكن كما سيتبين والحق أوضح وأبين من أن يبين، على أن المقصود بذلك والمراد حسم مادة الفساد، لينقطع من جماعة السفهاء عداوها، ولثلا تقد نار الفتنة فيتعذر إطفاؤها، أما ما وقع في قضية الحاج محمد بنيس حتى أفضى به الحال إلى الاحترام بمولانا إدريس، وفعل بأمكتنه الفعل الخسيس، ولنيل بسببه المرؤوس والرئيس، حتى توجّهت الحجة على مسموع الكلمات، إذ هي متوجهة من جهات، فقد تندفع الحجة بشرح القضية على وجهها، وإيرادها على مقتنصها من غير قلب للحقيقة، ولا خروج عن متن الطريقة، وفي كريم علم سيدنا أن للإنسان أذاراً يرتفع عنه بها الملام ولا يعاتب معها ولا يلام، وذلك أن ما وقع من النهب وقع بغتة في يوم يستعظم شاهده وصفه ونعته، والمدينة وقتئذ عاصمة بالبادية والحاضرة، ولا معرفة لنا بمن نهب ولا بمن أتى ولا بمن ذهب، أمر أبرزته القدرة لم يمكننا تلافيه ولم يفديه نهي سفيه، فلو صدر ذلك من أحد معينين وأفراد مخصوصين لأمكن الانتصار، وانتزع منهم ما أخذوه من غير اعتراض، لكن الأمر برز وصدر من قوم مختلطين من بدو وحضر، فيهم الأبيض والأسود والأحمر، وما منهم إلا من استأسد وتنمر، وليس في وجوههم من الحياة علامه ولا أثر، لا يقبلون موعظة إذ ليسوا من أهل الفكر، فلا يمكن دفعهم إلا بجيشه عظيم وعسكر يصلاح فيهم بالنهي وهم في طفليانهم يعمهون، ولا يلتفتون إلى من نهاهم بل لا يشعرون، ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرؤن، ثم لما كان اليوم العاشر من شهر تاريخه وقع

بالحرم الإدريسي ما وصلكم، ولا أظنه إلا فضل لكم، لكن عمتنا ألطاف الله ورحماته، وحفظ الضريح ورجاته ولم تنتهك حرماته، وحمته حماته ورماته فأبواه قد فتحت، وزواره بمشاهدة أنواره قد منحت، وما في الكتاب المذكور: أن السفيه إذا لم يته فهو مأمور، ولعمرك أنه ليس منا علم بذلك ولا شعور، وكيف يأمر العاقل بالمحظور؟! أم كيف يرضي مسلم بهتك حرمة الإسلام وأهله وما يوجب افتراق الكلمة من قول أحد أو فعله؟! وقد جاء الوعيد بما يلزم من سكت وحضر، فكيف بمن باشر أو أمر، لكن باب التوبة والحمد لله مفتوح لمن يغدو عليه أو يروح، فنسأله أن يمن عليهم بالتوبة من ارتكاب هذه الحوينة، وقد كتبنا لسيدنا بهذا الكتاب والمدينة بحمد الله آمنة، والنفوس مطمئنة ساكنة، والأيدي على التعدي مكفوفة، والطرق مسلوكة غير مخوفة، وذلك بعد معاناة في إخماد نار الفتنة ونصب، وألطاف الله تward وتصب، بعد أن كانت نار الفتنة توقدت وتراجعت، وبلغت القلوب الحناجر وبالأكذار قد مزجت، وكل من له مروة ودين وعد من المهتدين، بذلك في صلاح المسلمين جهده وأبدى من الفعل الجميل ما عنده، ولقاضينا ببارك الله فيه اليـد الطولـي فلم يقع منه تقصير في القضية الثانية ولا الأولى، هذا، وكما في علمكم أن الملك من ملك هواه ولم يغتر بهذا العرض الفاني وما أغواه، وقهـر نفسه عند الغضـب وابتـكر ما يوصلـه إلى الله واقتـضـبـ، وأنـ الكـريم إذا حـاسـبـ مـسـامـحـ وإذا قـدرـ عـفـاـ، ولو أـبـادـيـ المـسـيءـ إـسـاءـتـهـ وـهـفـاـ، فـلـيـتـفـضـلـ سـيـدـنـاـ بـقـبـولـ شـفـاعـةـ مـنـ يـضعـ اـسـمـهـ فـيـ هـذـاـ الكـتـابـ مـنـ الـعـلـمـاءـ وـالـأـشـرـافـ، وـمـنـهـ بـعـدـ صـوـابـ مـاـ صـدـرـ مـنـ السـفـهـاءـ إـقـرـارـ وـاعـتـرـافـ، وـلاـ يـسـتـغـرـبـ صـدـورـ الـخـيـرـ مـنـ مـعـدـنـهـ وـالـفـضـلـ مـنـ مـوـطـنـهـ، وـتـحـاشـيـ أـخـلـاقـ الـفـاحـرـةـ وـشـيـمـكـ الـطـاهـرـةـ أـنـ تـكـونـ شـفـاعـتـاـ فـيـ هـؤـلـاءـ الـعـصـاةـ مـرـدـوـدـةـ، وـجـمـاعـتـاـ عـنـ سـاحـتـكـمـ بـعـدـ مـطـرـوـدـةـ، وـلـحـسـنـ الـظـنـ بـكـمـ تـحـمـلـ لـجـانـبـكـ الـزـعـيمـ وـالـكـفـيلـ عـلـىـ أـنـ لـاـ نـرـىـ مـنـكـ إـلـاـ الـجـمـيلـ فـلـيـمـنـ سـيـدـنـاـ عـلـىـ هـذـهـ الـحـضـرـةـ الـفـاسـيـةـ مـنـاـ، وـلـاـ يـؤـاخـذـنـاـ بـمـاـ فـعـلـ السـفـهـاءـ مـنـاـ، وـكـيـفـ وـالـحـلـمـ مـنـ دـارـكـ بـرـزـ وـخـرـجـ، وـفـيـ أـوـصـافـكـ الـحـسـانـ اـنـدـرـاجـ، فـلـاحـبـنـاـ أـنـ تـكـونـ هـذـهـ

المنقبة في أوصافكم تذكر، وفي صحيفتكم تكتب وتسطر فقابلوا بالصفح والإغضا عما سلف ومضى، وكلنا من رعيتكم ومقطوفون من ثمار روضتكم، ومستمدون من مائتكم، والظن الأقوى بكم أنكم تقبلون الشفاعة منا، وتمنون على المستضعفين من رعيتكم، وكأننا بكتابكم بضم ذلك يتلى، وكلماته أشهر من العسل وأحلى، والله يتولى أمر الاختلاف بمتعود إحسانه، ويجمع قلوبنا على طاعته ومبنيات رضوانه حتى تكون في ذات الله إخواناً، وعلى الدين أنصاراً وأعواناً، والقلوب بيد من له الأمر والاختيار وربك يخلق ما يشاء ويختار، وإذا تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للأبرار، وخير العمل قرب إلى الجنة وأبعد من النار، فالواجب على كل مسلم أن يدع ما يزري بالإسلام وبهينه، ولا يلتفت لداعي القطيعة فإنها تقوى الكفر وتعينه، أما علمنا أن من ورائنا عدواً يشتته مواطئ أقدامنا، وتنكيس أعلامنا، تقضي أخوة الإسلام ومناصرته ومعاضدته ومواصلته أن لا يكون لجميعنا طموح إلا إليه، ولا تمالئ إلا عليه، وفقنا الله لما فيه رضاه وجعل سعينا فيما يحبه ويرضاه أمين والسلام في متتصف رمضان المعظم عام تسعين ومائتين وألف اهـ.

ثم دخل السلطان المولى الحسن أعزه الله رباط الفتح صبيحة يوم الخميس التاسع والعشرين من رمضان المذكور، وكان العيد يوم السبت فأقام السلطان أيده الله سنة العيد برباط الفتح وختم به صحيح الإمام البخاري على العادة، وكان فقيه المجلس ومدرسه يومئذ الفقيه العلامة السيد المهدى بن الطالب ابن سودة الفاسي، وحضر ذلك المجلس وفود المغرب وقضاة العدويتين وعلماؤها، وحضرنا في جملتهم ومدح السلطان بقصائد بلية، واحتفل أعزه الله لهذا الختم بأنواع الأطعمة والأشربة والطيب وفرق الأموال على من حضر، ثم وصل أهل العدويتين من علمائهم وقرائهم ومؤذنيهم وطبعيتها وبحربيتها على العادة، وهناك قدم عليه أهل آزمور متصلين مما صدر من عامتهم في حق محمد بن المؤذن فقابلهم بالبشر والصفح إلى أن بحث عن رؤوس الفتنة بعد ذلك فعاملهم بما يستحقونه، وأقام السلطان أعزه

الله برباط الفتح إلى يوم السبت الثاني والعشرين من شوال من السنة، فنهوض فاقداً مكتنasaة فعبر المجاز ومعه من جنود الدولة وعساكر القبائل ما يجعل عن الحصر، وكان نهوضه عن إزعاج بسبب ما اتصل به من خبر المولى عبد الكبير بن عبد الرحمن بن سليمان ولد الذي كان ثار لأول بيعة السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن فسلك هذا الولد مسلك أبيه وأطعمه شيئاً من البرير في الملك حتى أوردوه مورد الردى وحان، وسقط العشي به على سرحان، ولما كان السلطان أعزه الله ببلادبني حسن بلغه خبر القبض عليه فكتب كتاباً إلى الأمصار يقول فيه ما نصه: وبعد، فإن عبد الكبير بن عبد الرحمن الذي سولت له نفسه ما سولت من الرأي المنكوس، والحظ المعكوس، كان تحزب بشياطين وأوبياش من برابرةبني أمكليد وأنوا به لآيت عياش، قرب فاس، فلما سمع بذلك خدامنا أهل فاس وأخواتنا شرقة وغيرهم من الجيش السوسي وقبائل الصلاح قاموا على ساق في طرده وإبعاده، ونفيه من ساحتهم وتشتيت رماده، وقابلوه بالنكبة والوبال، ورأى منهم ما لم يخطر له ببال، ورجع بخفى حنين، ثم بعد الطرد والإبعاد لم يبال بما هو عليه من سوء الحال، ولا أفلح عما طمع فيه من المحال، ولا انتبه من نومته ولا أفق من سكرته، وبقي على دورانه عند البرير إلى أن ختم مطافه بالوصول لآيت يوسي فحكم الله فيه هنالك وأنى به مقيضاً عليه وذهبت ريحه، وسقط في أيدي من كان آواه من البرير وحصلوا كلهم على الخسران والخزي والخذلان، وها الفتان متوقف تحت يد أخيينا الأرضي مولاي إسماعيل رعاة الله، فالحمد لله حق حمده ولا نعمة إلا من عنده، وهو المسؤول بنبيه ﷺ ومجد وعظم أن يؤدي عنا وعن المسلمين شكر نعمته، وأن يجزينا على ما عودنا من جزيل فضله ومتنه، هذا، وقد كتبنا لكم هذا بعد ما خيمنا بحول الله ببلاد الصفاعة من بني حسن ومحلتنا المظفرة بالله محفوفة بالنصر والعز بحمد الله، وأعلامنا المنصورة بالله رياح اليمن والسعادة تسوقها، والأرباح تكفل بها سوقها، وقد أعلمناكم لتأخذوا حظكم من الفرج بما خول مولانا جل وعلا من عظيم نعمه فللله الحمد ولله الملة

والسلام في السادس والعشرين من شوال عام تسعين ومائتين وألف اهـ. ثم تقدم السلطان أعزه الله إلى دار ابن العامری فأوقع بأولاد يحيى فرقة منبني حسن وكانوا قد ثاروا بعامتهم عبد القادر بن أحمد المحروقی فهدموا داره وانتهبوها، وعاشروها في الطرقات وأخافوها، فأوقع بهم السلطان المولى الحسن أعزه الله وقعة كادت تستأصلهم وتتأي عليهم فتشفعوا إليه وتظارحوا عليه وأظهروا التوبه والخضوع فقبل توبتهم وولى عليهم ثلاثة عمال، ووظف عليهم مالاً له بالـ، ونهض أعزه الله إلى مكناسة الزيتون في سبع ذي القعدة من السنة فدخلها مظفراً منصوراً، ولما احتل بها كتب أيده الله إلى الأمصار بما نصه: وبعد فأنـ يا شـ الفـ رـ منـ أمرـ القـ الـ الـ يـ وـ بـ إـ اـ علىـ أـ اـ اـ الـ جـ بـ حـوـلـ اللـ وـ حـصـوـلـ الـ مـرـادـ منـ كـمـالـ اـسـتـقـامـتـهاـ بـ حـمـدـ اللـ وـ جـهـنـ الـ وـجـهـةـ السـعـيـدةـ لـوـطـنـ أـسـلـافـنـ الـكـرـامـ قـدـسـهـمـ اللـ بـمـكـنـاسـةـ الـزـيـتوـنـ وـتـقـدـمـنـاـ فـيـ مـحـلـنـاـ السـعـيـدةـ الـمـنـصـورـةـ الـتـيـ أـرـخـيـ الـيـمـنـ وـ الـظـفـرـ عـلـيـهـ سـتـورـهـ،ـ فـلـقـيـنـاـ فـيـ طـرـيقـنـاـ أـهـلـ هـذـاـ الـقـطـرـ الـمـغـرـبـيـ مـنـ الـبـرـابـرـةـ وـغـيـرـهـمـ عـلـىـ اـخـتـلـافـ شـعـوبـهـمـ وـقـبـائـلـهـمـ مـظـهـرـيـنـ غـايـةـ الـفـرـحـ بـمـقـدـمـنـاـ وـمـتـبـرـكـيـنـ بـيـمـنـ طـلـعـتـنـاـ وـقـائـمـيـنـ بـالـسـمـعـ وـالـطـاعـةـ لـعـلـيـ جـانـبـنـاـ وـحـلـلـنـاـ حـضـرـتـنـاـ السـعـيـدةـ بـمـكـنـاسـةـ الـزـيـتوـنـ فـيـ يـوـمـ كـانـ مـنـ الـأـيـامـ السـعـيـدةـ الـمـشـهـودـةـ،ـ وـالـأـوـاقـاتـ الـمـعـدـودـةـ،ـ بـلـ فـاـقـ ذـلـكـ الـيـوـمـ السـعـيـدـ بـمـاـ وـقـعـ فـيـهـ مـنـ السـرـورـ كـلـ مـوـسـمـ وـعـيـدـ،ـ فـالـحـمـدـ اللـ عـلـىـ مـاـ خـوـلـ وـأـوـلـىـ مـنـ فـضـلـهـ الـعـيـمـ وـخـيـرـهـ الـجـسـيمـ،ـ وـهـوـ الـمـسـؤـلـ بـنـبـيـهـ ﷺـ وـمـجـدـ وـعـظـمـ أـنـ يـؤـديـ عـنـاـ وـعـنـ الـمـسـلـمـيـنـ شـكـرـ نـعـمـتـهـ:ـ وـأـنـ يـجـرـيـنـاـ عـلـىـ مـاـ عـوـدـنـاـ مـنـ جـزـيلـ فـضـلـهـ وـمـتـهـ آـمـيـنـ وـالـسـلـامـ،ـ فـيـ الـعـشـرـيـنـ مـنـ ذـيـ الـقـعـدـةـ الـحـرـامـ عـامـ تـسـعـيـنـ وـمـائـيـنـ وـأـلـفـ اـهــ.

وكان دخوله أعزه الله إلى مكناسة بعد زيارته تربة المولى ادريس الأكبر وصلاته الجمعة بها، وأطال أيده الله المقام بمكناسة وفي مدة مقامه بها أوقع بنبي مطير ومن لافهم من مجاط وبني مكييلد وأيت يوسي وغيرهم بعد أن طال قتاله لهم ثم افتحم عليهم معاقلهم وانتهى إلى الموضع المعروف بالحاجب ببحيرة قرارهم ومحل منعهم وانتصارهم، بل تجاوزته عساكره

المنصورة وأعلامه المنشورة بمسافة بعيدة إلى أن دخلت فم الخنيق الذي هو أول بنى مكيلد فاستباحت هنالك حلاتهم، وطارت برؤوس عنائهم ومزقتهم في أعز مكانهم كل ممزق، وقبضت منهم على عدد واخر من الأسرى بعث به السلطان أعزه الله إلى الأمصار، فكانت عبرة لأولي الأبصار، وكان إيقاعه بهني مطير منتصف محرم فاتح سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف واستمر مقىماً بمكناسة إلى فاتح ربيع الأول منها، وفي يوم الاثنين ثالث الشهر المذكور نهض أيده الله إلى فاس فدخلها يوم الخميس السادس منه بعد ما تلقاه أشرافها وأعلامها وأعيانها وجميع رماتها حتى النساء والصبيان مع العامل والقاضي، واجتمعت به مقدمتهم بوادي النجاة فألان جانبه لهم وتنزل لملاقاتهم تطيباً لنفسهم، ولما وصل إلى البلد لم يعرج على شيء دون قصد ضريح المولى إدريس رضي الله عنه وزيارة والتبرك به، وانهار عليه الضعفاء والنساء والصبيان يقبلون أطراfe ويتمسحون بأذيه، وقدم الذبائح للحرم الإدريسي وغيره وأفاض من العطايا على الضعفاء والمساكين ما جاور الحصر وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، وموسمًا من مواسم الخيرات معدوداً وعيد بفاس عيد المولد الكريم وقدمت عليه الوفود من كل ناحية، واجتمعت ببابه وجوه القبائل من كل قاصية ودانية، وازداد العصر وعم الفتح والنصر واستقامت الأمور ونادي السرور في الخاص والجمهور، ولما فرغ السلطان أعزه الله من شأن العيد أمر أمينة أبي العباس أحمد بن محمد ابن شقرن المراكشي أن يرتب الوظيف المجعل على أبواب فاس وأسواقها على ما كان عليه في حياة السلطان سيدى محمد رحمة الله ففعل وكان ذلك أوآخر الشهر المذكور، ولما جلست الأمانة كلّ بمحله واستقامت الأحوال وذهبت الأحوال ثقل ذلك على الدbagين ومرضوا فيه وذهبوا إلى الشريـف الفقيـه المولى عبد الملك الضـير وقالـوا له: أنتـ الذيـ أـوقـعتـناـ فيـ هـذـاـ كـلـهـ بـضمـانـكـ إـسـقـاطـ المـكـسـ أـولاـ حتـىـ صـدرـ منـاـ فـيـ حقـ بـنيـسـ ماـ صـدرـ،ـ وـالـآنـ أـخـرجـناـ مـاـ أـوـقـعـتـناـ فـيـهـ أـمـاـ يـاسـقـاطـ المـكـسـ وـأـمـاـ يـاخـرـاجـ بـنيـسـ مـنـ بـيـنـ أـظـهـرـنـاـ لـثـلـاـ تـدـولـ لـهـ دـوـلـةـ عـلـيـنـاـ وـرـجـلـ قـدـ صـارـ عـدـواـ لـنـاـ،ـ فـقـامـ الفـقـيـهـ المـذـكـورـ وـقـدـ عـلـىـ السـلـطـانـ

أعزه الله وذكر له ما عزم عليه السفلة من الدباغين فأعرض السلطان أيده الله عن ذلك وقابل بالجميل، فقال الفقيه المذكور: إن لم يكن شيء مما ذكرت ليبيتنا فالأولى بي أن أنتقل إلى تافيلالت ولا أبقى بين أظهر هؤلاء القوم فأسعفه السلطان وبعث جملة من الحمارين لحمله وحمل أولاده، ولما رأى الدباغون ذلك نفخ الشيطان فيهم وعمدوا إلى الحمارين فطردوهم وارتجمت فاس وماجت الأسواق وقامت الفتنة على ساق واتصل الخبر بالسلطان أيده الله فاستدعي عامل فاس إدريس بن عبد الرحمن السراج وكان متهمًا بالخوض في وقعة بنيس وما ترتب عليها بعد فأظهر الطاعة والامتثال وركب بغلته يريد القدوم على السلطان بفاس الجديد فقام الدباغون دونه ومنعوه من الذهاب إلى السلطان وتهددوه بالقتل إن فعل، فقد وقع ذلك منه الموقع لأنه كان متخفقاً عن نفسه، ولما رأى السلطان أيده الله تمادي هؤلاء الطعام ومحكمهم ولجاجهم بعد أن بالغ في الإناء الجانب وال مقابلة بالجميل ومن ذلك إعراضه أعزه الله عن الكلام في أمر بنيس أمر بحصارهم والتضييق عليهم لعلهم يرجعون، ثم لم يكفهم عصيانهم حتى صعدوا على منار المدرسة العثمانية وعلى غيرها مما هو مطل على فاس الجديد وأخذوا في الرمي بالرصاص حتى أصابوا بعض من كان بأبي الجلود، ولما انتهوا من سوء الأدب إلى هذه الغاية أمر السلطان أيده الله بمقابلتهم على قدر جرمتهم فطافت بهم العساكر ورمواهم بالكور من كل ناحية ثم اقتحمت طائفة من العسكري سور فاس من جهة الطالعة وأخذوا في النهب والقتل وعظم الخطب واشتد الكرب، وفي أثناء ذلك بعث السلطان أعزه الله وزيره أبي عبد الله الصفار يعظهم ويعرض عليهم الأمان بشرط التوبة والرجوع إلى الطاعة فأذعنوا وامثلوا وانطفأت نار الفتنة، وانحسمت أسباب المحن، فعجل السلطان أيده الله بالكتابة لجميع الآفاق وتلطف واعتذر بأنهم الذين بدؤوا بالحرب والبادي أظلم ومع ذلك فبمجرد ما أذعنوا إلى الطاعة كف عنهم رحمة لهم وإبقاء عليهم وكان هذا الحادث يوم الثلاثاء رابع ربيع الثاني من السنة.

ونص كتاب السلطان أعزه الله: وبعد، فبعد ما كتبنا لكم في شأن ما تلقانا به أهل فاس من الفرح والسرور والاحتفال في جميع الأمور، اختبرناهم وبلغونا أحوالهم فألفينا أحوالهم تصدق أقوالهم، فأمرناهم حينئذ برد المستفادات لحالها المعتمد كما فعلنا بمكناة وغيرها من البلاد، فامتثلوا طائعين وجدوا في دفعها مسارعين، ومن جملة من أمثنا عليهما ابن شقرور المراكشي الأمين فلم نشعر بالدباغين أصحاب فعلة بنيس إلا وقد ملئوا رباعاً وتخوفوا أن يركبوا في المؤاخذة بها مركباً صعباً، فطلبو إخراج بنيس من بين أظهرهم وإبعاده، وهو حينئذ عند السمع والطاعة المعتمدة، فلم نساعدهم فازدادوا تخوفاً وظهر منهم طيش أبان منهم تشوشأً وتشوفاً، فتصدّينا بحول الله وقوته لتربيتهم وتأتينا كل التأني في مفاجأتهم، وأحجمنا حياء من معاجلتهم تأدباً مع حرمهم الأكبر سيدنا ومولانا إدريس الأزهري، ومراعاة لجماعة أهل الله الأحياء والنائمة، وإعذاراً وإنذاراً لتكون الحجة عليهم شرعاً وطبعاً قائمة، حتى ابتدؤونا وكسرروا الحرم فقابلناهم والبادي أظلم، فما كان إلا كلام البصر أو هو أقرب حتى ظهر نصر الله فهدمت دور وصومع، وخرت فنادق ومصانع كانوا يضربون منها ويترسون بها، ونهبت حوانيت دور واستلبت أيدي الجيش أقواماً منهم وأسرت أسرى وأخذوا نكالاً للأخرة والأولى، لكننا بمجرد ظهور سطوة الله القاهرة فيهم والفتح أمرنا بالنداء في الحين بالعفو والصفح، وكف أيدي القتل والأسر عنهم إبقاء عليهم وشفقة لهم حتى يظهر مآل أمرهم، ويصفوا كدر غمّرهم، وفي عصر ذلك اليوم ورد العلماء والشرافاء والرؤساء والعرفاء ضارعين صارخين شفعاء على شرط أداء الحقوق والتزام الشروط والبقاء على ما كانوا عليه قيد حياة مولانا المقدس من اللوازم والمغارم فشقعنهم على الشروط المذكورة، وقبلناهم على التزام الحدود المحصورة، وأعلمناكم لترححوا بنصر الله وتكونوا على بال من حقيقة الواقع، ولئلا تصيغوا للأخبار الكاذبة مسام المسامع، أو تلتفتوا إلى أقاريل المرجفين الذين لا يدينون الله بدين، ولا يريدون إلا فتنة المؤمنات والمؤمنين، والسلام، في رابع ربيع الثاني سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف

اه، ثم إن السلطان أعزه الله قبض على عامل فاس إدريس السراج وعلى ولده واثنين آخرين معه من رؤوس الفتنة وغَرِّبُهم إلى مراكش، وولي على فاس القائد العجياني بن حمو البخاري أحد قواه واستقامت الأحوال.

وكان مما قيل من الشعر في هذه الواقعة قول صاحبنا الفقيه الأديب أبي

عبد الله محمد بن ناصر حرّكات السلاوي حفظه الله:

لَا تُنْفِضِي مَا كَانَ صَبْرِيْ قَدْ بَنَى
لَهُ يَا تَلْكَ التَّيْ تَأْوِيْ الْفَنَا
كَلَا وَقَدْ هَيَّجَتْ مَنِيْ لَوْعَةً
قَدْ أُوْشِكَتْ فِي مَهْجَتِيْ أَنْ تَهَدَّنَا
وَأَتَيْتَ مَوْطِنَ مَصْرَعِ الْعَشَاقِ ثَلَاثَةَ
مَمْبَكِتْ حَتَّىْ كَدَّتْ تَبْكِيْ الْمَوْطَنَا
لَوْ كَانَتْ الْأَجْبَالْ تَعْقِلَ لَانْشَتَ
فَبَأْيَ رَأَيْ يَا حَمِيمَةَ قَدْ غَدَا
وَبَأْيَ ذَنْبَ قَدْ فَجَعَتْ قُلُوبَنَا
أَوْ مَا كَفَاكَ مِنْ الْمَتِيمَ مَهْجَةَ
صَبَّ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عِبْرَةَ
كَيْفَ اصْطَبَارِيْ وَالْحَبِيبِ مَصَارِمِيْ
دَعْنِيْ فَعَدْلَكَ لِلْمَتِيمِ ضَلَّةَ
تَاهَّلَ لَارْقَاتْ لَعِينِيْ عِبْرَةَ
الْيَدِ الشَّهَمِ السَّرِيِّ الْأَصِيدِ الْ
أَعْظَمِ الْمُسْتَعْظَمِ الْعَذْبِ الْحَلِيِّ الْ
قَدْ حَازَ فِي الْأَشْرَافِ كُلَّ فَضْيَلَةَ
وَمَكَارَمَاً وَمَحَاسِنَاً وَمَفَاخِرَاً
فَلَذِكَ سَيِّدُنَا الْمَقْدَسُ خَصَّهُ
وَرَثَ الْخِلَافَةَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ
عَشْقَتْهُ عَشْقَ ابْنِ الْمَلْوَحِ خَذْنَهُ
وَلَهُ وَقَدْ لَبَّتْهُ قَبْلَ دُعَائِهِ
مَلَكَ بِهِ الْمَلْكُ الْأَغْرِيْ تَشِيدَتْ
أَصْحَى بِهِ يَخْتَالَ فَخْرًا قَائِلًا

والنصر يقبل من هناك ومن هنا
في قصره متالياً أن يقطنا
حلى به هذا الزمان تزيينا
أخلاق سيدنا ثناء أوDNA
في الفضل فعفاً وأحطف في الأنما
معناً وفي الإصلاح قس الألسنا
لغدت ظنونهم بذلك تيقنا
وأتنى جميعهم إليه مذعننا
فرأوا مليكاً مالكاً حسن الثنا
قالوا: لنا ملك ولكن قد دونا
تاقوا وقالوا: ليته في عصerna
بهتوا وقالوا: ليس ذا في طوقنا
ابن الأمير المالكي رسن الدنا
وسع الأماكن فضله والأزمنا
حتى لقد تخذ السماحة ديدنا
ندعوه بالنصر إلا هيمنا
ما كان مشبهاً مضى في غربنا
عمرية تذر المعاشي مذعننا
وتريهم نهج السواء البينا
وتقوم المعوج بالسمر القنا
ما فارقت بيض السيوف الأجنفنا
ما أوشكت من بغיהם أن تحقتنا
لو لاك لم يك لامرئ أن يامنا
تنني عليك ثنا القلوب على المنا
خراء معتجرأ بأثواب السنـا

والدهر سلم والحظوظ بواسم
والسعد قد ألقى عصا سياره
حسنت بطلعـه الدـنا فـكـأنـها
إنـ المـزاـيا وـالـعـطـايا وـالـحجـاـ
لا لا تقـسـ قـيسـاـ بهـ فيـ النـبلـ أوـ
أـوـ فيـ الشـجـاعـةـ عـامـرـاـ أوـ فيـ النـدىـ
فـهـمـ لـوـ اـطـلـعـواـ عـلـىـ خـصـلـاتـهـ
فـاسـتصـغـرـواـ ماـ كـانـ يـصـدرـ مـنـهـمـ
لـيـتـ الـمـلـوـكـ السـالـفـينـ قـدـ أـحـضـرـواـ
ولـوـ أـنـهـمـ عـلـمـواـ ضـخـامـةـ مـلـكـهـ
ولـوـ أـنـهـمـ سـمـعـواـ بـعـظـمـ سـماـحـهـ
ولـوـ أـنـهـمـ قـدـ أـبـصـرـواـ إـقـدـامـهـ
هـذـاـ الـأـمـيرـ اـبـنـ الـأـمـيرـ
هـذـاـ الـعـصـاميـ الـعـظـاميـ الـذـيـ
ماـ زـالـ يـسـمـعـ بـالـجـوـائزـ وـالـلـهـاـ
فـخـمـ نـتـيـهـ تـلـذـذـ بـحـدـيـثـهـ
طـبـعـ الـفـؤـادـ عـلـىـ مـوـدـتـهـ فـمـاـ
يـاـ أـيـهـاـ الـمـلـكـ السـمـيـعـ وـالـذـيـ
ماـ زـلـتـ تـجـتـابـ الـبـلـادـ بـسـيـرـةـ
وـتـبـيـنـ لـلـنـاسـ الرـشـادـ وـسـبـلـهـ
وـتـدـمـرـ الـعـاتـيـ بـأـبـيـضـ صـارـمـ
لـوـلـاـ الـبـغـاةـ مـنـ الـأـنـامـ وـجـوـرـهـمـ
لـكـنـ بـحـلـمـكـ قـدـ حـقـنـتـ دـمـاءـهـمـ
وـأـنـتـ فـيـ ظـلـ الـأـمـانـ جـفـونـهـمـ
وـلـقـدـ تـرـكـتـهـمـ وـكـلـ قـبـيلـهـ
حـتـىـ أـتـيـتـ الـحـضـرـةـ الـفـاسـيـةـ الـ

وله فم بجميل ذكرك أعلنا
 يا ماجداً من عطفة تشفي الصنف
 شوق الفقير إلى ملقاء الغنى
 وكسوتهم بعد الآسا ثوب الهنا
 حتى جئني جهلاً بفضلك من جنا
 أبقيت عليهم رأفة وتحننا
 يا لا تؤاخذنا بزلة غيرنا
 تترك جيوشك فيهم أن تشننا
 منعت قلوب الناس أن تتحزنا
 بندامة الكسفى من قد شيطنا
 لنهاك طبع الجود أن لا تحسنا
 صاحت به أحلامه فتحننا
 أصبحى بري طعم الردى حلو الجننا
 صدته خشيه الحمام فأقبينا
 جاءته أخلاق اللثام فأشقنا
 ما كان فيهم من برى متمسكنا
 ما كان يمكن لامرئ أن يجينا
 لكفتك هيتك الخميس الأرعننا
 يوماً علاك لقال: غيرك ما عنا
 لم يجحدنه جاحد فتبرهنا
 شوركت في حسن دعوك الأحسنا
 أصبحى على الأقطار يفخر قطرنا
 ومحبة الأشراف نعم المقتنى
 ومحنة من بالكرام تحصنا
 متواлиات أو يصدني المنا
 أعضاؤنا كانت جنمياً أنسنا

والملك من فرط السرور بك ازدهى
 وأتاك أهلها قولاً هل لنا
 يا طالما اشتاقت إليك قلوبنا
 فمنتهم بعد الضراوة عزة
 هذا وما صبحتهم بكربيه
 شربوا كؤوس الحتف لولا أنها
 وأتاك أرباب البصائر قولأ:
 فصفحت عنهم صفح مقتدر ولم
 وحبوتهم بعد الآسى بمسرة
 فغداً ببغيته المصافي وانشنى
 لو كان في الإحسان شيء يتقدى
 إن الكريم إذا تمكّن من أذى
 مثل الشجاع إذا سطى يوم الوعا
 لا كالجبان فلو تكلف نجدة
 وكذلك اللثيم إذا أراد تفضلاً
 لو أن جودك في الورى متفرق
 ولو أن بأسك قد تفرق بينهم
 لو لم تكن مولى خميس أرعن
 لو أن من أثني على هرم رأى
 شهد الأنام بأن مجده باهر
 يدعونك الحسن الرضى طرزاً ولو
 يا أيها الشهم السري ومن به
 إني امتدحتك والمحبة شافعي
 وتحصني أبداً بعزّة ركنكم
 لا زالت أمداحي لأقعد مجدكم
 تا الله لا قمنا بشكركم ولو

قامت عظامتنا بمدخلك بعدها
 طلعت بغيظ قلوب أبناء الزنى
 منعت خرائد فكرهم أن تحسنا
 وامنع بفضلك حسنها أن يغبنا
 تدع المعاند ضارعاً مستهجننا
 قد أوضح النهج القديم وبيننا
 وأمالت الريح الجنوب الأغصنا
 والمانحى فقادهم نيل المنا

فلنمدحنك في الحياة وإن نمت
 خذها إليك خريدة فكرية
 بهرت قلوب ذوي النهي بمحاسن
 فاصرف إليها مئة عين الرضى
 دامت إليك من المهيمن نصرة
 بمحمد المختار جدك خير من
 صلى عليه الله ما جن الدجى
 والأآل والصحب الصناديد النرى

ثم شرع السلطان أعزه الله بجمع العسكر وتنظيمه زيادة على ما كان في
 حياة والده فألزم أهل فاس بخمسمائة، وألزم أهل العدوتين بستمائة، وألزم
 غيرهما من الشغور بمائتين مائتين، ولم يتخد من مراكش ولا أعمالها شيئاً
 فصعب على الناس ذلك وجمعوا منه ما قدروا عليه واعتنى السلطان أعزه الله
 به فكان يباشر عرضه وترتيبه بنفسه، وفي أيام مقامه بفاس نبغ نابغ بأعمال
 وجدة يقال له: أبو عزة الهبرى من هبرة بطن من سويد وسويد من عرببني
 مالك بن زغبة الهلاليين، وكان هذا الرجل فيما زعموا يخط في الرمل
 ويتعاطى بعض السحرىات فتبعد بعض الأواباش الذين لا شغل لهم وتأسوا
 عليه ودنا من أطراف الإيالة وقوى حسه وكان السلطان أعزه الله عازماً على
 النهوض إلى تلك الناحية وتمهيدها ونفي الدجاجلة عنها فاستعد غاية
 الاستعداد وجدد الفساطيط وكسى الجنود فرسانها ورماتها قديمها وحديثها
 وعرضها كلها، ثم نهض من فاس متصرف رجب سنة إحدى وتسعين ومائتين
 وألف، ولما بات في الليلة الثانية بآيت شعروسن أغار على المحلة ليلاً أبو
 عزة الهبرى ومعه سعيد بن أحمد الشعروسي ويقال إنه إدريسي النسب
 فماجت المحلة بعض الشيء ثم تراجع الناس وأخذوا مراكزهم وصوبوا
 المدافع وآلات الحرب نحو عدوهم فشكراً لهم فشكراً ذلك آخر العهد بهم
 وبقضى على عدد من أصحابه وقطعت رؤوس منهم، وتقدم السلطان أعزه الله

في جموع مؤلفة من الجيش السعيد المظفر وأنجاد نظام العسكر وغزوة القبائل الغربية ببربرية وعربية إلىبني سادان وأيت شغروسن فأوقع بهم وقتل وأسر وانتسفت الجيوش زروعهم وبعشرت أرضهم وديارهم فلجؤوا إلىبني ورaine فأمر السلطان أيده الله بقتال الجميع، ثم جاء بنو ورaine متصلين متربئين إلى السلطان منهم فقبلهم وولى عليهم رجلاً من أعيانهم، ثم جاء بنو سادان وأيت شغروسن تائبين خاضعين فعفا عنهم ووظف عليهم مائة ألف مثقال وزبادة أربعمائه من الخيل فأذعنوا لأدائها واستوفاها السلطان أعزه الله منهم في أوائل شعبان من السنة، ثم تقدم إلى تازا فدخلها في أوائل الشهر المذكور، ولما احتل بها قدمت عليه وفود قبائلها متৎسين بحبل الطاعة داخلين فيما دخلت فيه الجماعة فرحين مفتطبين وبكل ما أمكنهم من الخدمة متقربيين، وجاءت عرب الأحلاف ومن جاورهم حاملين هوادجهم المحلاة بأحسن حلتهم وشاراتهم التي يستعملونها في مواسمهم وزبدهم فقابل السلطان أعزه الله كلأ بما يجب من المjalمة وحسن المعاملة ما عدا ثلاثة فرق من غياثة المجاورين لتنازا وهم بنو أبي قيطون وأهل الشقة وأهل الدولة فإنهم كانوا يضرون بأهل تازا ويغيرون عليهم فألزمهم السلطان أيده الله بأداء ما تعلق لهم بذمتهم فأدوه في الحال، ثم وظف عليهم ثلاثة ألف ريال أخرى لبيت المال فأدواها أيضاً عن طيب أنفسهم ومن عداهم من أهل غياثة فإنما أدوا الزكوات والأعشار وأظهروا حسن الطاعة والامتثال، وفي هذه الأيام جيء إلى السلطان بالهبري أسيراً فإنه لما خرج السلطان أعزه في طلبه وطلب غيره أبعد في الصحراء ولم تزل تلفظه البلاد وتتدافعه الشعاب والوهاد إلى أن ساقته خاتمة النكال إلى قبيلة بنى كلال وهم على أربع مراحل من تازا فقبضوا عليه وجاؤوا به إلى السلطان أسيراً حتى أوقفوه بين يديه مصفداً كسيراً، فأظهر الهبري الجزع وتضرع وخضع فحقن السلطان أعزه الله دمه وأمر به نطيف في المحلة على جمل ثم أمر ببعشه إلى فاس فسجن بها بعد أن طيف

به في أسواقها ثم مضى السلطان أعزه الله لوجهه حتى بلغ قصبة سلوان على طرف الإيالة المغربية من جهة الشرق فوقدت عليه قبائل تلك النواحي وأهدروا ومانوا وأظهروا غاية الفرح والسرور.

حکى من حضر أنهم كانوا يزدحمون عليه لتقبيل يده وركابه ووضع ثيابه على أعينهم تبركاً به، وفي أوائل رمضان من هذه السنة في ليلة الخامس أو السادس وقع تناشر في الكواكب وتدخل واضطراب عظيم على هيئة مفزعه بعضها مشرق وبعضها مغرب وبعضها إلى هيئة أخرى فكان الحال كما وصف الأعمى بقوله:

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا وأسياقنا ليل تهاوى كواكبه

دام ذلك إلى قرب السحر وأقام السلطان أعزه الله بهذه البلاد حتى عيد بها بعيد الفطر وكان المشهد هنالك عظيماً والموسم مخيماً، وحضر بنو يزناسن ومعهم كبيرهم الحاج محمد بن البشير بن مسعود فأهدى هدية كبيرة وولاه السلطان على تلك القبائل منبني يزناسن وغيرها، وقفل أعزه الله راجعاً فأدركه فصل الشتاء بتلك الجبال والفيافي فاشتد البرد وقتل الأقوات وهلك بسبب ذلك عدد كثير من الجنود ولحق الناس مشقة فادحة، وأظهر السلطان نصره الله يومئذ من الشفقة والبرور ما تناقله الناس وتحديثوا به فإنه كان يسير بسير الضعيف ويقف على المرضى حتى يصلح من شأنهم ويأمر بburial من يدفن وحمل من يحمل، وإذا سقط لأحد ذاته أو رحله وقف عليه بنفسه حتى يعان عليه وهكذا إلى أن دخل حضرة فاس بحيث أدرك به عيد الأضحى من السنة فعيده بها وتفرغ للنظر في أمر العسكر يقوم عليه بنفسه ويعرضه على عينه ويتصفح قوائم مؤنه ورواته فاطلع أيده الله على ما كان يدلسه القائمون على ذلك من الزيادة الباطلة فعزل من عزل وأدب من يستحق التأديب، ثم قبض على كبير العسكر السوسي وهو الحاج منو الحاجي وكانت فيه شجاعة وإقدام إلا أنه كان مفرطاً في التهور والإلال على الدولة وكبرائها فأدى ذلك إلى الانتقام منه بالضرب والسجن والاحتياط على ماله وضياعه

ولا زال مسجوناً إلى الآن، ثم سرح من السجن واستوطن مراكش عام ألف وثلاثمائة وخمسة، وفي هذه المدة شرع السلطان أعزه الله في بناء داره العالية بالله العاصرة المزيرية بمصانع المعتمد وقباب الزهرة وذلك في البستان المعروف ببستان آمنة داخل فاس الجديد عمد أعزه الله إلى ناحية من ذلك البستان فقطع ما كان بها من الشجر وبنى فيها قبة فارهة فاقفة الحسن بدبيعة الجمال يقال إنه ضاهى بها بعض قباب المعتمد بن عباد بإسبانيا، ثم بني الدار الكبرى بيازائها وهي من عجائب الدنيا حسبما بلغنا بالغ أيده الله في تنجيدها وتنميقها وأودعها من النقش العجيب والترخيم البديع والزليج الرفيع المزري بخمايل الزهر وقطائف الهند وبديع الطوس بحيث جزم كل من رأى ذلك بأن مثله لم يتقدم في دولة من دول المغرب وجلب لقبابها الأبواب من بلاد الأزواب يقال إن ثمن أحد الأبواب خمسة عشر ألف ريال مسامره من الفضة المذهبة وعوده من أفضل أنواع العود لا تعرف له قيمة وفيه من التحرير والنقش ما يدهش الفكر ويثير النظر ويباقي الأبواب من البلور الصافي المذهب الموعد فيه كل نقش غريب وبها خوخات مركبة بهيئة بدبيعة كل ذلك قد عمه الذهب النضار الذي يدهش الأ بصار، وجلب لذلك من الآثار الرومي ما قيمته ألف من الريال، وفيها من الفرش والحانطيات المزخرفة ما لا يدرى ثمنه ولا يعرف معدهن وموطنه إلى غير ذلك من المقاعد الحسنة والمنازل المستحسنة الرائقة الطرف البدية الصنعة والرصف، وفي مدة مقام السلطان أيده الله بفاس بلغه عن ولد البشير بن مسعود بعض استبداد فاقتضى نظر السلطان أعزه الله أن يبعث من قبله عاملًا لجباية تلك النواحي فعقد لأخيه المولى علي على جيش وأضاف إليه القائد أبا زيد عبد الرحمن بن الشليح الزاري بمنزلة الوزير والظهير وبعثهما إلى ناحية وجدة وكان ابن الشليح المذكور يومئذ يتولى عمالة تازا وكان أهل وجدة وأعمالها يكرهون ولية ولد البشير عليهم ويحبون ولية ابن الشليح إذ كان له ذكر وصيت في تلك الناحية وربما كاتبه عرب آنفه وكاتبهم، ولما أحسن ولد البشير بذلك انصبعت العداوة بينه وبين ابن الشليح فلم يكن إلا كلاً ولا حتى

وجه السلطان أيده الله ابن الشليح المذكور والياً على وجدة وأعمالها وجاياً لأموالها وناظراً في شؤونها وأحوالها، فقامت قيامة ولد البشير وعلم أنه لا يصفو له عيش معه فعزم على أن يطرده عن تلك البلاد ويرده من حيث جاء، وكان ولد البشير هذا حسن الطاعة للسلطان إلا أنه انفسد أمره بما ذكرناه، ولما قرب ابن الشليح من أرضه خرج إليه في خيله ورجله ولما التقت مقدمة الجيش بهم انتشت الحرب بينهم وقامت الفتنة على ساق وكان غرض ولد البشير أن يضم إليه أخيه السلطان وجيشه ويقوم بخدمتهم ويطرد عنه عدوه فقط فلم يستقم له ذلك وكان رأيه هذا خطأ إذ ليست هذه بطاعة كما لا يخفى، ثم انهزم الجيش وعمدت بنو يزنانس والعرب إلى المحلة فاتجهوا وعاد عبد الرحمن بن الشليح إلى السلطان أعزه الله وهو بفاس فأخبره الخبر وباشر ذلك كتب ابن البشير إلى السلطان يتنصل من أمر ابن الشليح ومحنته وأنه لا زال على الطاعة لم يبدل ولم يغير وإنما الذي انتهت محلة هم السفهاء من غير إذن لهم ولا موافقة على ذلك، وحتى الآن فكل ما ضابع من تلك المحلة يؤديه بأكثر منه، فطوى له السلطان أيده الله عليها وأرجأ أمره إلى وقت آخر، وكان قد اتصل به في ذلك الوقت خبر أبي عبد الله محمد الكنتافي صاحب جبل تينملل، وكان أصل هذا الرجل أنه كان من أشياخ قبيلته وكان المتولى عليهم هو قائد الجيش السوسي أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الجراوي، وكان الكنتافي هذا أحذر من غراب وأمنع من عقاب قد اتخذ حصناً في رأس جبل تينملل حيث كان ظهور مهدي الموحدين حسبما مر في أخبارهم، وتحصن به وصار يؤدي لقائد الجراوي كل ما يأمره به من غير توقف إلا أنه لا ينزل إليه، فلما توفي الجراوي المذكور وولي السلطان على الجيش السوسي وما أضيف له وصيغه القائد أحمد بن مالك ضايك الكنتافي بعض الشيء وسار معه بغير سيرة الجراوي قبله فأنف الكنتافي من ذلك وأعلن أنه في طاعة السلطان ومتقلد بيته يموت عليها ويبعث عليها ولا يقبل ولاية أحمد بن مالك ولو ألقى في النار، فكتب أحمد بن مالك إلى السلطان وهو بفاس يعلمه بأن الكنتافي قد خلع الطاعة وفارق الجماعة وأشاع

المرجفون بأنه يحاول الاستقلال بالأمر التفاتاً إلى ما كان لسلفه من أهل ذلك الجبل منذ سبعمائة سنة، وربما حق هو إلى ذلك أيضاً، وقد حكى ابن خلدون أن أهل ذلك الجبل كانوا في زمانه على هذا الاعتقاد.

تخرصاً وأحاديثاً ملتفقة ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

واستاذن أحمد بن مالك السلطان أعزه الله في غزو هذا الكتافي فأذن له ببعث إليه كتيبة من الجندي فقضها الكتافي فازداد المرجفون تقولاً وتخرصاً، ثم بعث إليه ابن مالك جيشاً آخر أعظم من الأول فهزمه الكتافي أيضاً وبقى على جماعة منهم باليد فمن كان من جيش السلطان سرمه إظهاراً للطاعة ومن كان من القبائل المجاورة له ضرب عنقه وكانتوا عدداً وافراً، فتفااحش أمر الكتافي في الحوز وكاد يستحيل إلى فساد ببعث ولده إلى حضرة السلطان بفاس وكتب له بشرح قضيته وأنه مظلوم من قبل أحمد بن مالك وما ارتكبه في حق الجيش إنما هو مدافعة عن نفسه وأنه لم يقتل جندياً قط وبالغ في التنصل وتقديم الشفاعات والذبائح والعارضات فأرجأ السلطان أعزه الله أمره ونهض من فاس متصرف رمضان سنة الثنتين وتسعين ومائتين وألف فوصل إلى رباط الفتح ليلة عيد الفطر فاتفق أن وقع بها نادرة وهي أن جماعة من شهود التليف الثاني عشر جازوا إلى القاضي أبي عبد الله بن إبراهيم رحمه الله ليلة التاسع والعشرين من رمضان وشهدوا عنده أنهم رأوا هلال شوال بعد الغروب رؤية محققة لم يلحظهم فيها شك ولا ريبة، فسمع القاضي شهادتهم وسجلها وكتب للسلطان بذلك وهو يقر برميم فارتاحل السلطان في جوف الليل ودخل داره وأصبح من الغد معيناً وعيد أهل العدويتين وأعمالهما والجم الغفير من أهل المغرب الذين حضروا مع السلطان ولما كان ظهر ذلك اليوم وهو التاسع والعشرون من رمضان حقق الفلكيون من أهل الدولة أن العيد لا يمكن في ذلك اليوم وتكلموا بذلك وفاهوا به فكثر الكلام بذلك وكان جل الناس على شك أيضاً، ولما حان وقت الغروب ارتفع الناس الهلال والسماء مصححة ليس فيها قزعة فلم يروا له أثراً فأمر السلطان أعزه الله بالنداء وأن الناس يصبحون صياماً لأن رمضان لا زال فصام الناس من الغد ويعد ذلك

ظهر الهلال ظهوراً معتاداً وتبين كذب الشهود فسجنا ثم سرحوا بعد حين، ولما قضى السلطان أعزه الله سنة العيد نهض إلى مراكش فلما قرب من زاوية ابن ساسي بين بلاد الرحامة وزمران نزل هنالك على الرحامة وكانوا قد حصل منهم اعوجاج وتمرض فوظف عليهم من الأموال ما أثقل ظهورهم وفرض عليهم من العسكر والخيل ما امتحنوا في أدائه ولم يقم عنهم حتى أدوا جميع ذلك وحتى خرج الأشراف والمنتسبون من أهل مراكش إلى السلطان للشفاعة فيهم والرغبة إليه في دخوله منزله، فقبل السلطان أيده الله شفاعتهم وارتاحل عنهم فدخل مراكش آخر ذي القعدة من السنة، وكانت مدة مقامه على الرحامة ستة عشر يوماً وكان يوم دخوله إلى مراكش يوماً مشهوداً، وفي رابع ذي الحجة بعده قبض على مائتين وثمانين شخصاً من أعيان أولاد أبي السباع وكانوا قد عاثوا في ذلك الحوز على عادتهم وعظم ضررهم واستطiar شرورهم وخرجوا على عاملهم السيد عبد الله بن بلعيد وصلوا على القائد أبي حفص عمر المتوكى وكان القتل بيتهم وبين شيعة عاملهم ابن بلعيد المذكور ففر إلى السلطان بفاس فأرغمى أعزه الله لهم الجيل وأطاح عليهم الرسن وولى عليهم القائد أبي عبد الله محمد بن زروال الرحمة، أي صورة حتى اطمأنوا بذلك، وأنسوا، ولما قدم أعزه الله مراكش ضربت السعوش على قبائل الحوز فناب أولاد أبي السباع في ذلك ثلاثة فارس فقدمت مراكش بخيتها وأسلحتها، وكان السلطان أيده الله يومئذ قد أخذ في عرض بعض بعوث القبائل داخل مشور أبي الخصيصات ف جاء أولاد أبي السباع للعرض فلما توصلوا المشور المذكور أغلقت الأبواب وبقى عليهم وجروا من السلاح وحملوا إلى السجن وكانت مائتين وثمانين كما قلنا، ثم وجه السلطان أعزه الله إلى حلتهم القائد العربي الراحماني مع كتيبة من الجيش فنزلوا عليهم وأغرمهم سنتين ألف ريال فأدواها في الحال بعد بيع ماشيتهما بأبخس ثمن، وحيثند بعث السلطان إلى عاملهم عبد الله بن بلعيد فاستدعاهم من فاس وقدم وولاهم عليهم فاطمانوا وأطاعوا وجد السلطان أيده الله في جمع العساكر والاستعداد إلى أواخر صفر من سنة ثلاثة وتسعين وأربعين وألف

فقدم عليه أبو عبد الله محمد الكتافي صاحب الجبل مستأذناً بالمرابط أبي علي الحسن بن تيمكيلشت فقابلة السلطان بالغفو والصفح وأكرم وفادته وولاه على إخوانه وانقلب إلى أهله مسروراً، ولما حضر عيد المولد الكريم احتفل السلطان أيده الله غاية الاحتفال على عادة أسلافه الكرام قدس الله أرواحهم وجعل في عليين عدوهم ورواحهم وتشئت الأسماع بالأمداح النبوية في الليلة المباركة بالمسجد المعد لذلك وأنشدت قصائد لأدباء العصر، وبعد العيد كسا السلطان نصره الله جميع الجيش والعسكر والكتاب حتى الأماء والطلبة، وفي مهل ربيع الثاني من السنة المذكورة خرج من مراكش يوم بلاد الغرب فجعل طريقه على ثغر الجديدة فأقام بها أياماً بعد أن زار تربةبني أمغار برياط تيط وتفقد أحوال ثغر الجديدة ووقف على أبراجها وأسوارها ويباشر في الرماية بالمدفع وكان رميها صواباً بحيث أصاب الغرض أعزه الله وأهدى له جميع تجارها من المسلمين والنصارى واليهود فقبل ذلك وكافأ عليه، وكان أعزه الله حين عزم على النهوض من مراكش قد كتب إلى عامله على مدينة آنفى وهو القائد الأجل الأنصح أبو عبد الله الحاج محمد بن إدريس بن حمان العجاري أن يتقدم إلى ثغر الجديدة ويفيق هنالك حتى يأمره بما يكون عليه عمله فامتثل القائد المذكور ولما قدم السلطان أعزه الله إلى الثغر المذكور اجتمع به القائد المذكور وطلب منه أن يجدد له ظهيراً بالتوقير والاحترام حسبما كان عليه هو ووالده من قبله مع السلطان الأعظم المولى عبد الرحمن وابنه السلطان المرحوم سيدى محمد رحمهما الله فاجابه أعزه الله إلى ذلك وكتب له ظهيراً يقول فيه ما نصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله كتابنا هذا أسماء الله وأعز أمره وجعل في الصالحات طيه ونشره يستقر بيد ماسكه خديمنا الأرضي الطالب محمد بن إدريس العجاري ويعرف منه أنها بحول الله وقوته أنزلناه المنزلة التي كان بها هو ووالده عند أسلافنا الكرام ولحظناه بعين الرعاية والبرور والاحترام هو وأولاده وإخوته فلا يروا من جانبنا العالي بالله إلا الخير لأنهم خدام أبناء خدام ودارهم دار المحبة والنصيحة فلا نسلّم لهم ولا نفوتهم ولا نضيع لهم

سالف خدمتهم ولا نكشف عنهم جلباب حرمتهم بحول الله وقوته والسلام صدر به أمرنا المعتر بالله في تاسع ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف، ولما قضى السلطان أعزه الله أربه من ثغر الجديدة نهض إلى آزمور فتلقاء أهلها بالفرح والسرور والبهجة والجبور، فهش لهم وقابلهم بما يناسب ودعا لهم بخير وزار ضريح الشيخ أبي شعيب وأبي عبد الله محمد واعدوه رضي الله عنهما وقدم لضريحهما ذبائح وطاف بأسوار البلد وأبراجه وأمر بتحصين برج هنالك كان مقابلًا للمرسى، ثم خرج من آزمور بعد يوم أو يومين فانتهى إلى مدينة آنف فدخلها في الثالث والعشرين من ربيع الثاني المذكور وعزل عنها القائد أبي عبد الله محمد بن إدريس الجراري وولي مكانه الحاج عبد الله بن قاسم حصار السلاوي، ثم كتب إلى أبي عبد الله الجراري المذكور بولايته على الجديدة وأعمالها ونص كتابه إليه: خديمنا الأرضي الطالب محمد بن إدريس الجراري وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإننا أعفيناكم من ولاية الدار البيضاء ووليناك على الجديدة ولم نعزلك عنها سخطاً لسيرتك ولا هضمًا لجانب خدمتك، وإنما اقتضت المصلحة ذلك تقديرًا للأهم فالأهم وأنت منا وإلينا ودارك دار الخدمة والصلاح فلا نسلمكم ولا نفوتكم ولا نهضم لكم جانبًا والسلام في الثالث والعشرين من ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف اهـ.

واعلم أن هذا العامل من أمثل عمال السلطان نصره الله وأعقلهم وأرجحهم وأنصحهم قد استعمله الملوك الثلاثة المولى عبد الرحمن وابنه سيدي محمد وابنه المولى الحسن رضي الله عنهم فظهرت كفایته ونصيحته، وحمدت ولاليته وسيرته، وهو الآن بهذا الحال حفظنا الله وإياه وال المسلمين آمين، ولما احتل السلطان أعزه الله بالدار البيضاء طاف في أبراجها وأمر الطbjية بتنصب الأغراض المسماة بالقربيات في البحر ثم أمر برميها وهو حاضر وربما باشر معهم، ثم اجتاز بعد الفراغ على باب المرسى ومحل وضع السلعة للتجار بها فوقف عليه وتأمله كما فعل ب Shrث الجديدة ووعد

يأصلح المون على شاطئه البحر لأن البحرية يتبعون فيه وقت إزالة السلع ووسقها، وأقام بالدار البيضاء بال محللة خارج البلد يومين وأهدى إليه تجارها من النصارى واليهود والمسلمين، وأظهر النصارى الفرح وأكثروا من تعليق الصناجق وإيقاد الحراقيات بالليل وإرسالها في الجو فقابلهم السلطان أعزه الله بالجميل وحمل النصارى منهم على خيل مكافأة لهم على هديتهم فطاروا بذلك فرحاً حتى أنهم كتبوا بذلك لأهل دولتهم، ونشروه في كوازيطهم وأجوبيتهم، وفي هذه المدة وجه السلطان أعزه الله خديمه الأنجد الفاضل أبا عبد الله الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبدي الرباطي باشدورا وسفيراً عنه إلى دول الإفرنج مثل دولة افرينسا، ودولة النجليز، ودولة الطاليان، ودولة البلجيك، واستصحب معه هدايا نفيسة وأموالاً طائلة صيرها في وجهته تلك ورفقه في سفارته هذه الأمين الأرضي السيد بنناصر ابن السيد الحاج أحمد غنام الرباطي برسم القيام بخطبة الأمانة والقهرمانية، وصاحبنا الفقيه الأديب فلكي العصر وحاسبه الشريف أبو العلاء إدريس بن محمد الجعدي السلاوي برسم القيام بخطبة الكتابة، فوصلوا إلى أهل هذه الدول وقضوا الغرض على أكمل الوجه وأحسنها وعادوا مسرورين في أواخر شعبان من السنة، وفي هذه الوجهة قيد صاحبنا أبو العلاء المذكور رحلته البديعة المسممة بتحفة الأخبار بغرائب الأخبار قد اشتغلت على كل نادرة وغريبة، وأفصحت عن صنائع الفرنج وحيلها العجيبة، وعند قوله وقدومه على حضرة السلطان أيداه اللهم مدحه بقصيدة جيدة مطلعها:

أسالم دهري في المرام وفي القصد
فينقض ما أبرمت للصلاح من عقد
وأسأله الرحمى فيبدي ازوراره
ونفتره عنى فيما عظم ما يبدي
وكم لي استرضيه وهو مغاضب
ولا يرعوي عما جناه على عدم
ومنها في آخرها:
وهذى بنات الفكر مني هدية

إلى الملك المنصور ذي الجود والرفد

فإن أهملت عدلاً فلاني مهملاً
 وإن صادفت وقت القبول فيا سعدي
 شهيراً ولكنني تعاطيته جهدي
 فأصبحت ذا وجد وقد كنت ذا فقد
 وحسبي رضاكم فهو نفس المنى عندي
 ويا ربنا أعط الأمير مرامة
 وإن السلطان أعزه الله نهض من الدار البيضاء ومعه الجندي الوافر
 والعسكر المجر والجم الغفير من قبائل الحوز وأهل دكالة وتمامنا فأوقع
 بعرب الزيادية أهل تامسنا، وتقدم إلى رباط الفتح فدخله غرة جمادي الأولى
 من السنة فمكث به نحو سبعة أيام وعبر إلى سلا فزار أولياءها ودخل
 مسجدها الأعظم وصلى الظهر به وأمه في صلاته يومئذ صاحبنا الفقيه العلامة
 البارع أبو محمد عبد الله بن الهاشمي بن خضراء ودخل السلطان أعزه الله
 خزانة الكتب العلمية بالمسجد المذكور وتأملها ومعه يومئذ شيخنا الفقيه العلامة
 القاضي سيدي أبو بكر بن محمد عواد فطلب من السلطان أيده الله أن يزيد في
 شراء الكتب لخزانة المذكورة فاذن له بأن يشتري من ذلك ما ثمنه نحو مائة
 ريال ففعل وهي يومئذ بالخزانة المذكورة، ووصل أيده الله علماء العدوتين
 ومجاهديها على العادة، وقد كنت أنسأت قصيدة في غرض من الأغراض فلما
 اتفق قدوم السلطان أيده الله هذه المرة حولتها إلى مدحه، ونصها:

قلب كواه من النوى مقباس
 فغدا به الوسواس والخناس
 ونحوه جسم يشتكى ألم الضنى
 وجوى به تتصاعد الأنفاس
 ولدى الوشأة به انتفى الإلباس
 وإن الآلى يستعبدون ملامه
 ما أن لهم بعذابه إحساس
 حتى غدوت بمنسميه أداس
 قدمأ عذلت ذوي الغرام سفاهة
 وحسبته حلو الجنى فأساغني
 بما يأسه ما لا يسيغ الباس
 إن الذين علقتهم قد انجدوا
 وبهم الخدور دونها الحراس
 واليوم قد غلب الرجاء الياس

إن الظباء لها البيوت كناس
 ضوء الشموس إذا بهن تقاس
 نشر الخزامي عطفها المياس
 يرمي الشعاع كأنها النبراس
 في ظلها ورد حواء الآس
 فكأنما أيامه الأعراس
 أصاله وافتربت الأغ aras
 ومنادي فيه المنى والكاس
 إن الهوى غول النهى الفراس
 سكنوا الشرى وعراهم الإفلas
 فيه إذا ما ينصب القسطاس
 لما جلا عن ريعها الياس
 مجدأ تخلده لك الأنCas
 حلوا الجنـا فتلوكـك الأـضـراس
 وبينـى علىـ لـم تـبلـهـ الأـرـمـاس
 كـيمـاـ تـرىـ لـكـ فيـ الفـخارـ غـراسـ
 والـتـيرـ فيـ جـنـبـ المـطـالـ نـحـاسـ
 منـ كانـ يـجـمعـهـ بـكـ الإـيـناسـ
 خـانـ الحـسـامـ وـطاـشـتـ الـأـفـواسـ
 لـماـ حـشـاهـ بـالـقـنـاـ جـسـاسـ
 رـازـ النـهـىـ وـلـهـ بـهـنـ مـرـاسـ
 ويـزيـنهـ الـأـصـحـابـ وـالـجـلـاسـ
 فالـجـهـلـ بـالـطـبـعـ الـكـرـيمـ يـسـاسـ
 تـكـنـ الـجـزـوـعـ وـهـمـكـ الـإـيجـاسـ
 كـلـ اـمـرـيـ بـفـعـالـهـ مـنـقـاسـ
 ذـاـ خـبـرـةـ وـمـلـاذـكـ الـأـطـراسـ

ما كنت أحسب قبل إمامي بهم
 تحكى بدور التم يخفي ضوءها
 من كل خود كاعب يهدى لنا
 تسبى بقد السمهري وباسم
 وكان هاتيك الخدود فاحما
 الله ما عيش تقضي بيننا
 طاب السرور لنا به وتارجت
 أيام روض اللهو غض نوره
 بالله يا قلب استفق ودع الهوى
 أو ما رأيت المخلدين إلى المنا
 وأعمل ليوم لا تخس شعيرة
 وابك الذنوب بكاء خندف بعلها
 وإذا حوت كفالك فابن مبادرا
 من غير تبذير لمالك لا تكون
 كم من فتى جاز الحضيض إلى الذرى
 وإذا وعدت فكن لوعدك منجزا
 فالمنع في جنب الوفاء صنيعة
 وإذا حصلت على الرياسة فاذكرنـا
 واحدـ منـاصـبةـ الدـنىـ فـربـماـ
 كـمـ يـغـنـ يومـاـ عنـ كـلـيـبـ مجـدهـ
 وإذا تصاحب فاصحبـنـ مهـذـبـ
 فالـمـلـءـ وـيـحـكـ إنـماـ يـذـريـ بهـ
 وإذا الـبـذـيـ جـفـاكـ يـوـمـاـ فـاحـتـسبـ
 وإذا عـرـتكـ مـلـمةـ فـاصـبـرـ ولاـ
 واحـفـظـ لـسانـكـ وـالـهـ مـنـ عـيـبـ الـورـىـ
 وـادـأـبـ عـلـىـ حـفـظـ الـعـلـومـ وـكـنـ بـهـاـ

ما قد وعاه القلب لا القرطاس
والفقه حقيقه يطعلك قياس
فيه المقدم إذ به الإيناس
والنحو مصباح لها وأساس
فالشعر أفضل ما وعاه الراس
إن رمت نطقاً يرتضيه الناس
ربماً تشرفه وحسبك شاس
أبيات علقة الفتى القناعas
فاقتصر فتى له في الندى آراس
حسن الذي هو في العلى نبراس
فخر الملوك سنانها والراس
بهج الزمان وعمت الأرغاس
طاب السرور وطابت الأنفاس
مراكش الحمراء منه وفاس
برق وغيث نواله بجاس
يقطان من داء الضلاله ياس
داء الخطوب فرأيه النسطاس
لا يختشى منه أذى وشمسas
والحلم قيس والذكاء إياس
حتى يصيب عداه منه عamas
عزآً تطاطئه دونه الأجناس
في عزة قعساء ليس نقاس
ما خلدت مروان والعباس

فالعلم أنفع للفتى وأجله
وازو الحديث وكن به متأدباً
وأقم بعلم النحو لفظك ولتكن
كل العلوم إذا نظرت رأيتها
واكتب من الشعر المهدب نبذة
إن لم تقله فكن له مستحضرأ
كم من وضيع قد علا بقريضه
إذ خلصته من الأسار وقده
وإذا قصدت أخا النوال بمدحه
مثل الإمام أبي علي الرضي
الماجد الملك الهمام المرتضى
شملت بلاد الغرب رأفته وقد
وحبا الورى من نيله حتى لقد
سعدت بمقدمه سلا وتقديست
أبداً سيف العزم منه على العدا
شهم بصير بالأمور مجريب
حلب الزمان شطورة فمعن اعتصى
يلقى الوفود بحشمة وطلقة
في الجود كعب والبسالة عامر
ف والله يحفظه ويحفظ ملكه
ويشيد للإسلام من عزاته
وينيله مجدًا ينسى ذكره
فليجعل ملكبني على وليدم

وقد تعني صاحبنا شاعر العصر الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن
ناصر حركات في روی هذه القصيدة دون بحرها وهي من ميلادياته قال:

واشرب على طرب بروضك الكاسي
مستبشرًا بعد تقطيب وتعباس
مسكبي نشر خلال الجو جواس
يشكوا الكثيب على مستهزئ قاسي
عواطل قد تحلت يوم أعراس
كنوح صب على أحبابه آسى
تهدي البهاء إلى البهار والأس
على جداولها الحباب في الكاس
قد ساد بالمعكرمات سائر الناس
عن الورى كل أزمة وقصcas
من بعد ما اشتملت بكل إدراس
طيب الفروع ترى بطيب أغراض
شم الملوك برغم كل دمناس
قلباً وأسطاهم بكل دعاس
يهول الليث يوماً صوب ولاس
وحفه اليمن من ساق إلى راس
ما شئت في شيء له واتواس
بني أمية أو أبناء عباس
ومن يضاهيه في الإقدام والباس
كف الفقر وأثرى رب إفلاس
أو مثل مراكش وحضرتي فاس
ليست تعد بأقلام وأنقاس
تهمي لأهلهما بكل أرغاس
طول المدى كل أنفس وأنفاس
أزرت طلاوتها بكل مياس
لرقمها يتمنى كل قرطاس

ادر كؤوسك فالسراء في الكأس
وقم لتنظر وجه الدهر مبتهجاً
والافق طلق وذا النسيم منطلق
والأرض تضحك من يكا الغمام كما
كأنها وهي بالربيع حالية
والورق من ضحك الأزهار نائحة
والدوخ زاهية الأفنان زاهرة
كأنما الزهر إذ تراه منتشرًا
كأنما طيب نشره شمائل من
إمامنا الحسن المجلبي بطلعته
كسا الرعية أثواب المنى جدداً
سبط الرسول وفرع من سلالته
خليفة الله من دانت لعزته
أنداحم في الندى كفأ وأشجعهم
من ذا ينازله عند الجلااد وهل
قد دعمه النصر في ورد وفي صدر
مولى تردى رداء المعكرمات فقل
لم يمض مشبهه على الحقيقة في
من ذا يدانيه في حلم وفي كرم
يا كم به قوي الضعيف وامتلأت
سلا كمثل سلا الغرا وضرتها
فكם بها من ماثر له كرمته
بل كل مصر وقرية له ديم
فدا الأمير أدام الله عزته
إليكها أيها الجحجاج مائسة
خربيدة من بنات الفكر غانية

بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ وَسُوَاسٍ وَخَنَاسٍ
 حَوْتٌ مَعْانِي مِنْ مَدِيْحَكَ الرَّاسِيِّ
 بِلَلِيلَةِ ذَاتِ أَسْفَارٍ وَإِهْلَاسٍ
 بِأَفْضَلِ الرَّسُولِ كُلَّ ذَاتِ إِغْبَاسٍ
 حَتَّىٰ كَفَاهُ سَنَاهَا كُلُّ نَبْرَاسٍ
 مُسْتِيقْنَيْنِ حَلُولُ الْبُؤْسِ وَالْبَأْسِ
 فِي حِيرَةِ عَبِيشَتِ بَهْمٍ وَإِبْلَاسٍ
 بِشَأْنِهِ كُلُّ قَسِيسٍ وَشَمَاسٍ
 مُنْكَسَاتِ الرَّؤُوسِ أَيِّ تَنْكَاسٍ
 لَهُمْ كَذَا فِي خَمْودِ نَارِ أَفْرَاسٍ
 مِنْهَا بِشَهْبٍ لَرْمِيهَا وَحَرَاسٍ
 يَنْحَطُ مُحْتَرِقًا مِنْهَا بِمَقْبَاسٍ
 مِنْ خَلْقِهِ الْجَنِّ وَالْأَمْلَاكِ وَالنَّاسِ
 لِلَّدِينِ مِنْ كُلِّ أَدْرَانٍ وَأَدْنَاسٍ
 عَنِ الْهَدِيِّ كُلُّ شَبَهَةٍ وَتَدْلَاسٍ
 هَطَالَ غَيْثٌ وَلَا تِيَارٌ رِجَاسٌ
 فَمَا تَرَامَ خَلَالَهُ بِمَقْبَاسٍ
 وَفِي الشَّجَاعَةِ ضَيْغَمٌ بِأَخْيَاسٍ
 عَنِ اتْخَادِ مَغَافِرٍ وَأَتْرَاسٍ
 وَالرُّوحُ مُونَسٌهُ أَتَمْ إِينَاسٍ
 صِيَاحٌ دِيكٌ وَلَا عَوَاءُ لَوَاسٍ
 وَقَدْ رَأَى رَبِّهِ بِمَقْةِ الرَّاسِ
 مَا لَا يَسَامُ بِأَوْهَامِ وَأَحْدَاسِ
 عَلَى أَصْوَلِ حَمِيدَةٍ وَأَسَاسِ
 مِنَ الدَّجْجَى بَيْنَ أَصْحَابِ وَجْلَاسٍ
 وَلَيْسَ يَرْتَابُ غَيْرَ المَاثِقِ الْمَاسِ

جَاءَتِكَ تَطْلِبُكَ الْقَبْوُلُ عَائِدَةٌ
 فَلِيَهُنَّا أَنْهَا تَشْرَفُ بِكَ إِذْ
 وَأَنْهَا لَكَ قَدْ وَافَتْ مَهْنَةً
 أَكْرَمْ بِهَا لَيْلَةَ غَرَاءَ قَدْ فَضَلَتْ
 إِذْ أَشْرَقَ الْكَوْنُ مِنْ أَنْوَارِ مَوْلَدِهِ
 وَالشَّرْكُ فِي الْهُونِ قَدْ أَضْحَى طَوَافَهُ
 إِذْ هَالَهُمْ أَمْرُ أَحْمَدَ وَأَوْقَعَهُمْ
 تَيْقَنُوا أَنَّهُ مَا كَانَ يَخْبُرُهُمْ
 وَأَصْبَحَتْ جَمْلَةُ الْأَصْنَامِ سَاقِطَةً
 وَفِي اِنْصَادَعِ الْبَنَاءِ أَصْبَحَتْ عَبْرَ
 وَالْجَنِّ لَا تَنْصَلُ السَّمَاءَ إِذْ مَنَعَتْ
 وَمِنْ يَرِمُّهُمْ لِلْسَّمْعِ مُسْتَرِقاً
 مُحَمَّدٌ صَفْوَةُ الْبَارِيِّ وَخَيْرَتِهِ
 جَاءَتْ شَرِيعَتُهُ الْبَيْضاً مَطْهَرَةً
 وَلَمْ تَزُلْ أَمْدُ الْأَعْصَارِ رَافِعَةً
 أَصْلُ الْهَدِيِّ وَالنَّدِيِّ فَلَيْسَ يَشَبِّهُهُ
 فَلَا تَقْسِهِ بِشَيْءٍ فِي مَكَارِهِ
 فَإِنَّهُ الْبَحْرُ فِي فَضْلٍ وَفِي كَرَمٍ
 كَانُوا بِهِ يَتَقَوَّنُونَ فِي الْوَغَا بَدْلًاً
 أَسْرَى بِهِ الْمَلَكُ الْأَعْلَى لِحَضْرَتِهِ
 وَاللَّلِيْلُ أَحْرَسَ لَيْسَ فِيهِ يَسْمَعُ مِنْ
 حَتَّىٰ دَنَا فَتَدَلَّى ثُمَّ كَلَمَهُ
 وَنَالَ مِنْ فَضْلِهِ عَزْتُ جَلَالَتِهِ
 فَآبُ وَالَّدِينِ أَسْتَقْتَ قَوَاعِدَهُ
 تَرَاهُ كَالْقَمَرِ الْمُنْبَرِ فِي غَسَقٍ
 غَدَا يَحْدُثُ وَالْمَلَأُ يَصْدِقُهُ

يوماً بدعوته قتيل هماس
 بعد العمى ذا تمقل ولابناء
 من وارد عنبه الروي وكم حاسي
 فليس تحصر أو تحصى بأطراس
 فالقلب ليس بذاهل ولا ناسي
 لخبير رسول ببطن خير ارماس
 كمثل نوح ويونس والياس
 لدفع باس بيوم الحشر أيام
 يا من أنانا بتطهير وتقدير
 فيما لداء الأسى سواك من آسى
 يعدل فيها ويحده من قاسم قاسي
 ما أن يرد بخيبة ولا يأس
 يشد بالشرعية البيضاء أمراسي
 فيه ويكشف بلبالي ووسواسي
 وأن يبدل إقلالي بإقعاس
 حتى أنيخ بذلك البيت عمراسي
 نال الشفاعة في أهل وفي ناس
 نوافح الزهر من دوح وأخياس
 بك الحالائق من عار ومن كاس
 ييضم القراطيس يوماً سود أنقاس
 أدر كؤوسك فالسراء في الكاس
 ثم نهض السلطان أعزه الله من رباط الفتح فيعاشر جمادى الأولى سنة
 ثلاث وتسعين ومائتين وألف قاصداً مكناسة وجعل طريقه على زمور الشلح
 فخرجوا إليه متذللين خاضعين متقربين إليه بالهدايا والضيافات فضرب عليهم
 الإناء والبعث فانقادوا، ثم دخل أعزه الله مكناسة ثامن عشر الشهر المذكور
 فمكث بها أياماً يسيرة ثم نهض إلى فاس فمكث بها أياماً يسيرة كذلك ريشما

دعا على المعتمدي عتبة فغدا
 ورد عين قتادة فصار بها
 والماء من كفة السمحاء سال فكم
 هو الرسول الذي جمت فضائله
 مديم ذكر فإن تذهب لواحظه
 فالأرض طاولت السحاء قائلة
 كل النبيين طرزاً لا تذون به
 كذلك موسى وعيسى والخليل به
 يا أكرم الخلق يا خير الروى شرفًا
 أشكوك داء أساي فأسه كرماً
 قسا الزمان وفي قسم التواب لم
 لكن قصدتك، وال الكريم قاصده
 وقد توسلت للمولى بمجاهدك أن
 وأن يحسن أعمالي ومتقددي
 وأن يعاملني بالغفو عن زللي
 وأن يهيني أسباب السعادة لي
 إذ قلت من ألم طيبتي ومات بها
 صلي عليك إله العرش مانفتحت
 صلي عليك إله العرش ما انتصمت
 صلي عليك إله العرش ما رمقت
 والأل ما قال نشوان بحبهم

اجتمعت إليه الجنود وخرج قاصداً بلاد وجدة ويني يزناسن وكبيرهم الحاج محمد بن البشير بن مسعود، وكان خروجه من فاس متصرف جمادى الثانية من السنة فاجتاز بتازا وأناخ على قبيلة غياثة جاعلاً الهضبة المعروفة بذراع اللوز أمامه قبلة ووظف عليهم المؤنة قيل إنه وظف عليهم مائة صحفة من القمح والشعير فدفعوا شيئاً يسيراً وعجزوا وتعللوا بأن هذا الذي جرت العادة أن يدفعوا للملوك من قبل، وكانت هذه القبيلة لم يهجها هيج من قديم لتحقنهم بجبالهم وأوعارهم، ولهم استطالة على أهل تازا يركبونهم كل خسف، فظهر للسلطان أعزه الله قاتلهم فقاتلهم يوم الخميس أو آخر الشهر المذكور واقتصر عليهم حصنهم المعروف بالشقة وهو خندق بين جبلين فيه واد وعلى حافتيه بناءات ودور، فحرق ذلك كله وهدمه وانتسف ما فيه من قمح وشعير وأدام، وغير ذلك وقطع منهم رؤوساً يسيرة، ولما كان الغد وهو يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر المذكور ركب السلطان أيده الله وركب معه أهل المحلة إلا قليلاً وقدم المدافع والمهاربس أمامه واقتصر الشقة فتبقي الناس ودخلوا بلاد غياثة وتسطوها وقاتلوا أهلها فهزموهم والسلطان أمام الجيش في موكبه فسار حتى بلغ المداشر ورمى عليها من الكور والبنب شيئاً يسيراً، وكانت غياثة قد وضعت الكمان على الأنقاب وشحذوها بالرماة وتركوا منفذًا واحداً يفضي إلى مهواة متلفة ذات شقوق غامضة وأشجار شائكة وصخور متراكمة لا يدرك قعرها ولا يبصرها إلا من وقف عليها ولما وغل الجيش في مزاد عهم ومداشرهم خرجت الكمان من خلفهم ورمواهم عن يد واحدة بالرصاص فدهش الناس وتذكروا فعلهم القديم من الانهزام عن الملوك بلا موجب إذ لم يكن في شوكة غياثة هؤلاء وكثريتهم ما ينهزم منه ذلك الجيش اللهم ولو تلبثوا يسيراً وقاوموا لهم لهزموهم في الحال كما هزموهم أول مرة، ولكن العادة العادة فولوا مدبرين لا يلوون على شيء وتكلّلوا بالرصاص على موكب السلطان حتى سقط حامل الرأية وجرح المولى عزّه الله أخوه السلطان وقتل سيدى محمد بن الحبيب نقيب الأشراف بالعدوتين، مما الجيش وقواده فإنهم لما انهزوا صرموا وجههم إلى المهوا

التي ذكرنا وقصدوها على عمياء وقد ارتفع دخان البارود وغبار الخيل فتهافتوا فيها تهافت الفراش في النار لا يعلم اللاحق ما وقع بالسابق إلى أن امتلأت من الخيل والرجال والأثاث وما كادت وكان ذلك قضاء من الله وتمحصاً منه فهلك من الناس والخيل ما لا يحصى، ويقيت أسلاؤهم ناشبة في تلك الأوغار تلوح مثل المجزرة، وترجل السلطان أعزه الله عن فرسه حتى خلص من تلك الشقوق ثم ركب واجتمع الناس عليه وراجعوا بصارتهم بعد الكائنة ثم انشر غياثة بعدها إلى رؤوس العجائب وتركوا المداشير والجනات فاقتتحهما السلطان بعد يومين أو ثلاثة عليهم فلم يقف أمامه منهم أحد فعادت فيها وحرقها وجعلها حصيناً كان لم تغن بالأمس، وكتب أيده الله بذلك إلى الآفاق وذكر في كتابه أن الخيل والرماة قد انتسفو بلادهم اتسافاً ودخلوها أماماً وخلفاً حتى أشرفوا على بلاد جيرانهم وأناخوا فيها بكل كلهم وجرانهم، ثم توجه السلطان نصره الله إلى نواحي وجدة فانتهي إليها أوائل شعبان من السنة فتلقاء بنو يزناسن خاضعين تائبين فعوا عنهم لكونهم ثغراً من ثغور المسلمين وعصبة تدخر لنصرة الدين، إلا أنه عزل عنهم ولد البشير وبعث به مسجوناً إلى فاس وولي عليهم قواداً منهم من أهل العزم والتجدة ووظف عليهم قدرأً صالحاً من المال فشرعوا في دفعه في الحال والتزموا رد ما تعلق بهنّمهم من المظالم وصلحت أحوالهم واستقام أمر تلك الناحية، ولما قضى السلطان أعزه الله غرضه منها قفل راجعاً إلى فاس فدخلها ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم وكتب بذلك إلى الأمصار يقول: هذا، وقد كتبنا لكم هذا بعد القفول من حركتنا السعيدة، وحلولنا بحضرتنا العالية بالله بفاس بالفتحات الجديدة والإنعمات المزيدة، حلول عز وظفر وإسعاد ونصر من لدنك لم يكن بحيلة ولا استعداد، وذلك بعد الفراغ من ترتيب تلك القبائل وتطهيرها مما تعلق بها من الرذائل، ونلتنا بفضل الله في هذه الحركة من أثر الخير واليمن والبركة ما أثلج الصدور، وحمدنا غبه في الورود والصدور، وتركنا أهل تلك التواحي وساكنني جبالها والضواحي على أحسن ما يكون صلاحاً واطمئناناً، وسلوكاً للجاده المخزنية بالقلب والقلب سرّاً

وأعلاناً، وأبقينا طائفه من جيشنا السعيد عند قبائل الريف زيادة في الاطمئنان والتاليف بقصد استيفاء ما بذلهم من الواجب، واستخلاص ما تعلق بهم من الحقوق التي ألموها ضربة لازب، وذلك كله من تيسير الله ورفرده وفضله على عبده، فما النصر إلا من عنده، فأما نحن فلا حول لنا ولا قوة ولا أنصار مرجوة، ولا نعتمد على عدة ولا عدد بل على فضله تعالى المعول والمعتمد، عرفنا الله حق النعمة وألهمنا شكرها وحمدها، وأجرانا على عوائده الجميلة وفوائده الجليلة التي لا يقدر قلم الواصف أن يدرك حصرها وحدها، وقد اقتضى نظرنا العالى بالله إعلامكم بذلك لتأخذوا حظكم من الفرح بتأييد الله ونصره، وتخلصوا في حمد نعمه الجزلة وشكوه والسلام في السادس والعشرين من رمضان عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف اهـ، استمر السلطان أعزه الله مقیماً بفاس وجد في بناء مقاصيره ومتزهاته بیستان آمنة من فاس الجديد، وكتب أیده الله إلى وصیفه أحمد بن مالک قائد الجيش السوسي بالمنشية من حضرة مراكش أن يبني له على الباب المعروف بباب الرئيس من الدار الكبرى بالحضرۃ المراكشیة قبة فارهة ویبالغ في رفعها وتنجیدها وتنميقاتها، فشرع فيها في شوال من السنة المذکورة وكنا يومئذ نتولی إحصاء صائرها وصائر غيرها من البناءات المراكشیة فكان ما صیر على القبة وحدها أكثر من مائة ألف مثقال وكذلك بنی بمکنasse القبة العظيمة التي طاولت السماء ترفاً وذهبت في الجو صعداً بحيث أشرفت على ما حولها من بسيط سائنس وغيره حتى صارت مثلاً في الطول والاستهار، وبين أعزه الله قبة عظيمة حفيلة على ضريح الشیخ العارف بالله تعالیٰ أبي عبد الله سیدی محمد الصالح ابن المعطی الشرقاوی بأبی الجعد فصیر عليها أكثر من ثلاثین ألف مثقال تقبل الله منه .

وفي عاشر شوال من هذه السنة أعني سنة ثلاثة وسبعين ومائتين وألف توفي الفقيه العلامة الناسك قاضي رباط الفتح أبو زيد عبد الرحمن ابن الفقيه العلامة السيد أحمد بن التهامي البربريري ودفن بزاوية حنصالة من البلد المذكور ، وكان رحمه الله من أمثل قضاء الوقت ومن المتحرّين للعدل ، ولدي

القضاء برباط الفتح أكثر من عشرين سنة، ثم تخلى عنه من غير عزل ودخل داره فلم يخرج بعد، فاحتمل السلطان والناس ذلك واعتقدوا واستمر حاله على ذلك إلى أن توفي في التاريخ المذكور رحمتنا الله وإيه والمسلمين.

وفي سنة أربع وتسعين وألف وذلك يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من محرم منها توفي الفقيه العلامة الأديب شاعر العصر أبو عبد الله محمد بن أحمد أكتنوس المراكشي ودفن قرب ضريح الإمام أبي القاسم السهيلي خارج باب الرب من مراكش، وحضر جنازته الجم الغفير من الناس وهو صاحب كتاب الجيش رحمة الله.

وفي صبيحة يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة ولد لنا ولد سميته محمداً العربي وكان من عجيب صنع الله أنه ولد مختوناً ولذا ذكرناه هنا وهو الآن حي أصلحه الله وأبنته نباتاً حسناً وجعله من عباد الله الصالحين ومن العلماء العاملين أمين. وفي جمادى الأولى من السنة أخذ السلطان أعزه الله في الاستعداد بالحضررة الفاسية للحركة استعداداً لم يتقدم له مثله حتى أنه كتب إلى أخيه وخليقه بمراكش المولى عثمان بن محمد أن يوجه إليه من العدة الرومية وهي مكافحة مركبة فيها توافقها ما قدرها ألف وستمائة وعشرون مكحلة تخرج أبخاشها بالحبة الرومية، وأن يوجه إليه أربعين ألف وعشرون ألفاً من الحبة المذكورة، وعشرون قنطير من البارود، ومائة قنطار من ملحه ومدفعين، وكتب أعزه الله إلى أبناء الصائر بأن يبعثوا إليه بثلاثمائة وستين سرجاً، وستمائة كسوة من الملف للعسكر، وخمسة عشر ألفاً من البلغة ومثلها من النعال، وبعث أعزه الله عمه المولى الأمين بن عبد الرحمن إلى رباط الفتح لجمع عساكر التغور وحشد قبائل دكالة وتامسنا والغرب وبني حسن وغيرهم، ووجه أخاه المولى الحسن الصغير لحشد قبائل الدبر والجيش المتفرق بها، ثم كان خروج السلطان من فاس إلى مكناسة أواخر الشهر المذكور، ولما سمعت قبائل البربر بخروجه ارتاتت وحضرت وظلت كل قبيلة أنها المقصودة فقررت مجاط وبنو مطير إلى رؤوس الجبال،

وفرت عرب عامر منبني حسن إلى زمور الشلح، وكان الناس يظنون أن السلطان يغزو في هذه السنة برابرة الجبال والصحراء فخرج الأمر بخلاف ذلك.

وفي هذه المدة وقد على السلطان أيده الله عدة باشدورات للأجناس مثل باشدور الفرنسيس، والإصبيو، والبرتغال، وغيرهم، وتكلم الفرنسيس في شأن بابور البر والتلغاف وإجرائهم بالمغرب كما هما بسائر بلاد المعمور، وزعم أن في ذلك نفعاً كبيراً لل المسلمين والنصارى، وهو والله عين الضرر وإنما النصارى أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي ظهره الله من دنسهم نسأله سبحانه أن يكتب كيدهم ويحفظ المسلمين من شرهم، ثم نهض السلطان نصره الله من مكناة في أواسط رجب في جمع وافر وعدة كاملة فاجتاز ببلاد زمور الشلح فأظهروا له غاية الطاعة والخضوع وقدمت عليه وفودهم من كل جانب رافعين أعلامهم وشارتهم وزيتهم التي يستعملونها في مواسمهم وأعيادهم وأدوا له من المال والمؤن والضيافات ما استكثر الناس ذلك وتحدثوا به، ثم زحف إلى عرب السهول من أعمال سلا فأوقع بهم وشرد بهم من خلفهم، وكتب أعزه الله في العشرين من رمضان إلى الآفاق يعلمهم بما أتاح الله له من الظهور والنصر والسعادة وحضور قبائل البربر له وتباريمهم في طاعته وخدمته، ويدلهم من الجباية ما لم يكونوا يذلون القليل منه لغيره، وذكر في كتابه أن ذلك كله بمحض فضل الله ومجاري السعادة وحسن السياسة من غير ضرب ولا طعن ولا سفك دم حتى أن قبيلةبني حكم قد أظهروا بعض الأعوجاج فقام إليهم إخوانهم من زمور فقوموا أعواجاجهم حتى فاقوا إلى أمر الله وكفى الله السلطان أمرهم، ثم ذكر في كتابه أعزه الله أمر السهول وأنه بعد أن أوقع بهم أمر بجمع فلهم ورأى استصلاح كلهم بتتأمين جلهم لعمارة بلادهم بهم ورجاء نفع ما تقدم من أدبهم.

وفي ليلة الجمعة الرابع عشر من شعبان من السنة خسف القمر خسناً

كلياً بحيث ذهب نوره واختفى شخصه حتى لم ير منه شيء، وبقي كذلك نحو ساعتين ثم أخذ في التجلّي شيئاً فشيئاً إلى أن عاد إلى امتلاكه. وفي هذه المدة قلت فلوس النحاس بمراکش وأعمالها حتى كادت تendum وذلك بسبب غلاء الريال الإفرنجي بمراکش ورخصه بفاس، فكان صرفه بمراکش يومئذ بثلاث وستين أوقية وصرفه بفاس بثلاث وخمسين أوقية، فصار التجار يجلبون فلوس النحاس من مراکش إلى فاس ويصرفونها بالريال فيربحون في كل ريال نحو مثقال، وتمالؤوا على ذلك وتوفّرت دواعيهم عليه حتى قلت الفلوس بمراکش وتقاعد الناس عليها لما فيها من الربح وتعطل معاش الضعفاء بذلك ولحق الناس ضرر كثير، فكان الرجل يطوف بالبساطة والريال في الأسواق فلا يجد من يصرفه له ولا يتّأّى له أن يشتري من ضروريات معاشه ما قيمته أقل من بساطة، واتصل الخبر بالسلطان أعزه الله فكتب في الآفاق يأمر الناس برد صرف الريال إلى ثلاثة مثاقيل وربع مثقال فامثل الناس ذلك ونودي به في الأسواق فانعكس الحال على التجار وتقاعدوا على الريال والبساطة وفاضت الفلوس في الأسواق حتى صارت معاملة الناس ليست إلا بها وحصل للتجار من الضرر في رخص الريال ما كان حصل للضعفاء في قلة الفلوس لأن التجار حينئذ صاروا يبيعون سلعهم التي بذلوا فيها الريال الغالي بالقراريط النحاسية التي صار صرف الريال فيها على النصف، فأمسك الناس سلعهم وامتنعوا من بيعها وتعطلت المرافق أو كادت، فكتب السلطان ثانياً برد أسعار السلع والأقواء على النصف مما كانت حتى تحصل المساواة بين الأثمان والمشتقات فنشأ بذلك هرج كبير وضرر للناس في معاشهم وأبى الله إلا أن تعود السكة إلى حالتها التي كانت عليها وقد بينا العلة في ذلك قبل هذا وأن السكك والأسعار لا تزال في الزيادة ما دامت المخالطة مع الفرنج تكثر بكثرتها وتقل بقلتها.

وفي يوم الأربعاء ثالث رمضان من السنة توفّي عالم المغرب السيد المهدى بن الطالب ابن سودة الفاسي، كان علامة متقدماً فصيحاً عارفاً بصناعة الدرس حسن الإيراد فيه بحيث فاق أهل زمانه يقال: إن له تأليف لكن لم

نقف على شيء منها رحمة الله، ثم عيد السلطان عيد الفطر من هذه السنة بزبيدة من بلاد زعير ولم يدخل رباط الفتح على قريه منها ووافت عليه هنالك قبائل المغرب وأهل الأمسار فشهدوا العيد معه وأجازهم وكساهم على العادة، ولما فرغ من أمر العيد عين عامل رباط الفتح وهو القائد أبو محمد عبد السلام بن محمد السوسي، وعين الحاج عبد الكريم بن أحمد برئاسة الطاونی، وال الحاج محمد بن عبد الرزاق ابن شقرور الفاسي، للذهاب إلى مادرید دار ملك الإصینیوں بقصد السفارۃ عنه إلى دولتهم والمكافأة لهم على مجيء باشدورهم حسبما مر التنبیہ عليه ففعلوا وعادوا بحيث أدركوا عيد الأضحی من السنة مع السلطان أعزه الله بمراکش، ثم نھض السلطان بعد عيد الفطر من زبیدة يوم البلاط المراكشیة فاجتاز بتادلا وسكن قبائلها وأوقع ببني عمیر وقضى منهم على ما ينامز أربعون مسجون سیقت في السلسل والأغلال إلى السجن وفر بنو موسى إلى رؤوس الجبال حتى استنزلهم السلطان على الأمان ودخلوا في الطاعة والتزموا الخدمة، ثم نھض السلطان أیده الله إلى مراکش فدخلها في عشر ذي الحجۃ من السنة فكان بها عيد لم يعهد الناس مثله منذ قديم، وكتب إلى الآفاق يعلم الناس بما من الله به من النصر والتأیید والفتح والعز المديدة، وأقام السلطان بمراکش في هذه المرة مدة طويلة إلى أن كان من أمره ما نذكره.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين وألف فكانت هذه السنة من أشد السنین على المسلمين قد تعددت فيها المصائب والکروب وتلورت فيها التواب والخطوب لا أعادها الله عليهم فكان فيها أولاً غلاء الأسعار وكان منشاء وابتداؤه من تشقيق السکة في آخر السنة الماضیة، ثم عقب ذلك انحباس المطر لم تنزل من السماء قطرة وأجيحت الناس وهلكت الدواب والأئماع وعقب ذلك الجوع، ثم الوباء على ثلاثة أصناف، كانت أولاً بالإسهال والقيء في أوساط الناس بادية وحاضرة، ثم كان الموت بالجرع في أهل الباڈیة خاصة هلك منهم الجم الغفير، وكان إخوانهم يحفرون على من دفن منهم ليلاً ويستلبونهم من أكفانهم، عشر بسلا على عدد منهم وأمر

السلطان أعزه الله عمال الأمصار وأمناءها أن يرتبوا للناس من الأقوات ما ينتعشون به ففعلوا، وبعد هذا كله حدث الوباء بالحمى في أعيان الناس وأمثالهم فهلك منهم عدد كثير، وفي هذه المسفة مد النصارى أيديهم إلى الرقيق فاشتروه وكان ابتداء ذلك أنهم كانوا يعاملون ضعفاء المسلمين وصبيانهم بالصدقات والإرفاقات ثم تجاوزوا ذلك إلى شراء الرفيق منهم والأمر الله وحده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم دخلت ست وستعين ومائتين ألف فكان في أوائلها موت الناس بالحمى كما قلنا فمات في المحرم منها الوزير الأعظم أبو عمران موسى بن أحمد وكان شعلة ذكاء وتمثال فطنة ودهاء غفر الله لنا له، واستوزر السلطان مكانه الفقيه الأخير أبا عبد الله محمد بن العربي بن المختار بن عبد الملك الجامعي من بيت الوزارة وأهل العراقة فيها، وبلغنا عنه أنه يحب أهل الخير ويلين جانبه للضعفاء والمساكين ويحب السلطان وينصح له ويغار على جانبه المعظم ومحمه المحترم، ويتجافى عن الطمع الذي هو أصل كل مفسدة في الدين والدنيا سدده الله. وفي ظهر يوم الأحد عاشر صفر من السنة المذكورة توفي شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدى أبو بكر ابن الفقيه العلامة القاضي سيدى محمد عواد كان رحمة الله من أهل المشاركة في العلم والاعتناء به، كثير الدرس كثير التقييد ختمنا عليه رحمة الله عدة كتب كبار جعلها الله في ميزان حسناته، منها صحيح البخاري نحو عشر مرات، وصحيح مسلم ثلاث مرات، وشفاء القاضي عياض مراراً، وكتاب الاكتفا لأبي الربيع الكلاعي مرة، وأخرى إلى غزوة خير، وشمائل الترمذى مرتين بشرح أبي عبد الله محمد بن قاسم جسوس، وإحياء الغزالى رضى الله عنه، وعوارف المعرف للسهروردي، وتأليف غيرها من كتب النحو والفقه والبيان والكلام وغير ذلك مما يطول ذكره، وبالجملة فقد انتفعنا عليه واستفدنا منه رحمة الله ونفعنا به، وولى القضاء بعده الفقيه العالم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الجريري عرف بابن الفقيه من بيت العلم والدين والصون وهو رحمة الله يتحرى المعدلة في أحكامه وينتهج صريح الشرع في جميع أمروره سدده الله وكلاه، وتولى

الخطابة بالمسجد بعد شيخنا المذكور شقيقه الفقيه أبو الحسن علي بن محمد عواد وهو مجيد في الخطابة ومن أهل المروءة والدين والعلم وفقنا الله وإياه وال المسلمين لما يحبه ويرضاه ، وفي هذه الأيام استدعى السلطان أいで الله خديمه الأمين الأرضي السيد محمد بن الحاج محمد التازي الرباطي إلى حضرته العالية بالله بمراكش فقدم عليه الأمين المذكور وأجل السلطان مقدمه وأسند إليه أمر خراج المغرب ومراسيه ومستفاداتها وما يتبع ذلك من صوائرها وفوض إليه في ذلك فنويضًا تاماً لعلمه بنصحه وأمانته وضبطه ، وهذا الرجل من أمثل أهل المغرب وأصدقهم وأنصحهم للسلطان وأشدتهم غيره على الدين والوطن حتى لو كان في الدولة عشرة رجال على شاكلته ومذهبة لكان يظن أن يكون لها بذلك النجاح التام نسأل الله تعالى أن يصلح أمرها ويشيد بهم عزها وفخرها . وفي ربيع الثاني من السنة ورد أمر السلطان أعزه الله على ولادة العدوتين أن يوجهوا عدداً من أمرائهم وعدولهم للخدمة السلطانية بالمراسبي المغربية فقدموا عليه بمراكش ، وكان في جملتهم أخونا في الله الفقيه العلامة الحافظ أبو محمد عبد الله بن الهاشمي بن خضراء السلاوي فقال قصيدة في مدح السلطان نصره الله نصها :

أدامك الله في عز وتمكين	لبيك لبيك يا خير المسلمين
وقد أناخ على الطير الميماني	دعوت عبدك فاستجاب مبتدراً
أذكي وأطيب من مسك ونسرين	يهدي إليك تحية مباركة
إذا فاز منك بتخصيص وتعيين	ممرعاً وجنتيه فارحاً جذلاً
مستبشرأ برضى بالنجاح مقرون	مؤملاً راجياً بلوغ مقصدك
حالى وفزت بتقريب وتأمين	يأنجع سعيي وبإشاري قد سعدت
ظل مديداً يظللني ويؤويوني	من مبلغعشري أني أويت إلى
به كفيلاً وذخراً للمساكين	ظل الإله على عباده وكفى
وأين من راحتية نهر سيحون	رب السماح فما معن بن زائدة
عن أن يحيط بها حصر بتدوين	له من ملك جلت مآثره
يضيق عن وصفها بطن الدواين	دعا المعالي فانتدادت ملبية

والفتح رائده في كل ما حين
 وأين ما حل كان خير ميمون
 ماضي العزيمة لا يرضى بتوهين
 أي انتشار يفوق مسك دارين
 وأحسن الأمر في الدنيا وفي الدين
 لكنه بين مفروض ومسنون
 مجاله بين تسكين وتحسين
 فجر ذيلاً على بغداد والصين
 يميس في حلل ذات تلوين
 فخر الملوك سلالة السلاطين
 من السيد الملك المعروف باللين
 بد الليوث وفرسان الميادين
 مذ ألبست ملبس الصغار والهون
 وسطوة بهرت أهل الأواني
 وشاد ما عجزوا عنه بتحصين
 عنه الأوائل في ماضي الأحابين
 كسباً وارثاً من الشم العرانيين
 إلا أتى الفرع منه في أفنانين
 يثنى عليه بمغرب وملحون
 له وأدم بين السماء والطين
 يا نعمة عظمت يا كنز مسكنين
 مأوى العفة ويا سلوان محزون
 يا من أوامره إليه تدعوني
 وليس شيء سوى رضاك يرضيني
 مدى الدهور وللعلى ترقيني
 ودمت في نعم بحق جبرين
 له السعادة قد ألت أزمتها
 ويشر طلعته يسر ذا حزن
 حامي الشريعة والرحمن ناصره
 في كل قطر ثناء عنه منتشر
 ساس العباد بتدبیر ومعدلة
 وليس يعبأ بالدنيا وزينتها
 وطبق الأرض عدله ونعمته
 بسعده الغرب قد بدت محاسنه
 وتأه مزديراً بكل مملكة
 نعم الإمام الهمام المرتضى حسن
 السيد الملك ابن السيد الملك اب
 بحر خضم مغيث سيد بطل
 دانت بطاعته العدا بأجمعها
 وفاق من قبله حلماً ومكرمة
 لا غزو إن نال ما فات الآلى غبروا
 قد يدرك الآخر الشاو الذي قصرت
 تبارك الله ما أسمى مفاخره
 ولا ترى الغرس قد زكت أرومته
 يا خير من أمه الراجي وأكرم من
 ويا ابن خير الأنام من ثبوته
 ويا ملاذ الورى يا من سما كرماً
 يا منبع الجود يا تاج الفخار ويا
 يا من روى عن أبيه رفع سؤده
 وفدت ملتمساً رضاك يا سندي
 فأمنن على بعطفة تصاحبني
 بقيت ما شئت في عز ومقدرة

ولما وقف السلطان أعزه الله على هذه القصيدة هزت من عطفه وأمر أن يسأل منشئها عن مطلبها، فاقتصرح أن يؤذن له في الإفتاء وأن يعطي ظهيراً بالتوقيع والاحترام وأن ينعم عليه بما يقتضي الاعتناء به، فأتعم عليه السلطان أعزه الله بالإذن في الإفتاء وبظهير الاحترام ونفذ له راتباً من أحباس جامع ابن يوسف إعاناً له على الدرس به، ثم كان نهوض السلطان أيده الله من مراكش قاصداً بلاد الغرب غرة جمادى الأولى سنة ست وتسعين ومائتين وألف، فاجتاز في طريقه بتادلاً وأناخ على قبيلة آيت أعتاب فأوقع بهم في أوغارهم وأعز معاقلهم وأوكارهم، وقطع منهم واحداً وعشرين رأساً، ثم زحف إلى بني موسى فأدوا الطاعة وقاموا بواجبها، ثم سار محفوفاً بالنصر واليمن إلى أن دنا من مكناسة الزيتون فزحف إلى بني مطير وكان شررهم قد استطار في تلك النواحي كل مطير، فإنه لما سافر السلطان نصره الله عن مكناسة سنة أربع وتسعين كما مر، زحف بنو مطير هؤلاء إلى عرب دخيسة وأولاد نصیر الذين أنزلتهم السلطان بسais ويواهم إيه عوض مجاط، وأوقعوا بهم وقعة شنفاء، وقد صبرت العرب في ذلك اليوم صبراً جميلاً، حتى أن جماعة منهم قد عقلوا أنفسهم في حومة الحرب لثلا يفروا، وقاتل إخوانهم دونهم حتى كثرهم البربر فقبضوا عليهم باليد وضربوا أنفاسهم، وقتلوا منهم نحو مائتين، وهلك من البربر مثل ذلك أو أكثر، ولما انهزمت العرب عمد بنو مطير إلى مجاط فأنزلوهم بسais على ما كانوا عليه قبل، ثم انطلقو في الطرقات بالعيث والإفساد فيها والنهر للمار، ولم يدخلوا شيئاً من الشيطنة ليوم آخر، وكثرت الشكيات بهم على السلطان وهو بمراكش، فلما قدم أعزه الله قدمته هذه لم يقدم شيئاً على تأديبهم فنهض إلى رأس بلادهم ومزرعة فسادهم آكري وال حاجب وغيرهما وتقرى آثارهم في تلك الجهات حتى جاوزت عساكره الحاجب بمسايف كثيرة وتوغلت البربر في قنن الجبال، فأمر السلطان أدام الله علاه بني مكيلد أن يزحفوا إليهم من ناحية قبلة آكري، فزحفوا وانبوا على حدودهم إلى غابة افقفاق التي هي الحد بين بني مكيلد وأيت شعروسن وأيت يوسي، فحصروه من تلك الجهات ثم نزل بإزائهم

آيت يوسي وآيت شغروسن وآيت عياش وآيت والان من جهة الشمال وامتدوا إلى حدود وادي النجاة وربط حذوهم من جهة الغرب وراء وادي النجاة القائد العربي بن محمد الشرقي المدعو بابا محمد ووصل جناحه عليهم قبائل الغرب والحوز، وصار بنو مطير في مثل أفخوص القطة وضاق بهم رحب الفضاء وأيقنوا بالهلاك والبوار لفظتهم السهول والأعوار، ونهبت الجنود زروعهم القائم والخصيد، واستخرجت من مخزونهم الكثير والعتيد، ولما انتهى الحال بهم إلى هذه الغاية تطارحوا على السلطان بالشفاعات، وأكثروا من التوسل بالذبائح والعارات، فرق لهم وأقلع عنهم بعد أن ألزمهم إعطاء خمسمائة مرهون ووظف عليهم مائة وخمسين ألف ريال بعد أداء الحقوق ورد المظالم، وشرط عليهم إخراج قبيلة مجاط من بين أظهرهم، وضمّنهم طريق مكناسة وفاس وجعل العهدة فيها عليهم جرياً على عادتهم القديمة من جعلهم النزائل بها والحراس فالتزموا ذلك كله وأدوه، وبعد ذلك نهض السلطان عنهم إلى مكناسة فدخلها أواخر رجب الفرد من السنة واستمر بها إلى أن دخلت سنة سبع وتسعين ومائتين وألف، فنهض إلى فاس ولما احتل بها فرق الجيوش في التواحي لجباية الزكوات والأعشار والوظائف المخزنية، فانتهت السرايا والبعوث إلى آيت يزدق من برابرة الصحراء فأذعنوا وأدوا ما كلفووا به من الزكوات والأعشار وغيرها، وإلى آيت يوسي وغيرهم فأطاعوا وأذعنوا، إلا آيت حلى وهم بطن من آيت يوسي فإنهم انحرفوا عن عاملهم وأبوا من أداء ما وظف عليهم فأوقع بهم جيش السلطان وقطعوا منهم عدداً من الرؤوس وساقوا مثلها من المساجين فعلقت الرؤوس بأسوار فاس، وبعد ذلك أذعن آيت حلى للطاعة فقبلهم السلطان أيده الله وألزمهم ولاية عاملهم الذي كانوا منحرفين عنه وكان ذلك في أواخر صفر من السنة المذكورة، ثم كان عيد المولد الكريم فاحتفل له السلطان على العادة، وبعث إلى حضرته صاحبنا الفقيه أبو محمد عبد الله بن خضراء بقصيدة ميلادية يقول فيها:

أمل المديع محبراً يا منشد
وأعده تطريباً فذلك أحمد
هذا أوان مسيرة وسعادة
هذي الليالي الغر هذا الموعد

أو ما تشاهد نورها يتردد
في عالم الأجساد هذا المولد
متأدباً ويعيده ويردد
ويجيده نظماً بديعاً ينشد
لكنه في ذا الأوان مؤكداً
مع فجرها طلع النبي محمد
من معجزات بالنبوة تشهد
عين المحب وضاق منه الأحقد
إن الدعاء له لحق أو كد
حضرروا لديه وضمهم ذا المشهد
أمم وقد كانت قديماً تشرد
فالكف منه للعفة المورود
علياء يقصر عن علاها الفرقد
نف إن ذا لهو الحليم الأجدود
قدراً وأسبقهم لأمر يحمد
منه يغافر قربتها والأبعد

أو ما ترى علم البشارة لائحة
هذا زمان ظهور طلعة أحمد
طوبى لمن يروي غريب حدثه
طوبى لمن يقضى حقوق مدحه
فمدح خير الخلق أعظم قرية
يا ليلة ما كان أعظم قدرها
فاسرد شمائله الحسان وما له
واذكر عجائب مولد قرت به
واجعل دعاءك للإمام المرتضى
واملاً بدر مدحه أسماع من
ساس الرعية صادقاً فعنلت له
من كفه فاضت مواهب جمة
طود أتآد شامخ ذو همة
ما جود حاتم طيء ما حلم أحد
أزكي الملوك أرومة وأجلهم
باهى به الغرب الممالك فاغتندى
ومن آخرها :

مولاي يا ناج الملوك وفخرهم
الله موسم مولد لك عائد
لا زلت ممنوحأ جلال أنعم
لا زلت محروساً بعين عنابة

وفي ربيع الثاني من سنة سبع وتسعين وألف ورد كتاب السلطان
أعزه الله على قاضي سلا بتعيين صاحبنا الشريف الأديب فلكي العصر أبي
العلاء إدريس بن محمد الجعیدي السلاوي للذهاب إلى مراكش برسم القيام
على إحصاء صائر السلطان بها بدلاً عن الفقيه أبي محمد عبد الله بن

حضراء، فامتثل الشريف المذكور وسافر في التاريخ المذكور ومدح جناب السلطان أسماء الله بهذه القصيدة التي يقول فيها:

سعياً على الجفن لا مشياً على القدم
لبيك يا منقذى من لجة العدم
وذي مناي كما في سابق القدم
فذا أوان سعود كنت أرصدته
ولا يحال بائي أحقر الخدم
 فهو المرام وكل العز يعقبه
يقرى الضيوف ويغنى صاحب العدم
قصدت أعتاب ملك شامخ بهج
وهل يخيب نزيل الجود والكرم
أنزلت رحلي بها وعندها أملى
فهاب أهل الحسام سطوة القلم
شمرت عن ساعدي والأذن واعية
بعدله فغدا يميس في نعم
أرضى بذلك الذي أضاء مغربنا
قدراً وأسبقهم لكل مفتون
أذكى الأئمة شيمة وأرفعهم
تروع صولته الأسود في الأجم
أميرنا الحسن محمود سيرته
ونال ما عجزت عنه ذروه الهم
نجل السلاطين قد أحيا مآثرهم
فساد عند ملوك العرب والعجم
قد شاد للدولة الغراء مفترها
وخيرمن قد مضى في غابر الأمم
تاج الملوك وفخرهم وسيدهم
وكل نحس عداه وهو عنده عم
قد لاحظته السعود وهي في شرف
والفتح يخدمه من جملة الخدم
النصر سابقه والسعد قائده
والجود سيرته والحلم حليته
أقوا سلاحهم مخافة النقم
ليث إذا ما أحس الحي سطوطه
غوث توسل به لباري النسم
غيث إذا الأرض يوماً مسها عطش
ومفحم باهر بأفصح الكلم
مدير عالم مفكر فطن
ونوره يهتدى به لدى الظلم
كل الفهوم له ألت أزمتها
بها يقاوم من بغى ويدمغه
بها يدافع أهل الريب والتهم
كم دبر الروم من كر ومن حيل
توجو النجاح بها والنصح في عقم
يرى بنور حجاه كل عاقبة
وعين تدببه للأمر لم تنم
فصل الخطاب حباء الله مكرمة
وحكمة عظمت من أبدع الحكم
فاطلب رضاه ودم على محبته
مدا الدهور وجانب داعي السلام

وسيب يمناه مثل الزاخر العرم
يبينا بنعمته كالارض بالديم
فاقرع بصدقك باب الجود تغتنم
وابقبل نصيحة من حبك واستقلم
مستمسك بجوار منك لم يضم
في الناس أشهر من نار على علم
ما الدهر أفضى به لقبضة الهرم
منكم صفار به تداس بالقدم
وأنت ذو جذل وهم ذو غنم
واحرس جنابي به من سائر الآلم
ويوري به حبل عروتي بمنفص
أرجو قبولاً ووصلأ غير منصرم
بإله أمرك نافذ على الأمم
 وكل الأعادي ولا برحث في نعم

فهؤ المني لذوي الحجا وبغيتهم
يدني الأصول إلى نيل الوصول ويحد
ما زال يحيي بها بلاد مغربنا
واسلك سبيل الصفا تبل به شرفاً
يا غاية القصد إني راغب طرب
مولاي يا من مزاياه وأنعمه
مولاي أنت الذي تعنى الضعف إذا
بشكك إن الفرج سوف يدركها
فأنت ذو مدد وهم ذرو نكد
مولاي جد برضاك لي وخذ بيدي
واجعل ثياب الرضى سترة على ولا
فها أنا ذاك عند باب سيدنا
أبقاءك ربك في عز ومسكمة
أدامك الله منصور اللواء على

وفي آخر هذه السنة ورد كتاب السلطان أيده الله باستدعاء صاحبنا أبي محمد بن خضراء المذكور آنفاً لتوليه خطة القضاء بحضور مراكش فامثل ووفد على أمير المؤمنين أدام الله علاه بحضرته السعيدة من فاس المحروسة بالله فولاه القضاء بمراكش وسار إليها وهو الآن بها محمود السيرة حسن السيرية سدده الله وكلاه، وقال في وفاته على الحضرة الشريفة قصيدة يمدح بها الجناب المولوي ونصها:

ولك الكمال كما تشاء موفرا
في ضمته إسعاده بين الورى
يا سعد من أضحت بها مستبشرًا
لم يلهمه أهل ولا حب الذرى
يلقى بها وجه الأمانى مسفرًا

لبيك دمت مؤيداً ومظفراً
وأفي خديمك أمرك العالى الذى
إذ خص دونهم بأشرف دعوة
فأجلاب مبتداً إجابة صادق
وطوى المراحل كي يحل بحضوره

داراً أعز حمى وأبهى منظراً
 وأناخ فيه خاضعاً ومعرفاً
 أذكي من المسك الذكي وأعطراً
 لك بالبقاء مهنتاً ومبشراً
 كرماً وحق لمثلها أن يشكراً
 ويصوغ مدخلك صوغ تبر أحمراً
 يا فوزه إن بالرضى هو بشرًا
 ودنت منه وارتقى واستبشرًا
 يمم حمى المولى الهمام لتظفراً
 عن أن تعد خصاله أو تحصاراً
 خلقاً كريماً لم يضاهي ومخراً
 كل الأنام وفاق غيشاً ممطرًا
 وأنامهم في ظله متبصرًا
 .ويدل ظاهره على ما أضمرًا
 فغدا به أفق المكرم مقعراً
 ويرى اكتساب الحمد أربح متجرًا
 من سعده ذا القطر انعم أزهراً
 نسباً شريفاً ما أجمل وأطهراً
 وحوى مأثر حقها أن تؤثراً
 في رأيه الميمون ليس مقصراً
 أو رفده أو حلمه أطرق كراً
 هذا همام لن يجارى إن جرى
 وافتت بابك أبتعني منك القراء
 فأنلنى الحظ الجزيل الأوفراً
 إلا مدحوك هاك منه جوهرًا
 خذه إليك منظمًا ومحبراً
 فبدت له الدار المنيفة يالها
 ونحا الجناب المستجار بظله
 يهدى إليك تحية مختاراً
 ويمد كفيه بصدق داعياً
 ويجيد شكر مواهب أوليتها
 ويعيد ذكر محاسن أوليتها
 ويروم إقبالاً عليه بالرضى
 إن ناله نجحت له آماله
 يا من يومل رفعة وسعادة
 ملك عظيم القدر جل كماله
 ملك كريم الطبع عز مثاله
 ملك جزيل الفضل عم نواله
 ملك أفاخر على الرعية خيره
 ملك جميل سياسة وسريرة
 ملك ترقى في سماء مكارم
 ملك رحيم خاشع متواضع
 قررت به عين الخلافة واغتندي
 من أهل بيت المصطفى أكرم به
 جمع المفاحر مكسيًا ووراثة
 ماضي العزيمة في الأمور مسدد
 قل للمحاول شاؤه في مجده
 هذا همام لا يشق غباره
 مولاي يا أزكى الأنمة شيمة
 لا أبتعني إلا الرضى وكفى به
 مولاي ما عندي إليك هدية
 نظمته فكرة مخلص متعدد

لا زلت في نعم تدوم ونصرة وسعادة لا زلت أنت الأكيرا
 لا زلت في حلل العناية رافلاً لا زلت في ملك كبير أبهرا

واعلم أن الأمداح في جناب هذا الملك الجليل الشريف الأصيل كثيرة،
 والقصائد المفصحة عن علو قدره وشموخ مجده وفخره شهيرة خطيرة، لا
 سيما لأصحابنا السلاويين من ذكرناه منهم وممن لم نذكره، ولو لا خوف
 الإطالة لأثبتنا من ذلك ما يزري بالحبر ويصح بالذكرى وال عبر، وفيما ذكرناه
 كفاية والله يجزي كلّاً بنيته وخلوص طويته.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف فيها تجددت الشروط بين
 السلطان أعزه الله وبين أجناس الفرنج في سبيل تأكيد المهادنة وجلب نفع
 التجارة، وكان من جملتها أن النصارى وأهل حمايتهم يلزمون بغرامة
 الوظائف المخزنية المرتبة على الأبواب كسائر رعية السلطان، وقدر ذلك
 الوظيف ستة بلايين لكتل حمل، وفي هذه المدة التي هي أواسط السنة
 المذكورة أخذ السلطان أعزه الله في التأهب للحركة والنهوض من مكناسة
 الزيتون فاقداً حضرة مراكش الحمراء فاحتلها في آخر السنة المذكورة وعيده
 بها عيد الأضحى.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف فيها تحرك السلطان أعزه الله
 لغزو بلاد السوس الأقصى، فأخذ في التأهب والاستعداد لذلك وأمر قبائل
 دكالة وتمامستا بحمل القمع والشعيّر والتبن إلى مرسى الجديدة، ومرسى الدار
 البيضاء ليحمل منها في المراكب إلى ساحل السوس الأقصى بقصد إرفاق
 الجيش وإعانته، وكان السبب في ذلك أن جنس الإسبانيول كان متشوّفاً
 لتملك بعض المراسي السوسية منذ انعقاد الهدنة معه عقب حرب تطاوين،
 وكثيراً ما كانت مراكبه الحربية والتجارية تتردد إلى تلك النواحي فيستهوي
 أهلها بأسباب التجارة ونيل الأرباح فربما سكنوا إليه وربما نفروا منه، وتكمّل
 السلطان أعزه الله مع كبرائهم في ذلك فاحتلوا بأن صلح تطاوين كان منعقداً
 على فتح بعض المراسي السوسية وأنهم الآن قد عزموا على الأخذ بشرطهم

المذكور وإلا أفضى الحال إلى ما لا يليق، فرأى السلطان أعزه الله أن من الواجب أن ينهض إلى تلك البلاد ليباشر أمرها بنفسه لا سيما وكان أهلها قد بعد عهدهم بإجراء الأحكام السلطانية فيما بينهم على مقتضياتها، فنهض إليها في رمضان من السنة المذكورة فانتهى منها إلى قرب وادي نول ومهد أقطارها وللبي على أهلها القضاة والعمال، واتخذ هناك مرسى للوقت والوضع تسمى آساكا، وكتب في ذلك كتاباً لولاة المغرب يقول فيه بعد الافتتاح: أما بعد، فإننا لما نهضنا من مراكش بحول الله وقوته وسطوته الباهرة وصوته، وج gioش الله المظفرة موفورة، وجندوه سبحانه مقطورة، وأعلامها منشورة منصورة، نهضة معتمدة على مولاها، متقدلة لما قذف في قلبه فأبداه، متمسك بعروته الوثقى التي من استمسك بها بلغ مناه، وانتهينا بمعونة الله لمبدأ هذه الأقطار السوسية، وامتنينا صهوتها وهي ذلولاً في دبوع اليمن ساعيه، وبينود الله خافية على مفارق الظفر ويدرى المجد سامية، تواردت على حضرتنا العالية بالله الوفود متناسقة متابعة، وانتظمت في سلك السمع والطاعة والخدمة الجامعية، فتسارعوا إلى ما إليه دعوا، وتلقوا تلقي الظمان فنهلوا وكرعوا، وأوقدوا لوفود كبرائهم وأعيانهم وأشياخهم مصباحاً، واستضاؤوا بضياء نور الله غدوا ورواحاً، ومدوا أعناق الإذعان، وبسطوا أيدي المسالمة والإبقاء عليهم والامتنان، بعد ما كانت قد بلغت منهم القلوب الحناجر، وارتعدت فرائصهم من هيبة الله ثم اطمأن البر وشرق الفاجر، وانتهيت أجياف المراسم المخزنية التي عفت بعد نومتها، فانظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، وصرفنا إليهم عنان الترتيب، بعد أن وطأنا لهم كتف الترحيب، فيؤنا من توسمنا فيه الأهلية للتولية على إخوانه مهاداً، وقلدناه أمرهم جمعاً وفرادى، وضربنا للكل فيها على مقتضى السياسة بمعونة الله بسهم مصيبة، وأربعيناه من مريع خدمتنا الشريفة المرعى الخصيب، حتى وقع التمكّن من أزمتهم، وأجلسنا خاصتهم وعالهم على أسرتهم، فاتصلت بهم المخزنية اتصال الأرواح بالأجساد، واستثارت هذه الأرجاء بنور الله استثاره عمّت الحاضر والباد، فأدوا من الطرف والهدايا ما فيه غنية لمن ركب متن المزايا

مع كون البلاد لم تنكح بالمخزن مدة من السنين تيف على عدد الستين، ولو لم نزل من هذ الفتوح الباهرة بفضل الله إلا عشرًا، لكان في جنب من قدم عهده بالمخزنية كثراً، ولكان ما عودنا سبحانه إلا الجميل، إذ هو المتصرف الغني القاهر القوي الكفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ثم ولينا عليهم من الفضة من فيهم الكفاية لإقامة شرائع الدين، ولم نأله جهداً في انتخابهم من أمثل المقلدين، علمًا بأن الشرع عليه المبني، وبه يعمر المعنى، ويغزر الحس والمعنى، ثم تطارح شرفاؤهم ومرابطوهم على أعلى جنابنا بإقرارهم على عوائدهم، وإيقائهم على أعرافهم ومحاتدهم التي عندهم عليها ظهائر أسلافنا المقدسين، أئمة المسلمين وأمراء المؤمنين، وكذا ظهائر من غير من الملوك المتقدمين رضوان الله عليهم أجمعين، فانتهجنا نهجهم وسمكنا بحول الله أوجهم، وساعدناهم فأقررنا وجدنا لكل ظهيره، وأجريناه على ما أنسن له من المجد وجعلناه نجيه وسميره، وحيث كان القصد الأهم من هذه الوجهة المباركة هو حماية ذمار هؤلاء المسلمين، والدفاع عن بلادهم ورقبتهم وأموالهم مما طمحت إليه نفوس المؤمنين، وكان ملاك ذلك هو فتح المرسى بوادي نول بمحل يسمى آساكا بأرض قبيلتي تكتة وآيت باعمران، إذ بفتحها يستقيم أمر الدفاع ويسهل على أهل ذلك المحل البيع والابتاع، يقيناً بأن سد أبواب الضرر من الأمر المحظوم، وإرشاد الضال في الشرع من المقرر المعلوم، تسابق القبيلتان المذكورتان اللتان تلقيتا جنابنا العالى حين عبرنا وادي والغاز وقصدنا بجيوس الله بلادهم قصد طبيب آس، فتلقو ركبنا السعيد بمحل يعرف بأصاوا قرب مرسى تسمى باكلو، إذ هو الطرف الموالي لآيت باعمران المسمى بالساحل، وإليه شدت هذه المراحل، وبين أصاوا ومحل المرسى الذي أريد فتحه مرحلتان وبثلاث عشرة ساعة ميقاتية مقدرتان، فأتوا بشرفائهم وفقهائهم ومرابطيهم وأعيانهم وأشياخهم المالكين لقيادهم فقوبلوا بما قوبل به أمثالهم، وناسب أن يتصرف به حالهم، ثم ولينا عليهم عدة من العمال جعلناهم بحول الله عدة في تلك الأعمال، وحيثند وقع الكلام معهم في شأن المرسى، فامتثلوا ما أمرناهم به من فتحها امثال

من أضحتى يتقلب في رضا الله ورسوله وأمسى، ثم وجئنا معهم سرية من أعيان الجيش معتبرة، ومعهم من الفقهاء والمهندسين من يعتد بهم في رسم تلك المرسى وتخطيطها على نهج القواعد المقررة، والأعمال المحررة، اقتضى المقام والحال تسييقها رفقاً بعبد الله، واعتباراً بأن الله سبحانه قد قضى الغرض ووهره وأسداه، وما تشاوون إلا أن يشاء الله، قل إن الفضل بيد الله، وما بكم من نعمة فمن الله، ثم أقمنا في محل المذكور لانتظارهم في تشييد منارهم، فإن انقلبوا بالمقصود فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن لم يشفوا الغليل شدتنا بحول الله لذلك المرسى عزمات الرحيل وقطعنا تلك المفازات، هذا وقد نصبنا قائداً من قواد جيشنا السعيد مختاراً من ذوي الرأي السديد، وأقمناه بقصبة تيزنيت محل المخزن في القديم، يقصد أن يكون إعانته لسائر عمال القطر السوسي من وادي والغاس إلى منتهى وادي نول وكليميم، يتفاوضون معه فيما عسى أن يعرض لهم من المهام، ولا سيما إذا كان المخزن بعيداً عن هذه الشرفات، بعد ما عرفناهم بأننا أقمناه مشرفاً للتفاوض معه وبصيرة على ما قصدنا من فتح ذلك المرسى، لإشارة للنعمى ودفعاً للبؤسى، ففرحوا بذلك فرح الظمان الوارد، والضال الواجب، ووقع الإشهاد عليهم بكل ما فصلناه، وأبرم عقده معهم على نحو ما رسمناه، فكان ذلك تمام العمل الذي قصدناه، والمورد الذي أردناه وانتحبناه، والله تعالى يخلاص في ذاته العمل، ويجعل هذه الوجهة المباركة بفضله ومنته من الجهاد المتقبل، إنه جواد كريم متفضل غني حليم والسلام في متم شعبان عام تسعه وتسعين وألف، انتهى كتاب السلطان أيده الله.

وفي أواخر صفر سنة ثلاثمائة وألف قام نواب الإصبنiol من مراسي المغرب الأقصى بعد أن أقاموا بها نيفاً وعشرين سنة لاستيفاء ما وقع الصلح عليه في حرب تطاوين، وكان جملة المال المصالح عليه عشرين مليوناً من الريال الكبير، وكان السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمة الله قد دفع منه عشرة ملايين معجلة والعشرة الباقيه هي التي استوفاها الإصبنiol في المدة المذكورة أقام أثناءه مع أمراء السلطان بمراسي المغرب،

فكان كل فريق يستوفي نصف الداخل حتى تم العمل، وفي صبيحة يوم الاثنين ثاني ربيع الثاني من السنة المذكورة توفي الشيخ المنور الذاكر الخاشع أبو عبد الله محمد الهاشمي الطالبي من صلحاء أهل سلا، وكانت وفاته فجأة تعشى تلك الليلة عشاء خفيفاً على عادته وصلى العشاء وتلا أوراده منفرداً في بيته كما كان يفعل ثم أصبح ميتاً من غير أن يحضره أحد، وكان قد ناهز الثمانين وشاخت وابيضت لحيته ورأسه، وحضر جنازته الجم الغفير من أهل العدوتين سلا والرباط وزدحروا على نعشة وتناوبوه تبركاً به، وصلى عليه بالمسجد الأعظم من سلا عقب صلاة الظهر ودفن بالبيت القبلي من داره، وتردد الطلبة إلى قبره مدة لقراءة القرآن والبردة وغيرها من الأمداح، وعظم مصاب الناس بمותו وكيف لا وقد كان مصباح العدوتين بل وغيرهما في زمانه مع ما أكرمه الله تعالى به من التواضع وحسن الخلق وبين العاجب مع سبيلهم من أمثالهم رضي الله عنهم، وكان مجلسه مجلس علم وحياة ووعظ وذكر للأولياء والصالحين وسيرهم وأخبارهم لا يسمع في مجلسه لغو ولا خوض في دنيا إنما هو سرد الأحاديث وأخبار الصالحين ونحو ذلك، محافظاً على الصلوات وقيام الليل والأذكار وبذل المعروف والأمر به ما أمكن، وبالجملة فقد كان في سيرته وأخلاقه على مقتضى السنة النبوية وأثار السلف الصالح رضي الله عنهم ونفعنا بمحبتهم ومحبة أمثالهم آمين. وبعد غروب الشمس من ليلة الجمعة فاتح ذي الحجة من السنة المذكورة توفي الفقيه العلامة البارع أبو عبد الله محمد بن المدنى كنون عالم فاس والمغرب وصلى عليه عقب صلاة الجمعة بجامع الأندلس من فاس حرسها الله، ودفن بالموقع المعروف بالقباب، وكان رحمة الله فقيها عالماً متضاعفاً قوله بالحق صادعاً به لا يهاب في ذلك كبيراً ولا صغيراً، ولقد امتحن في ذلك من قبل السلطان فلم يفل ذلك من غربه، ولم يوه من صرامته ولا حده، وله عدة تأكيل من أحسنها اختصار حاشية الرهوني على مختصر الشيخ خليل جدد الله عليه الرحمات آمين.

ثم دخلت سنة ثلاثة وثلاثمائة وألف ففي ليلة العشرين من صفر منها وقع في النجوم تنازير كبير ورمي شديد تشيرقاً وتغريباً وغير ذلك على خلاف المعتاد حتى لقد ذكرت قول بشار بن برد الأعمى في وصف الحرب:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهارى كواكبه

ودام ذلك من وقت الغروب إلى نصف الليل، وفي هذه الأيام كانت بين جيوش الرجل المنصور القائم ببلاد الحبشة والنوبة المتمسني بالمهدي وبين جيش النجليز حروب عظيمة بعد العهد بمثلها، وكان للمهدي المذكور على النجليز غاية النصر والظهور ولو لا أن التعرض لخبره ليس من موضوع الكتاب لشرح ذلك فإن أمره عجيب جداً، وفي أواسط ربيع الأول من السنة المذكورة ورد أمر السلطان أيده الله بتسريع ما كان موظفاً على أبواب المدن والقرى مما كانت تؤديه العامة على أحمال السلع والتجارات من المكوس، وكتب في ذلك إلى عامل سلا وفته بما نصه بعد الافتتاح والطابع المشتمل على اسم السلطان أيده الله: خديمنا الأرضي الحاج محمد بن سعيد السلاوي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد، فقد شرح الله صدرنا لرفع العطاء في سائر الأبواب بالمدن والمراسي عن كل ما يمر به عليها داخلأً وخارجأً، وأصدرنا أمرنا الشريف لأمين المستفادات بثغر سلا المحروس بالله كغيره بيانهاض المشترين لأبوابه العجالسين للقبض بها والمتصرفين في شؤونها لحال سبيلهم، وإعمال الحساب مع مشتريها المذكورين على ما تصرفاً فيه إلى يوم الانهاض، وتوجيه القائمة بذلك لحضرتنا العالية بالله وغير الأبواب من الأماكن المعطى فيها وعليها تبقى على حالها حتى نظر في أمرها بحول الله، وأعلمتك لتكون على بال السلام في ثاني ربيع الأول عام ثلاثة وثلاثمائة وألف، ولما ورد هذا الكتاب فرح الناس به ودعوا للسلطان بالنصر والتأييد من خالص نياتهم، نطلب الله تعالى أن يتم نعمته على المسلمين بتسريع ما بقي موظفاً من مبيعات الأسواق وبريع الناس من شؤمه فإنه لا شيء أشام من هذه المكوس على الدول نسأل الله العافية، وفي عاشر جمادى الثانية من

السنة المذكورة خرج السلطان مولاي الحسن أيده الله من حضرة مراكش غازياً بلاد السوس الأقصى وما وراءها من عرب معقل وسائر قبائل الصحراء لما بلغه من اضطراب الرعایا بتلك البلاد وخروجهم على ولاتهم، وأن بعض تجار النجلیز قد تصور على مرسي بتلك السواحل يسمى طرفاية ووصل يده في البيع والشراء ببعض القبائل الذين هناك وأراد أن يبني بال محل المذكور، فنهض السلطان أيده الله لجسم مادة هذا الفساد، ولما توسط بلاد السوس وأصلاح أحوالها وثقف أطراها كتب كتاباً إلى ولاة المغرب يقول فيه بعد الافتتاح ما نصه: وبعد، فإننا بحول الله القوي المعين الفاتح لما أغلق كما يشاء في الحين أو بعد حين، المؤيد بعنایته عبده في كل مصدر ومورد وتحريك وتسكين، كتبنا إليكم هذا يوم حلولنا وسط خدامنا قبائل آيت باعمران، بحبوحة مجتمع قبائل السوس الأقصى ومناخ الأعيان، نعلمكم بما واجهنا المولى سبحانه في هذه الحركة المباركة من تعاقب المحن والأيادي وابتسم نُفر الزمان، بما أملناه من العلي المنان، في هذا النادي لتعلموا أن الله على كل شيء قادر، وبهذه مقاليد السموات والأرض وهو الولي والنصير والسمع والبصر، فكان من أمر هذه القبائل السوسية والقاسملة الساحلية أن تلقوا ركبنا السعيد أفواجاً أفواجاً ناشرين أعلام الفرج تجاه جيوش الله المظفرة سري وإدلاجاً حاشدين جموعهم مصحوبة بأعيانهم ومن يعتد به من فقهائهم وشرفائهم ومرابطيهم من غير أن يكون جمعهم خداجاً مستنجين للفوز بخاطرنا الشريف مقدمات الامتثال والسمع والطاعة لله ولرسوله استجاجاً، مقدمين بين يديهم هداياهم متترسين بأبنائهم وإخوانهم وسراباهم، مادين أعناق الامتثال، عاضين بالنواجد على الخدمة وصالح الأعمال، فأنوا بمؤنthem على قدر الاستطاعة، ومهدوا لسلوك الجيش السعيد ما صعب من طرقهم حتى صارت مسلوكة مشاعة، ونحن في كل ذلك نعاملهم بالبرور، ونبسط البشر إليهم ونقابلهم بما ارتسם فيهم من السرور، وها نحن بحول الله جادون في الخلوص إلى المقصد الذي لأجله نقلنا هذه الخطوات، واستعملنا

فيه الفكر وأسهرنا أحذاف الاعتبارات، من صرف النظر لفتح مرسى آساكا، مركز ساحل وادي نول، ومجمع القبائل العربية والبربرية ومنتهاي ذلك المسكون ولا سيما من جاءت بينهما كalam والعنصر وهما كالتأمين لها يستمدان منها ويرضعا خلاصة لبن ثديها، وهما القبيلتان الباعمرانية والتكتنة ومن تراكم عليهما وارتدى، من قبائل العرب والبربر أو كان على حكمهما فيما ارتفع وارتشف، هذا إن كانت تصلح لذلك وتعود منفعتها على المسلمين والإسلام بعد الاستخارة مراراً في اختطاطها وتحقيق بصلاحيتها كشفاً واستبصاراً، ونتوخي في الإقدام على ذلك بحول الله الأسد من الأنوار، والمنهاج القويم الجاري على اعتراف هاتيك الأقطار، ثم إن كانت موافقة للأصلاح أقدمنا وإن لم يظهر وجه المصلحة أعرضنا عنها إلى غيرها، قال الله العظيم : ﴿مَا تَسْعَ مِنْ مَأْيَةٍ أَوْ نُسْبَهَا ثُلَّتْ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ يُشَلَّهَا﴾ [البقرة: 106] وما آلت إليه الأمر نعلمكم به ونشف آذانكم بما سمع من سره ، فإنه لكل عمل نتيجة بعد العنوان ، والله المولى المستعان والهادي إلى سوء السبيل ، وهو نعم المولى ونعم الوكيل والسلام في تاسع شعبان الأبرك عام ثلاثة وثلاثمائة ألف . ثم تجاوز السلطان أيده الله قطر السوس الأقصى إلى صحراء كليميم فوفدت عليه هناك أشياخ عرب معقل وكبارها خاضعين مطيعين ، وفرحوا بمقدم السلطان ووطنه بلادهم غاية الفرح حتى لقد اتخذوا موضع خياله الذي كان مضرورياً به مزاراً يتبركون به إلى الآن ، إذ لم يكونوا هم ولا آباءهم من قبل رأوا سلطاناً بأرضهم ولا سمعوا بوصوله إليهم ، وأجروا خيولهم وإبلهم بمحضره ولعبوا عليها بالبارود ، إذ عادة عرب الصحراء أن يسابقوا على الإبل كما يسابقون على الخيول ، ومن هناك وجه السلطان أيده الله كتبية من جيشه إلى مرسى طرافية فغيروا ما كان أحدهه أولئك التجار من النجلizer بها ، وطمسوا أعلامه وفر من كان بها من النصارى إلى بابوراتهم التي كانت على ذلك الساحل ، وأمر أيده الله ببناء مرسى آساكا واتخذها محلآً للموستق والوضع هناك ، ورتب الحامية والعسات بذلك

السواحل من آكادير إلى كلنيم، وكتب بذلك كله إلى ولاة المغرب، وقفل راجعاً فأوقع في رجوعه بقبيلة ذاوثنان من أهل السوس الأقصى، ثم كانت عاقبة القضية النجلالية أن قام فيها أرباب دولتهم وقعدوا وخروا في التشغيب على عادتهم ووضعوا حتى وقع الصلح على مال دفعه السلطان إليهم تسكيناً للأمر ودفعاً لما هو أعظم والأمر لله وحده.

وفي عشية يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من جمادى الثانية من السنة المذكورة غيمت السماء غيماً كثيفاً أسود وذلك بمراكب ونواحيها وهبت ريح سوداء مع رعد قاصف ثم نزل برد مثل البيض وأعظم، وتهدمت بمراكب دور كثيرة ومات تحت الهدم خلق كثير نيفوا فيما قيل على المائة وفر الناس إلى أضرحة الأولياء بعد أن دعوا عشائرهم وأحبتهم ولزموا الاستغفار والتصرّع إلى الله تعالى حتى انجلى الغيم بعد نحو ساعتين والحمد لله على حلمه بعد علمه وعلى عفوه بعد قدرته.

وفي هذه السنة اشتد حرص أجناس الفرنج على تنقيص صاكمة الأعشار وطلبوها من السلطان أيده الله أن يحط عنهم من صاكمة السلع الموسقة التي كانت مسرحة من قبل وأن يسرح لهم ما كان متفقاً قبل ذلك وأبدوا في ذلك وأعادوا وقاموا فيه وقعدوا، فلما رأى السلطان أيده الله شدة حرصهم وتكلّبهم كتب كتاباً إلى الرعية يستشيرهم فيه ويقول بعد الافتتاح: أما بعد، فقد كان طلب منا بعض نواب الأجناس بطنجنة على وجه الخير والمحبة فيما سلف من أعوام تجديد شروط التجارة بقصد تسريح الأشياء الممنوعة الوسق كالحبوب مطلقاً والأنعام والبهائم ونحو ذلك ونقصان صاكمة الخارج ذاكرين أن تسريح ذلك فهي النفع لبيت المال وللرعية وهذه مدة من خمسة أعوام ونحن ندافع ونسدد ونقارب بما يقتضيه الوقت والحال عملاً بقول سيد الوجود ﷺ في وقائع وقضايا «سددوا وقاربوا» لإبقاء ما كان على ما كان، إذ لا أقل من ذلك سيما في هذا الزمان الذي أشار إليه ﷺ بقوله: « يأتي على الناس زمان يمر فيه الحي على قبر الميت فيقول: ليتنى مكانك» وحاشى الله

أن ننسب لل المسلمين في غلاء أو نوافق لهم على ضرر وكفى بالله شهيداً، وكيف والله سبحانه قد استرعانا عليهم والنبي ﷺ يقول: «كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته» والآن قد اشتد حرصهم على ذلك وتمالؤوا فيه على كلمة واحدة وصمموا عليه ولما أفضى الحال إلى ما أفضى إليه مما لا ينبغي ولم يمكن إلا الإعلان بذلك والمشاورة فيه مع من يعتد به استشرانا فيه جميع من يشار إليه بالخير والفضل والدين والعقل والذكاء والدهاء موثقاً بديانته وأمانته فلم يشيروا فيه بخيار واتفقوا على أن لا مصلحة في تسريح ذلك أصلاً، وبينوا ما يترب على الكل من المفاسد ففصل الحيوان أول ما يترب على تسريحه من الضرر غلاؤه على ضعفاء الرعية بل يؤدي إلى فقده بالكلية من هذه الإيالة، وأشياء آخر لا يفي بها التعبير هنا، وفصل النقص من الصاكة يترب عليه ضعف المدخل الذي منه يقوم المخزن الجيش والعسكر ومصالح الرعية وأعظمها تضييف الرعية بالقبض منهم كتضييف المكوس وضرب الخراج عليها تقوية لبيت المال والجيوش، وما أبداه بعض نواب الأجناس الراغبون في تسريح ذلك من المصالح المالية العائدة على رعيتنا السعيدة على مقتضى ما ظهر لهم ردوه بما يطول شرحه ولا يفي به قرطاس ولما رأينا الأمر استحال إلى أسوأ حال أو كاد تداركنا هذا الخرق بالرفة وجنحنا إلى السلم امثلاً لقوله تعالى: «وَإِنْ جَنَحُوا إِلَيْنَا فَاجْبَحْنَاهُمْ» [الأنفال: 61] الآية، وارتكتبنا أخف الضررين، فاقتضى نظرنا الشريف أن ظهر لكم درءاً لتلك المفاسد المقدم على جلب المصالح أن يساعدوا على تسريح أشياء بقصد الاختبار، من تلك الأمور الممنوعة الوسق كالقمح والشعير وذكران البقر والغنم والمعز والحمير ثلاث سنين فقط، على شرط الاختبار في المتنعة التي ذكروها في تسريحة، الكل بأعشارة المعلومة في مثله على أن يكون تسريح ذلك في وقت غلته مع وجود الخصب مدة من ثلاثة أشهر وبعد مضيها يتفق، ولا يسمع كلام من أحد في تسريحة ولا يقبل منه عذر فيه، وفي العام المقبل إذا كان صالحًا يسرح ثلاثة أشهر بقصد الاختبار أيضاً، وإذا كان ناقصاً لا يقع اختبار بتسرি�حة المدة

المحدودة، ويبقى متفقاً على أن ذلك ليس بشرط وإنما هو على سبيل الاختبار حتى يظهر، ولتعلموا أنكم لن تزالوا في سعة فإن ظهر لكم ذلك فالأمر يبقى بحاله، وإن ظهر لكم ما هو أسد وأح�ط في الدفاع عن المسلمين فأعلمنا به إذ ما أنا إلا واحد من المسلمين، وأعلمناكم بما كان امثلاً لقوله تعالى: «لَئِمْ وَشَارِوْهُمْ فِي» [آل عمران: ١٥٩] وإنما «عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ الْأَنْوَارِ وَمِنَ الْيَجْرِيَّةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» [الجمعة: ١١] والسلام في سابع رجب الفرد الحرام عام ثلاثة وثلاثمائة وألف انتهتى كتاب السلطان أعزه الله. ولما قرئ هذا الكتاب على خاصة الناس وعامتهم أجابوا كلهم بأن الرأي ما رأاه السلطان وفقه الله إلا ما كان من بعض العامة الأعمamar الذين لم يجرجو الأمور ولا اهتدوا إلى النظر في العواقب فإنهم قالوا: ما نعطيهم إلا السيف لكن لم يلتفت إليهم.

وقد كتبت في هذه المسألة جواباً مطولاً رأيت إثباته هنا خشية ضياعه ونصه: أعلموا حفظكم الله أن النظر في هذه النازلة يكون من وجوه، أحدها من جهة الفقه والحكم الشرعي، ثانياً من جهة الرأي والسياسة وهذا لا بد أن يجري على ضابط الفقه أيضاً، ثالثها من جهة الفهم عن الله تعالى والنظر في تصرفاته سبحانه في هذا الوجود بعين الاعتبار، فأما الوجه الأول فاعلم أن الفقهاء رضوان الله عليهم قد نصوا على أنه لا يجوز بيع آلة الحرب من السلاح والكراع والسروج والترس ونحو ذلك من الكفار العربين لما يخشى من تقويمهم بذلك على المسلمين، هذه علة المنع وهي تفيد أمرين: أحدهما أن كل ما هو في معنى السلاح مما يفيدهم تقوية حكمه حكم السلاح في المنع وهو منصوص عليه فلا تحتاج إلى التطويل بجلبه. ثانياًهما إن ما لا يتقوون به يجوز بيعه منهم كيف ما كان، وعدم التقوي يكون بأحد وجهين: إما تكون ذلك المبيع ليس من شأنه التقوي به في الحرب كبعض المأكولات والملبوسات وغير ذلك مما هو مسرح لهم اليوم وقبله بزمان. وإما تكونه من شأنه أن يتقوى به فيها ولكن عديم الفائدة بالنسبة إلى حالهم اليوم لما تقرر من أنهم صاروا من القوة والاستعداد والتفنن في أنواع الآلات الحربية إلى

حيث صارت آلاتنا عندهم هي والخطب سواء، والدليل على ذلك أنهم يبيعوننا أنواعاً من الآلات الحربية نقضي العجب من جودتها وإنقانها، ومع ذلك فينقل لنا عنهم لا يبيعوننا منها إلا ما انعدمت فائده عندهم، لكونهم ترقوا عنها إلى ما هو أجود منها واستنبطوا ما هو أدق وأنفع إلا فيما قل، وعلى هذا فتبيني اليوم الفتوى بجواز بيع سلاحنا منهم فضلاً عن غيره لجزمنا بأن ذلك لا يفيدهم في معنى التقوى شيئاً، وإن كانت هناك فائدة فهي كلا فائدة، هذا إذا لم نتوقع ضرراً منهم عند امتناعنا من البيع، فأما إذا كنا نتوقعه منهم كما هو حالنا اليوم فيرتقي الحكم عن الجواز إلى ما هو فوقه وللضرورة أحکام تخصها. فإن قلت: فقد أقدمت بهذا الكلام على ما لم يقدم عليه أحد قبلك في استجازتك ببيع السلاح من الحربيين. قلت: إنما ذكرت السلاح توطئة لما الكلام فيه حتى يؤخذ حكمه بالأحرى، ثم إنني ما أقدمت عليه إلا بالقاعدة الفقهية لا مجازفة كما أقدم من قبلي على إجازة بناء الكنائس بأرض المسلمين لأجل الضرورة الداعية إلى ذلك، فقد أفتى علماء الأندلس في القرن الخامس بالإذن للنصارى في إحداث الكنائس بأرض العنوة وبما اختطه المسلمون من الأمصار، مع أن الموجود في كتب السلف هو المنع، وما ذلك إلا لأن الأحكام المرتبة على الأعراف تختلف باختلاف تلك الأعراف، قال القرافي في كتاب الأحكام في الفرق بين الفتاوى والأحكام في السؤال التاسع والثلاثين ما نصه: «إن قلت: ما الصحيح في هذه الأحكام الواقعة في مذهب مالك والشافعى وغيرهما المرتبة على العادة والعرف اللذين كانوا حاصلين حالة جزم العلماء بهذه الأحكام فهل إذا تغيرت تلك العوائد وصارت تدل على ضد ما كانت تدل عليه أولاً فهل تبطل هذه الفتاوى المسطورة في الكتب ونفتى بما تقتضيه هذه العوائد المتتجدة أو يقال نحن مقلدون وما لنا أحداث شرع لعدم أهليةنا للاجتهداد فنفتى بما في الكتب المنقوله عن المجتهدين؟ فالجواب إن إجراء هذه الأحكام التي مدركتها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الإجماع وجهالة في الدين بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة

المتجدددة، وليس ذلك تجديداً للاجتهاد من المقلد حتى تشرط فيه أهلية الاجتهاد بل هذه قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها فنحن نتبعهم فيها من غير استثناف اجتهاده. ونحوه له في كتاب الفروق ونقله عنه الأئمة واعتمدوه في بيان من هذا أنه لا معنى للإفتاء اليوم بمنع بيع شيء من الكفار أياً كان إلا المصحف والمسلم وما في معناهما لأنهم يلغوا اليوم من القوة إلى الحد الذي لم يكن لأحد في ظن ولا حساب إلا أن يريد الله كفایتنا إیاهم بأمر من عنده فهو سبحانه ولی ذلك القادر عليه وذلك ظننا به تعالى. فإن قلت: هنا مفسدة أخرى تمنع من بيع ما طلبوه وهي التضييق على المسلمين في معايشهم ومرافقهم لأنهم إذا أكباوا على شراء هذه الأشياء فلا بد أن تغلو وترتفع ثمنها وفي ذلك من الإضرار بال المسلمين ما لا يخفى ولذا أفتى الأئمة بمنع الحركة في كل ما للناس به حاجة من طعام وأدام وعروض، فإن كان في الحال سعة ولم يضر الاحتكار بالناس جاز في الطعام وغيره، قلت: والناس اليوم والحمد لله في سعة وأما حصول التضييق عليهم في معايشهم ومرافقهم بسبب تسريع وسوق هذه الأشياء للنصارى فمشكوك فيه قد يحصل وقد لا يحصل، والشك مطروح في نظر الشرع بخلاف المفسدة المتوقعة منهم عند المنع والمحاربة فمقطوع بها نظراً للقرائن القوية والعادة. فإن قلت: بل الغالب حصول التضييق لا أنه مشكوك فقط، قلت: ليس بغالب، فقد رأيناهم منذ أزمان وهم مكبوتون على وسوق أشياء كثيرة مثل القطاني وغيرها ومع ذلك لم يحصل فيها والحمد لله إلا الرخاء، بل الحق إن هذا من علم الغيب لا ينبغي لأحد أن يحكم عليه بغلبة ولا قلة لأن الحكم في ذلك بالتخمين من باب التخرص على الله تعالى في غيبه وهو حرام على أن النصارى إذا اشتروا منها شيئاً من ذلك فإنما يশترونه بالشمن الذي له بالوعشرون بالصاكة التي لها بال فتححصل الأرباح للرعية وللسلطان وهذه منتفعة مقطوع بها، وأما الغلاء فمشكوك كما قلنا، والحاصل أن الأبحاث والتفرعات في هذا الموضوع كثيرة، وفي هذه النبذة كفاية لمن استبصر والله الموفق، وأما الوجه الثاني وهو النظر من جهة الرأي والسياسة ولا بد فيه من

الفقه أيضاً إذ كل سياسة لا تسترضي بنور الشرع فهي ضلال فنقول: لا يخفى أن النصارى اليوم على غاية من القوة والاستعداد والمسلمون لم الله شعثهم وجرب كسرهم على غاية من الضعف والاحتلال، وإذا كان كذلك فكيف يسوغ في الرأي والسياسة بل وفي الشرع أيضاً أن ينابذ الضعيف القوي أو يحارب الأعزل الشاكبي السلاح وكيف يستجاز في الطبع أن يصارع المقدد القائم على رجليه أو يعقل في النظر أن تناطح الشاة الجماء الشاة القراء كما قال الشاعر:

أهم بأمر الحزم لو أستطعه وقد حيل بين العير والنزوan
 فالمحاربة على هذا الوجه مما لم تقل به سياسة ولا وردت به شريعة،
 فهذا رسول الله ﷺ وهو خير الخلق عند ربه وأكرمهم لديه قد صالح
 المشركين يوم الحديبية صلحًا قال فيه بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم.
 نحن المسلمين فكيف نعطي الدنيا في ديننا، ورد أبا جندل رضي الله عنه
 إلى المشركين وهو يرسف في قيوده ويصرخ بأعلى صوته: يا معاشر
 المسلمين كيف أرد إلى المشركين يفتونني في ديني والقصة مشهورة لا حاجة
 إلى التعلويل بها، وقد عزم رسول الله ﷺ يوم الأحزاب أن يعطي عبيدة بن
 حصن والحارث بن عوف وهما قائداً لغطفان ثلث تمر المدينة على أن يرجعا
 بمن معهما عنه وعن أصحابه حتى رده عن ذلك سعد بن معاذ وسعد بن
 عبادة رضي الله عنهما حين أحسوا من أنفسهم بمقاومة العدو، وأين نحن
 منهم ديناً وبيتناً وبصيرة وثباتاً في الحرب، وقد أفسى الفقهاء رضوان الله
 عليهم لأجل هذا الوارد عن رسول الله ﷺ بجواز عقد الهدنة مع الكفار على
 إعطاء المال، انظر المختصر وغيره، فإذا كان إعطاء المال مجاناً جائزًا عند
 الضرورة فكيف لا يجوز إعطاء بعض المتمولات بآثمانها التي لها بال، وأيضاً
 فهو لاء الأجناس إنما دعونا في ظاهر الأمر إلى السلم لا إلى الحرب وغاية
 مطلوبهم في هذه النازلة الاستكثار من ضروب المتأجرة التي ينشأ عنها في
 الغالب كثرة الممازجة بيننا وبينهم، ولعمري أن في اختلاطهم بنا وممازجتهم
 لنا لمضرة وأي مضرة وما يعقلها إلا العالمون، ولكنها تستصغر بالنسبة إلى

مقدرة المحاربة، وليس من الرأي والسياسة أن يدعوك خصمك إلى السلم فتندعوه إلى الحرب ما وجدت إلى السلم سبيلاً، وهذا هو الذي فعله رسول الله ﷺ يوم الحديبية فإنه قال لأصحابه لما اغتاظوا من ذلك الصلح وقال بعضهم والله ما هذا بفتح: «لقد صدنا عن البيت وصد هدينا بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم من الأمان» إلى آخر ما قاله ﷺ، وإلى هذا ونحوه الإشارة بقوله تعالى: «وَإِنْ جَنَحُوا إِلَيْنَا لَسْلَمٌ فَاجْتَنِّبْهُمْ وَلَا تُوَلْ كُلَّ عَيْنٍ عَلَى اللَّهِ» [الأنفال: 61] ذكر تعالى ذلك عقب قوله: «وَأَعْدَدُوا لَهُمْ مَا أَسْتَطْعُنُهُ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» [الأنفال: 60] إشارة إلى أن الصلح يجوز ولو كان بال المسلمين قوة واستعداد كما نبه عليه بعض المفسرين فكيف ولا قوة ولا استعداد إلا أن يتداركنا الله بلطف من عنده، واختلف المفسرون هل الآية منسوخة أم لا وال الصحيح كما في الكشاف وغيره إن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام مصلحة للإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبداً أو يجابوا إلى الهدنة أبداً أه. وهذا مذهبنا ومذهب غيرنا ولذلك جازت عندنا الهدنة وإن على مال كما مر فدللت الآية الكريمة على أن السلم أولى من الحرب وهذا هو المعلوم المسلم شرعاً وطبعاً، أما الشع فهذه الآية وقصة الحديبية وقوله تعالى: «وَالصَّلْحُ خَيْرٌ» [النساء: 128] وقوله: «وَالْفَتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» [البقرة: 191] وهاتان الآيتان وإن نزلتا في شيء خاص لكن يجوز الاستشهاد بهما فيما نحن فيه وفي غيره إذ هما من الكلام الجامع الجاري مجرى المثل والحكمة، وعن علي رضي الله عنه: «ما دعوت إلى المبارزة قط وما دعاني أحد إليها إلا أجبته»، فقيل له في ذلك فقال: «الداعي إلى الحرب باغ والباغي مصروف»، وأما الطبع فلا يحتاج إلى شاهد لأن كل عاقل يعلم أن السلم خير من الحرب، وقد قال شريك لمعاوية رضي الله عنهمما في مقاولة جرت بينهما: «إنك ابن حرب والسلم خير من الحرب» وقال الحصين بن نمير السكوني لابن الزبير رضي الله عنه يوم مات يزيد: اذهب معى إلى الشام لأدعو الناس إلى بيعتنك فلا يتخلق عنك أحد فقال ابن

الزبير: أما دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فلا، وجعل ابن الزبير يجهر بذلك فقال له الحصين: أكلمك سراً وتكلمني جهراً، وأدعوك إلى السلم والخلافة وتدعوني إلى الحرب والمناجزة، كذب من زعم أنك داهية العرب أه، فقد عاب عليه ذلك. من جهة الرأي كما ترى، وأنشد صاحب الكشاف وغيره لدى قوله تعالى: «وَإِنْ جَنَحُوا لِتَلْهُمْ فَلَا جُنَاحَ لَهُمْ» [الأفال: 61] قول العباس بن مرداس رضي الله عنه:

السلم تأخذ منها ما رضيت به وال الحرب يكفيك من أنفاسها جرع
وفي كتاب الفتنة من صحيح البخاري ما نصه: كان السلف يستحبون أن
يتمثلوا بهذه الآيات عند الفتنة:

الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزيتها لكل جهول
حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها ولت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء ينكسر لونها وتغيرت مكرروحة للشتم والتقبيل
قال القسطلاني: المراد أنهم يتمثلون بهذه الآيات ليستحضروا ما
شاهدوه وسمعواه من حال الفتنة، فإنهم يتذكرون بإنشادها ذلك فيصدهم عن
الدخول فيها حتى لا يغتروا بظاهر أمرها أولاً أه. ولا شك أن هذه حالة
العامة الأغمار الذين لم تضرّهم الحروب ولا حنكتهم التجارب تجدهم إذا
ظهرت مخايل فتنة نسأل الله العافية استشرفوا إليها وتمتنوا خوضها وربما تألى
بعضهم وقال: والله لئن حضرتها لأعملن وأفعلن، وقد قال عليه الصلاة
والسلام: «لا تتمتنوا لقاء العدو» وحال هذا الغمز المتألي هو الذي أفصح عن
المتنبي بقوله:

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزلا
فهذا القطر المغربي تدارك الله رمه على ما ترى من غاية الضعف وقلة
الاستعداد فلا تنبغي لأهله المسارعة إلى الحرب مع العدو الكافر مع ما هو
عليه من غاية الشوكة والقوة، وقد تقرر في علم الحكمة أن المعاندة
والمدافعة إنما تحصل بين المتضادين والمتماثلين ولا تحصل بين المخالفين،
وحالنا اليوم مع العدو ليس من باب التضاد ولا من باب التماثل وإنما هو من

باب التخالف فافهم، بل لو فرضنا أن أهل المغرب اليوم مماثلون للعدو في القوة والاستعداد لما كان ينبغي لهم ذلك لأنه ليست العدة وحدها كافية في الحرب ولا كثرة الرجال والمقاتلة وحدها بالذى يعني فيها شيئاً، بل لا بد مع ذلك من اجتماع الكلمة وكون الناس فيها على قلب رجل واحد ولا بد مع ذلك من ضباط بجمعهم وقانون يسوسهم حتى تكون الجماعة كالبدن الواحد يقوم جميعاً ويقعد جميعاً، وهذا معنى ما صرحت به الحديث من قوله عليه السلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه ببعض» فإن لم يكن ضابط وقانون فلا بد من نفاذ البصيرة في الدين وقوة اليقين والألفة فيما بين المسلمين والغيرة على الوطن والحرى وجودة الرأي والتترس بالحروب ومكاييد المشركين، وأهل المغرب اليوم إلا القليل منسلخون من هذا كله أو جله، فقد تواتت عليهم الأجيال في السلم والهدنة وبعد عهد أسلافهم فضلاً عنهم بالحرب وشدائدها ومعاناة الأعداء ومكاييدها وإنما همهم ماؤلهم ومشروبيهم وملبوسهم كما لا يخفى حتى لم يبق من هذه العيشية فرق بينهم وبين نسائهم، وليس الخبر كالعيان، فكيف يحسن في الرأي المسارعة إلى عقد الحرب مع أجناس الفرنج وما مثلنا ومثلهم إلا كمثل طائرتين أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شاء والآخر مقصوصهما واقع على الأرض لا يستطيع طيراناً ولا يهتدى إليه سبيلاً، فهل ترى لهذا المقصوص الجناحين الذي هو لحم على وضم أن يحارب ذلك الذي يطير حيث شاء؟ وهل يكون في ذلك إن كان إلا هلاك هذا وسلامة ذاك بل وغنيمه فإن ذاك ينفر هذا متى وجد فيه فرصة للنفرة وببعد عنه ويطير إذا لم يجدها وهكذا يستمر حاله معه حتى يثبته أو يملكه بالكلية، وليس في طرق هذا إلا أن يدفعه عن نفسه في بعض الأحيان إذا تأتى له ذلك، ولكن إلى متى فهكذا حالنا مع عدونا فإنه بقراصينه الحربيه ذو أجنحة كثيرة فهو علينا بالخيار يهجم علينا في ثغورنا إذا شاء ويبعد عنا فلا ندركه متى شاء، وقصيرانا معه الدفع عن أنفسنا إذا انفقت كلمتنا ولم تشغلنا غوغاء الأعراب من خلفنا وهيئات فقد جرب ذلك مراراً فصح والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين كما قال عليه السلام، والكلام في

هذا الفصل أيضاً طويلاً وفيما أشرنا إليه كفاية. فإن قلت: أراك قد صيرت الجهاد الذي حد عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم محض فتنـة وقد زهدت الناس فيه وقطعت آمالهم منه بهذا الكلام. قلت: أعلمـت يا أخي ما هو الجهـاد الذي حد عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم؟ أعلمـ أنـ الجهـاد المـذكور هو قـتـالـ أـهـلـ الشـرـكـ والـطـغـيـانـ عـلـىـ إـلـاءـ كـلـمـةـ الرـحـمـنـ لـيـسـاقـواـ بـذـلـكـ إـلـىـ الدـخـولـ فـيـ دـيـنـ اللهـ طـوـعاـ أوـ كـرـهاـ، وـلـتـكـونـ كـلـمـةـ اللهـ هـيـ عـلـيـاـ وـكـلـمـةـ الشـيـطـانـ هـيـ السـفـلـىـ مـعـ نـقـاذـ الـبـصـيرـةـ وـخـلـوصـ النـيـةـ وـالـغـيـرـةـ عـلـىـ دـيـنـ اللهـ، وـكـلـ ذـلـكـ بـشـرـطـ الـقـوـةـ الـمـكـافـتـةـ أـوـ الـقـرـيـبـةـ مـنـهـ، وـمـهـماـ اـخـتـلـ رـكـنـ أـوـ شـرـطـ مـاـ ذـكـرـنـاـ كـانـ إـلـىـ الـفـتـنـةـ أـقـرـبـ مـنـهـ إـلـىـ الـجـهـادـ، بـلـ تـقـولـ إـنـ الـجـهـادـ الـشـرـعـيـ قدـ تـعـذـرـ مـنـذـ أـحـقـابـ فـكـيفـ تـطـلـبـ الـيـوـمـ فـإـنـ كـنـتـ تـسـارـعـ إـلـىـ الـحـربـ لـتـذـرـكـ جـهـلـاـ مـنـكـ بـحـقـيـقـةـ الـأـمـرـ فـاعـلـمـ أـنـكـ إـنـمـاـ تـسـارـعـ إـلـىـ إـيقـادـ نـارـ الـفـتـنـةـ وـإـيـجادـ الـعـدـوـ السـبـيلـ عـلـيـكـ وـإـمـكـانـهـ مـنـ ثـغـرـتـ وـتـسـلـيـطـهـ عـلـىـ السـبـيـ لـحـرـيمـكـ وـمـالـكـ وـدـمـكـ وـنـسـأـلـ اللهـ العـافـيـةـ، اللـهـمـ إـلـاـ أـنـ تـكـونـ مـنـ اـخـتـارـهـمـ اللهـ وـأـهـلـهـمـ لـذـلـكـ وـكـتـبـ فـيـ قـلـوبـهـمـ الـإـيمـانـ وـأـيـدـهـمـ بـرـوحـهـ مـنـهـ كـمـاـ نـسـمـعـ الـيـوـمـ عـنـ أـمـةـ الـجـبـشـةـ وـالـتـوـبـةـ الـذـيـنـ يـقـاتـلـوـنـ عـسـاـكـرـ النـجـلـيـزـ عـلـىـ تـخـومـ صـعـيدـ مصرـ وـغـيـرـهـاـ فـقـدـ تـوـاتـرـ النـقـلـ وـصـحـ الـخـبـرـ أـنـ دـوـلـةـ النـجـلـيـزـ قدـ بـارـتـ حـيـلـهـاـ مـعـ هـوـلـاءـ الـقـوـمـ وـأـنـهـاـ وـجـهـتـ إـلـيـهـمـ الـعـسـاـكـرـ مـنـ الـدـيـارـ الـمـصـرـيـةـ بـكـلـ قـوـةـ وـشـوـكـةـ مـرـةـ بـعـدـ أـخـرـىـ فـمـحـقـوـهـمـ مـحـقاـ مـعـ أـنـهـمـ لـاـ يـقـاتـلـوـنـهـمـ فـيـ الـغالـبـ إـلـاـ بـالـحـرـابـ عـلـىـ عـادـةـ السـوـدـانـ فـيـ ذـلـكـ وـالـنـصـرـ بـيـدـ اللهـ، وـأـمـاـ الـوـجـهـ الـثـالـثـ وـهـوـ الـفـهـمـ عـنـ اللهـ تـعـالـىـ وـالـنـظـرـ فـيـ تـصـرـفـاتـهـ سـبـحـانـهـ فـيـ هـذـاـ الـوـجـودـ بـعـيـنـ الـاعـتـبارـ فـهـذـاـ حقـ الـكـلـامـ فـيـ أـنـ يـكـوـنـ مـنـ أـرـبـابـ الـبـصـائرـ الـمـتـنـورـةـ وـالـقـلـوبـ الـمـطـهـرـةـ لـاـ مـنـ أـمـاثـلـاـنـاـ الـذـيـنـ أـصـبـحـوـاـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ مـسـرـفـيـنـ، وـفـيـ أـوـدـيـةـ الشـهـوـاتـ مـنـهـمـكـيـنـ تـدارـكـنـاـ اللهـ بـلـطـفـهـ، لـكـنـاـ تـقـولـ وـإـنـ كـانـ القـوـلـ مـنـ بـابـ الـفـضـولـ: إـذـاـ نـظـرـنـاـ مـاـ عـاـمـلـ اللهـ تـعـالـىـ بـهـ عـبـدـهـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ مـوـلـانـاـ الـجـسـنـ أـيـدـهـ اللهـ وـجـدـنـاـ وـالـحـمـدـ اللهـ مـصـنـوـعـاـ لـهـ مـصـحـوـيـاـ بـالـعـنـيـةـ الـإـلـهـيـةـ، مـكـلـوـعـ بـعـيـنـ الـرـعـاـيـةـ الـرـيـانـيـةـ تـصـبـهـ السـعـادـةـ أـيـمـاـ تـوـجـهـ وـيـخـتـارـ لـهـ فـيـ جـمـيعـ مـاـ يـحـاـولـهـ، وـلـاـ تـنـجـلـيـ مـهـمـاتـهـ إـلـاـ عـنـ

ما يسر الصديق ويسوء العدو، فالحمد لله على ذلك حمدًا كثيرةً وهو مع ذلك جميل الظن بربه، حسن العقيدة في توكله عليه، مفرداً وجهته إليه حريصاً على استصلاح رعيته، ذا غيرة تامة على الدين والوطن ب بحيث فاق بذلك وغيره من خصال الخير كثيرةً من ملوك عشيرته الذين تقدموه، وإذا كان كذلك فمن الرأي الذي لا رأي فوقه أن نفوض إليه في ذلك ونثق بحسن رأيه وين نقيبته ونجاوبه في هذه النازلة بأن الأمر في ذلك إليه لا إلى غيره إذ هو الذي طوقة الله أمرنا وكلفة النظر لنا والنصائح لدينا، وإن كان لا بد من المشورة فليست إلا مع أهل الحل والعقد، وقد قال العلماء: أهل الحل والعقد هم أهل العلم والدين والبصر بهذا الأمر الخاص لأنه يشترط في كل من ولـيـ النـظرـ فيـ أمرـ ماـ منـ الأمـورـ العـلمـ بهـ فـماـ اـخـتـارـهـ أمـيرـ المؤـمنـينـ اختـرـناـهـ،ـ وـماـ اـنـشـرـحـ لـهـ صـدـرـهـ وـأـمـضـاهـ أـمـضـيـناـهـ،ـ وـكـيـفـ لـاـ وـمـاـ عـوـدـهـ اللهـ إـلـاـ خـيـرـاـ **﴿وَعَسَّىَ أَنْ تَكُرُّهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّعُكُمْ﴾** الآية، وعسى أن يكون فيما طلبه هؤلاء الأجناس فساد أمورهم وصلاح أمرنا وذلك الظن به تعالى وما هو عليه بعزيز، فيكون تدميرهم في تدبیرهم وقد استروحنا والحمد لله نسيم الفرج مما كنا فيه قبل اليوم، تتم الله علينا نعمته آمين، وأيضاً ففي التفويض في هذه النازلة ضرب من التبرير من الحول والقوة بحيث ساقت الأقدار إلينا هذا الأمر فينبغي أن تتلقاه بالرضا والتسلیم بخلاف ما إذا استعملنا فيه حيلتنا ورأينا فيكون من باب الدخول في التدبیر وشتان ما بين التفويض والتدبیر، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصري كان الله له في عاشر شعبان سنة ثلاث وثلاثمائة وألف أهـ. ثم إن الله تعالى لطف في هذه النازلة بمائه السلطان الجميل، وكفى مؤنته من ذلك المطلوب بشيء قليل، وذلك أن السلطان أيده الله سرح لهم وسق القمح والشعير ثلاثة سنين ووضع عنهم من صاكتهما نحو الربع لا غير ولم يحصل والحمد لله للرعاية ضرر قط.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثمائة وألف فيها كتب السلطان مولاي الحسن أيده الله إلى علماء فاس كتاباً يستفتيمهم في حكم التجارة في الأعشاب المرقدة

والمفسلة ويستشيرهم في تسریحها وإمساكها، ونص ذلك الكتاب بعد الافتتاح: أحبابنا فقهاء فاس الأجلة المرضىين وعلماءها المرشدين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فطالما قدمنا رجلاً وأخرنا أخرى في تسریح الصاکة التي هي الأعشاب المرقدة والمفسدة ونحوها وكان تسریحها من أهم الأمور لدينا وأكد من تسریح غيرها كالأبوباب لما نجده في نفسها لها من الاستقباح ونستقرده من أمرها في الغدو والروح، مع مزيد تقليلها على فوادنا وكونها أخرج في روعنا، وكان أسلفنا قد سهم الله اجتهدوا في قطعها وحسن مادتها بكل ما أمكنهم وأفضى بهم الحال إلى إحراقها مراراً ولما رأوا تماثل الرعاع والسفهاء والمقلين والمعدمين عليها ارتكبوا فيها ما يحصل به التضييق على مستعمليها وتمتنع منهم فلا يلحقها إلا من عنده ما يشريبها به وهم في أولئك الرعاع قليل مع النظر لما يحصل لبيت المال من النفع الكبير فحيزت لجانب المخزن لتحصيل المقصدرين المذكورين، وحيث قذف الله في قلبنا تسریحها ورفض درن ما يحصل منها تعارض لدينا أمران: وهما إيقاؤها بيد المخزن وتسریحها، أما الأول فهو الذي فررتنا منه وبيننا علل، وأما الثاني وهو التسریح فمقتضاه إغراء الرعاع والسفهاء على استعمالها ولا سيما مع انحطاط ثمنها فيتناولها القوي والضعف فيصير ذلك ذريعة إلى إباحة ما كانوا ممنوعين منه فيتجاهرون به ولا يخشون رقيباً، ويأتي منها من بر النصارى ما لا حصر له في عشر كسائر المعاشرات المباحة وتبني على ذلك مفاسد هي أعظم من كونها محوزة وأشكال الأمر فلتبيينا المخلص من ذلك بما تقتضيه قواعد الشريعة المطهرة حتى نخرج من عهدة ذلك فإن الخطب عظيم والسلام في الثالث والعشرين من المحرم عام أربعة وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله. وأجاب عنه علماء فاس وفرهم الله بجواب طويل مرجعه إلى حرمة استعمال تلك الأعشاب والتجارة فيها حسبما عليه الجمهور من الفقهاء والصوفية رضوان الله عليهم، ولما كان المقصد الأهم للسلطان أيده الله هو الإشارة بكيفية التخلص من ورطة تسریحها والحصول على السلامة مما عسى أن ينشأ عنه من المفاسد المرموز إليها في الكتاب الشريف كتب

إلى بعض الأحبة من فاس بقصد المذاكرة في النازلة فأجبته عنها بما نصه: أعلم حفظك الله أن ما أجاب به سادتنا فقهاء فاس من حرمتها ووجوب تخلي المخزن عن بيعها هو الحق الذي لا محيض عنه لما اشتملت عليه تلك الأعشاب من المفاسد العديدة التي كل واحدة منها كافية في الجزم بحرمتها وقد بينما شيئاً من ذلك في كتاب الاستقصاء عند الكلام على حدوثها ودخولها لبلاد المغرب أيام المنصور السعدي فلينظره من أراده فإنه كاف في هذا الباب، وأما ما أشار إليه الكتاب الشريف من أن مصلحة احتياز المخزن لها واستبداده ببيعها هي التضييق على مستعملتها حتى لا يتناولها منهم إلا الملي بشمنها دون الفقير الخ فهي مصلحة موهوبة أو معدومة لجزمنا بأن الحامل لمعاطيها على استعمالها إنما هو التبذل وقلة المروءة ورقة الديانة وخسة النفس وسقوط الهمة كما أن الواقع لمن لم يتعاطاها إنما هو كمال المروءة ومتانة الديانة وشرف النفس وعلو الهمة لا فقدان ذلك الثمن التافه كيف لا وهي لا يتعاطاها في الغالب إلا الفقراء المقلون، فمصلحة التضييق عليهم في ثمنها مفقودة كما ترى، وإذا كان كذلك فالواجب شرعاً ومروءة هو تنزيه منصب الإمامية الإسلامية والخلافة النبوية التي هي أهم الخطط الدينية والمناصب الشرعية عن التجارة فيها وتطهير تلك الساحة الكريمة من التلوث بأقدارها إذ لا يناسب ذلك حال مطلق المسلمين فكيف بجناب أمير المؤمنين، وأيضاً ففي تناول ذلك الجناب لها بالتجارة والاستبداد بالربح تهبيج للعامة عليها وإغراء لهم بمعاطيها كما قرره علماء فاس حفظهم الله، ولو نهوا عنها لما أنهوا بل ربما احتجوا بأنها لو كانت حراماً ما احتازها المخزن واستبد بربحها، ومن العادة المقررة أنه لا يمثل إلا قول الممتنع ولا يؤتمر إلا بأمر المؤتمر، ولما انبرم الصلح بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية وأمر أصحابه أن ينحرروا ويحلقوا أمسكوا ولم يفعلوا حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام ﷺ فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله أخرج ثم لا تكلم منهم أحداً كلمة حتى تتحر بدنك وتندعوا حلقك في حلسك، فخرج ﷺ

ولم يكلم أحداً منهم حتى نحر بذنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فتخرروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كادوا يقتتلون اهـ. فكذلك يقول هنا إن العامة مهما رأوا الأمير تعاطى شيئاً تعاطوه، وإذا رأوه نبذ أمراً نبذوه لأن العامة مولعون بالاقتداء بالأمير ومن في معناه من الكباء حسبما قرره ابن خلدون في كتاب طبيعة العمران من تاريخه، وأما التخوف من الإيتان بها من بر النصارى واستغلالهم بالتجارة فيها بأسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها وما ينشأ عن ذلك من المفاسد فهو مأمون بمقتضى الشروط المنعقدة بيننا وبينهم حسبما تضمنه الشرط الثاني والخامس والسابع من شروط التجارة المنعقدة مع النجليز خصوصاً وغيره عموماً سنة ثلاثة وسبعين ومائتين وألف، فقد صرخ في الشرط الثاني منها بأن هذه الأعشاب ونحوها من جملة الممنوعات دخولاً وخروجاً، ثم نبه على ذلك أيضاً في الخامس والسابع فلينظره من أراده وإنما يكون لهم بعد تخلي السلطان عن بيعها أن يجلبوا منها ما يحتاجونه لأنفسهم فقط لا أكثر منه كالخمر ألا ترى أنهم اليوم إنما يجلبون منها ما يشربونه ويتبايعونه فيما بينهم ولا سبيل لهم إلى التجارة بها في أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها فكذلك هذه الأعشاب حكمها حكم الخمر حنوا التعل بالنعل، وإذا امتنع المخزن من التجارة فيها مع بقاء منع الرعية منها أيضاً فلا حجة للنصارى في ذلك ولا متكلم لهم فيه إذ ليس في امتناع المخزن حيثذا إلا تأكيد المنع الذي كان قبل وإنما تكون لهم الحجة إذا بيعت لبعض الرعايا دون بعض لأن حاصل شروط التجارة الخامسة عشر ومدارها على أن رعايا الأجناس يكون لها ما لرعية الإيالة المغربية من التحجير والإطلاق والتخصيص والتعيم بحيث لا يستبد أحد من الفريقين بنوع من أنواع التجارة دون الآخر إلا ما للمخزن فيه غرض ومصلحة في تثقيفه من أشياء مخصوصة فإنه يشقه بنظره إذا شاء ويسرحه كذلك متى شاء، وإن اقتضى نظره أن يستبد بأرياح شيء من ذلك دون رعايا الفريقين فله ذلك وإنما الممنوع أن يبيع لرعيته دون رعايا غيره أو يبيع لبعض الأجناس دون بعض هذا هو الممنوع في الشروط، أما هو في خاصة نفسه ومصلحة ملكه فله أن

يستبد من تلك الممنوعات بما شاء، هذا حاصل تلك الشروط وإن طالت وأمتدت، إذا علمت هذا فكيف يتغوفف عند امتناع السلطان من بيع تلك الأعشاب مع استمرار منع الرعية منها أيضاً الإتيان بها من بر النصارى ومتاجرتهم بها في أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لها الخ. هذا لا يتوهם، نعم يتغوفف من ذلك إذا امتنع السلطان من بيعها وأذن للناس فيه وأطلق لهم يد التصرف به، وليس هذا مراد السلطان أيده الله وإن أوهمه لفظ الكتاب الشريف حيث قال: طالما قدمنا رجلاً وأخرنا أخرى في تسريح الصاكة الخ.

ولعل الكاتب أو الممللي عليه لم يحرر مراد السلطان أيده الله فنسج الكتاب على ذلك العنوان وأوهم أن أمير المؤمنين أعزه الله يريد أن يتمتع من بيع تلك الأعشاب تقذراً لها وتأففاً منها وبيحها لرعايته من المسلمين وغيرهم، ومعاذ الله أن يكون هذا مراده كيف وهو أيده الله من أخشى الملوك وأنقاهم الله وأحبيهم لرعاياه وأحديهم عليها وأحرصهم على جلب النفع لها ودفع الضر عنها وأعلمهم يقول جده عليه الصلاة والسلام: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه» فقد بان لك من هذا التقرير أن الواجب شرعاً ومروءة هو المبادرة إلى رفض التجارة في تلك الأعشاب وتطهير ساحة الإمامة الإسلامية من قذرها، قال الله تعالى في وصف رسوله صلوات الله عليه «وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيْبَاتِ وَيَنْهَا عَنْهُمُ الْخَبَثَ» [الأعراف: ١٥٧] وكما يجب على أمير المؤمنين أيده الله تطهير ساحة الخلافة منها يجب عليه السعي في تطهير ساحة المسلمين أيضاً منها لما أسلفناه آنفاً. فإن قلت: أما ما ذكرته من المبادرة إلى تطهير ساحة الخلافة منها فسهل متيسر إن شاء الله. وأما تطهير ساحة المسلمين منها فيظهر أنه في غاية الصعوبة لأن العامة إذا حملوا على رفضها كره وأجتوها إلى ترك استعمالها بالمرة ضاق بهم المتسع وساعت أخلاقهم وحاصلوا حيصة حمر الوحش، وربما صدر منهم ما لا ينبغي من الإعلان بالخلاف والمجاهرة بالعصيان.

ومن وصايا أسطوطاليس الحكم لليميذه الإسكندر: يا إسكندر تعامل عن العامة ما أمكن ولا تلجمتها أن تقول فيك إلا خيراً، فإن العامة إذا قدرت

أن تقول قدرت أن تفعل، أو كلاماً هذا معناه، والحاصل أن فطم العامة عما اعتادوه من بعض الجهات وصرفهم عما مرتنا عليه من بعض الضلالات في غاية الصعوبة ولا يتيسر ذلك إلا لمن هيأه الله له من نبي مرسل أو ولد كامل أو إمام عادل، وإذا كان صرف العامة عن هذه المفسدة التي اعتادوها ونشروا عليها جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن يؤدي إلى الهرج والخلاف جزماً أو ظناً فالواجب هو تركهم على ما هم عليه لأن تغيير المنكر له شروط منها أن لا يؤدي إلى منكر أعظم كما هو مقرر في الأصول والفروع.

قلنا: كل ما قررته في هذا السؤال حق لا محيد عنه، ولكن نحن لا نقول إن أمير المؤمنين أيده الله يحمل العامة على رفضها كثرة ويلجئهم إلى تركها بالمرة، بل يسلك معهم في ذلك سبيل التدرج كما سلكه رسول الله ﷺ في تحريم الخمر على العرب، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ والعرب من أعشق الأمم للخمر وأشدهم بها ولوعاً وأكثرهم لها حتّى كانت شقيقة روحهم ومحناطيس أنفسهم قد اتخذوا لها المجالس الحفيلة واختاروا لها القينات الجميلة، وضربوا عليها بالمعازف والدفوف، وحكموا لها على غيرها من مألفاتها بغاية الشفوف، حتى نسبوا بها في أشعارهم، وتوجوا بها بنيات أفكارهم، وبالجملة فلا يؤثر عن أمة من محبة الخمر ومدحها ما أثر عن العرب، فلذلك لما انصرفت عناية الشرع الكريم إلى تحريمها كان ذلك على سبيل التدرج كما هو معلوم في الكتاب والسنة حتى تم مراد الله ورسوله من العرب فرفضوها بالكلية، وسمّاها الشارع أم الخباث زيادة في التغافل عنها، وما حرمت آلات النهو إلا من أجلها وبالمبالغة في تحريمهـا إذ هي وسيلة إليها كما حرقه الغزالـي رحـمه الله في كتاب السماع من الإحياء، وفي تفسير الخازن بعد سرده كيفية التحريرـ ما نصـه: والحكمة في وقوع التحريرـ على هذا الترتيبـ أن الله تعالى علمـ أنـ القومـ كانوا قد ألقواـ شربـ الخمرـ وكانـ انتفاعـهمـ بذلكـ كثيرـاًـ فـعلمـ أنهـ لوـ منعـهمـ منـ الخمرـ دفعـةـ واحدةـ لـشقـ عليهمـ فلاـ جـرمـ استـعملـ هـذاـ التـدرـيجـ وهـذاـ الرـفقـ، قالـ أنسـ رضـيـ اللهـ عـنهـ: حرـمتـ الخـمـرـ وـلمـ يـكـنـ لـالـعـربـ يـوـمـذـ عـيشـ أـعـجـبـ مـنـهـ، وـماـ

إذا كان عون الله للمرء ناصراً تهيا له من كل صعب مراده
وقال البوصيري لسيد الوجود بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أقول ولأمير المؤمنين من حال جده
قسط والحمد لله :

كل أمر تعنى به تغلب الأعداء بيان فيه ويعجب البصراء وكيفية التدريج في ذلك أن يأمر أىده الله علماء المجالس وخطباء المتأبر ووعاظ الكراسى بالتواطئ على ذم تلك الأعشاب وتقبيلها في نفوس العامة وإيذاء معايبها لهم، وشرح مفاسدها لديهم، والتغليظ في ذلك بأبلغ ما يمكن، ومن قدر على تأليف ألفه أو شعر نظمه أو رسالة أشأها، ويستمرون على ذلك ثلاثة أشهر أو أربعة أو أكثر من ذلك، فإن ذلك لا بد أن يؤثر في نفوس العامة بعض التأثير فإن الهمم إذا توافر على شيء أثرت فيه بعون الله لا سيما همم أهل الخير، وفي الحديث «يد الله مع الجماعة»، ثم بعد مضي هذه المدة وتقرر قبحها في نفوس العامة يكتب أمير المؤمنين أىده الله إلى قضاته ويأمرهم بتفقد الشهدود وأئمة المساجد فمن عثروا عليه أنه يستعمل شيئاً من تلك الخبائث أسقطوا شهادته وحظروا إمامته، وأن لا يقبلوه ولو في اللئيف، ويولى الكتابة والاعتناء بذلك مدة مثل الأولى أو أكثر، فيزداد قبحها في نفوس العامة وتعزف نفوس كثير منهم عنها، ثم بعد هذا كله يكتب لولاة الأمصار وعمال البوادي أن يتقدموا إلى رعاياهم بمنع ازدراعها وادخار شيء منها أو التجارة فيه بوجه من الوجه، فإذا تم هذا الغرض على هذا الوجه تخلى هو حيثئذ عن بيعها وأمر بإحرق باقيها وسد حاناتها المسماة في عرفنا بالقهاري ويمنع الناس من استعمالها في المجتمع العام كالأسواق ونحوها، ويشدد في ذلك ويعلن بالنداء في جميع الإيالة المغربية بأن حكم هذه

الأعشاب حكم الخمر فكما لا يتجاهر بالخمر في الأسواق ونحوها كذلك لا يتجاهر باستعمال هذه الأعشاب فيها، ومن فعل ذلك أدب أدباً يليق به ويرتدع به غيره، فهذا أقصى ما يفعله السلطان والتوفيق بعد ذلك بيد الله، وإذا تم هذا العمل في نحو ثلاثة سنين فهو قريب، وإذا يسر الله ذلك كان فيه بشري للمسلمين وعنواناً لهم على تجديد دينهم، ولعمري ما كان أمر الخمر في العرب إلا أرسخ من أمر هذه الأعشاب في الناس اليوم بكثير، وأن الشبهة كانت فيها أقوى منها في هذه، وذلك مظنة سهولة زوالها وتطهير البلاد والعباد منها وما ذلك على الله بعزيز. قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصري لطف الله به في خامس عشر ربيع الثاني سنة أربع وثلاثمائة وألف.

ثم إن السلطان أيده الله رفض التجارة فيها وأحرق ما كان محوزاً لجانب المخزن منها ومنع تجار الأجناس من جلبها إلى قطر المغرب إلا القدر الذي يستعملونه في خاصة أنفسهم منها بشرط تعشيره وقصر نزوله على مرسي طنجة دون سائر المراسي المغربية والحال على ذلك لهذا العهد.

ولما دخلت سنة خمس وثلاثمائة وألف غزا السلطان مولاي الحسن أيده الله آيت ومالو من برابرة فازاز وهم بطون من صنهاجة يشتمل على أفخاذ كثيرة مثل ظيان وبني مكيلد وشقيرين آيت سخمان آيت يسري وغيرهم أمم لا يخصيمهم إلا خالقهم، قد عمروا جبال فازاز وملؤوا قناتها وتحصنتوا بأوعارها منذ تملك البربر المغرب قبل الإسلام بأعصار طويلة، فلما كانت السنة المذكورة خرج السلطان من مكناسة الزيتون عاشر رمضان منها بقصد غزو هذه القبائل العاصية وتدميغ بلادها إذ لم تكن تبذل الطاعة إلا للواحد بعد الواحد من ملوك دول المغرب في الأعصار المتراخيّة حسبما يعلم مما أسلفناه في هذا الديوان من أخبارهم وأخبار غيرهم، فانتهى السلطان إلى تلك الجبال ودخلها ثم إلى قصبة آدحسان التي بناها المولى إسماعيل رحمه الله فوفد عليه هناك جل تلك القبائل وبدلوا الطاعة وأظهروا الخضوع وبدلوا المؤن والأرزاق للجيش والهدايا للسلطان إلا ما كان من آيت سخمان فإنهم أظهروا الطاعة أولاً كغيرهم وطلبوها من السلطان أن يبعث معهم طائفة من

الجيش ليدفعوا لهم المؤذن وما وظف عليهم من الهدايا والأنزال فأرسل معهم السلطان مائتي فارس وعقد عليهم لابن عمه الشريف الفاضل الناسك مولاي سرور بن إدريس بن سليمان، وجده سليمان هذا هو أحد ملوك هذه الدولة العلوية حسبما تقدم، فلما توسطوا حالة آيت سخمان مع العشي تناجوا فيما بينهم والشيطان لا يفارقهم فاتفقوا على الغدر بأصحاب السلطان وفرقواهم على مداشرهم وحللتهم، فلما كان وقت العشاء الأخيرة أظهروا علامة بينهم وسعت كل طائفة إلى من عندها من أصحاب السلطان فأوقعوا بهم فقتلوا منهم نحو العشرين على ما قيل وأفلت الباقيون بجريعاء الذقن، وكان فيمن قتل منهم كبيرهم الشريف مولاي سرور المذكور، وكان من خيار عشيرته رحمة الله عليه رموه برصاصة وطعنوه بتفالة، وكانت هذه الفعلة الشنعاء بإشارة كبارهم علي بن المكي من بقية آل مهاوش الذين تقدم الخبر عنهم في دولة السلطان مولاي سليمان رحمة الله، ثم أسروا من ليتهم تلك فلم يصبحوا إلا بآيت حديدو وأيت مرغاد وغيرهما من قبائل البربر وتفرقوا شذر مذر وبقي منهم نفر يسير على ما قيل، فقبض عليهم من الغد وضررت أنفاسهم، وقال بعض من حضر الواقعة إنهم لما فعلوا فعلتهم هربوا من تحت الليل وتركوا زروعهم وأمتعتهم في مداشرهم، ولما انتهى الخبر إلى السلطان بعث في طلبهم طائفة من عساكره وضم إليهم خيل شقيرين إخوانهم وكانوا راكبين مع السلطان مظهرين للطاعة فانتهبو أمتاعهم وانتسفوا زروعهم وهدموا أبنائهم وحرقوا بيوتهم وأبلغوا في النكبة، وتحامت خيل شقيرين ذلك إيقاء على إخوانهم وتعصباً للبربرية وربما دسو إليهم من أعلمهم بالحال، وأمرهم بالإبعاد في الارتحال، ولما اطلع السلطان على خبيثة شقيرين أمر بنهب حللهم وأسر من ظفر به منهم وقتله فأوقع بهم جيش السلطان وقعة شناء فأسروا منهم عدداً وافراً وضربوا أنفاس نحو الثلاثين منهم وانتهبو حللهم ومداشرهم حتى كأن لم تغن بالأمس، ومن الغد جاءت نساوهم وأطفالهم فاستجاروا بالمدافعين واستغاثوا بالسلطان فرق لهم وسرح مساجينهم وكساهم وعوا عنهم، وكان هذا كله في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة أعني

سنة خمس وثلاثمائة وألف، ثم قفل السلطان راجعاً فدخل مكناسة الزيتون
أواخر ذي الحجة خاتمة السنة المذكورة.

ثم دخلت سنة ست وثلاثمائة وألف فيها غزا السلطان جبال غماره فخرج
من حضرة فاس عاشر شوال من السنة المذكورة فسلك تلك الجبال ودخولها
وزار تربة الشيخ الأكبر والكريت الأحمر أباً محمد عبد السلام بن مشيش
رضي الله عنه، ثم تقدم إلى مدينة تطاوين فدخلها يوم الأربعاء ثامن المحرم
من السنة التي تليها أعني سنة سبع وثلاثمائة وألف فأقام بها نحو الخمسة
عشر يوماً وزار صلحاءها وتطوف في معالمها وتباري وجهه أهل تطاوين
وكبراؤهم في الإهداء إليه وبذل المجهود في الاعتناء بحاشيته وجيشه
وأعجب ذلك السلطان حاشيته ورأوا منهم ما تقر به أعينهم وأنعم عليهم
السلطان بعشرة آلاف ريال لبناء قنطرة يرتفعون بها في واديهن المحيط
بمدينتهم لكن لم يحصل مقصود من ذلك لعدم إتقان بنائهما فتهدمت في
الحال وضع ذلك المال، ثم سار السلطان من تطاوين إلى طنجة ثم منها إلى
العرائش ثم عاد إلى فاس فأقام بها إلى أواسط شوال من السنة المذكورة، ثم
غزا آيت سخمان الذين قتلوا ابن عمه مولاي سرور فأوقع بهم وقبض على
نفر منهم ولم يتمكن منهم على ما ينبغي، ثم سار إلى مراكش فأعرض
لجماعه من بنيه وبناته ووفدت عليه الوفود من أقطار المغرب بالتهنة وتباروا
في الهدايا والتحف على ما ينبغي وبالغ السلطان في إكرامهم وإفاضة الإنعام
عليهم واستمر أيده الله على كرسى ملكه وأريكة عزه وسلطانه والأيام سلم له
والدنيا مهناً بعزم ونصره والرعاية طوع نهيه وأمره إلا ما كان من نواب أجناس
الدول فإنهم أكثروا التردد إليه، والاقتراحات عليه، والتلتوانات لدبيه، فمرة
بالنصائح الفارغة ومرة بالظلمات الباطلة والحجج الواهية، وأخرى بطلب
التخفيف من الأعشار والتنقيص من الصاكات إلى غير ذلك مما لا تقاد تقوم
له الجبال الراسية، وهو يدافعهم ويرأوغهم وحيداً لا ناصر له ولا معين إلا
الله الذي أيد به الدين، وعصم به الإسلام والمسلمين.

ولما كانت سنة عشر وثلاثمائة وألف خرج السلطان مولاي الحسن أيده

الله غازياً صحراء تافيلالت وقبائلها فخرج إليها من فاس عقب عيد الأضحى من السنة المذكورة فقضى الأوطار من تمهيد تلك الأقطار على ما ينبغي، ثم كتب كتاباً إلى ولاة المغرب يصف فيه الحال وما قاساه في تلك السفرة من الحل والارتحال، فقال في كتابه بعد الافتتاح والطابع المشتمل على اسمه المبارك ما نصه: وبعد، فإن الله تعالى لما أقام عبده بمحض الفضل والاختيار وأورثه الأرض وعمر به الأقاليم والديار، لم تكن لنا همة فيما عدا السعي في صلاح المسلمين، وانتظام أمرهم وجمع كلمة المؤمنين، ولم تألف في ذلك جهداً حتى يسر الله سبحانه قبل في الوصول إلى سائر قبائل رعيتنا السعيدة، وتخللنا أراضيهم كلها بجيوش الله المصحوبة بالعناية المزيدة، فلم نترك من الأقاليم إلا التزير الغير المعتبر، أو ما كان في الوصول إليه إلا مجرد المشقة والضرر، وتفقدنا من أحوالها الأمور وأجريناها على ما يرضي الله من الاستقامة في الورود والصدور، وكان مما يقي علينا الوصول إليه هذه الأصقاع الصحراوية والمعاقل البربرية، التي كان يفهم قبل أنها صعبة المرتفق عديمة وجود الارتفاع، فاستخرنا الله تعالى وتوكلنا عليه وفوضنا الأمر كله إليه، وعلمنا أنه تعالى إذا أراد أمراً هيأ له الأسباب، وفتح إلى الوصول إليه المغالق والأبواب، وكل شيء منه وإليه كما قال ابن عطاء الله في حكمه: «إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك، وما من نفس تبديه إلا ولو فيك قدر يمضي»، فنهضنا من حضرتنا العلية فاس المحمية واستقبلنا هذه النواحي البربرية، ونصر الله وفتحه يواليان علينا في كل أوان، ويتجددان ما تجدد الملوان، ونعم الله لدينا متسابقة وتدبرات قدرته الجليلة لنا محكمة العقد متناسقة، فجاوزنا بلاد آيت يوسف مروراً وعبرنا بلادبني مكيلد عبوراً، ووجدناهم جميعاً منقادين للطاعة أتم انقياد، ملقين لجانبنا العالي بالله الرسن والمقاد، واقفين مع النهي والأمر، لم يتخلف عنهم في ذلك زيدهم ولا عمرو، واستقبلنا بجيوش الله المنصورة وجندوه الموفورة قبيلة آيت أزدك الذين هم بيت القصيد وعتبة القصيد، فسيقت إليهم من الله الهدایة وتطويت عنهم أعلام الصلاة والغواية، وتلقونا بأوائل بلادهم خائفين وجلين ومن

سيطرة الله فزعين، فجئنا للعفو إثارةً له وحرصاً على حقن الدماء وعدولاً عن القتال نظراً للصبيان والعجائز والشيوخ وضعفاء الحال، ومعاملة بالصفح لمن كان منهم ضل وغوى أخذأ بقول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ أَفَرَبْعَةٌ لِّتَقْرَئُواْ﴾ [البرة: ٢٣٧] وبعد أن تحققت منهم التوبة وسعوا في تحصيل مرضات الله وخارطنا الشريف بما محا عنهم الهافة والحبوة، وصبر سباتهم حسناً وأبعدهم عن المثلثات، فقابلناهم بما أزال دهشتهم وفرعهم وكشف جزعهم، فانشرحوا وسايروا ركبنا الشريف في زيه وجموعهم بسرور ونشاط، مغبطين بمقدمتنا السعيد أتم اغتاباط، إلى أن خيمنا عليهم بأوطاط، فأظهرروا من حسن الامتثال والطاعة ما وصلوا به إلى الغاية وقاموا بواجب المحلة السعيدة من الضيافات والمبررة وشرعوا على الفور في دفع ما وظفناه عليهم من الأموال، متشارعين إلى الأداء في الحال، منقادين لكل ما أريد منهم من الأعمال، فنهضنا للتخييم بمركز بلادهم على وادي زيز، وحادي الميامين يحدو بالفتح المبين والنصر العزيز، فاستوفينا منهم فيه ما بقي من المفترض، وحصلنا منهم بعناية الله على غاية الغرض، ثم ارتحلنا عنهم مصحوبين بكتيبة منهم معتبرة وافرة العدد كثيرة المدد مشتملة على عدد له بال من خيولهم وصناديد رجالهم وحللنا ببلاد آيت مرغاد، فتلقو ركبنا الشريف بطاعة وخضوع وانقياد، مظهرين الإذعان في كل ما منهم يراد، وقاموا بأداء الفرائض والتواكل مبت Hwyجین بطلعتنا الشريفة في سائر المنازل وكل ذلك بتيسير الله وتسديده وإرشاده وتوفيقه وإرادته وتسهيله كما قال صاحب الحكم: «ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك»، مع سياسة صدقت بها أنباء الكتب وادخرت بها المرهفات في الحقب، وحققت الدماء ببارقة مداد الأقلام، وصبت الأعراض وأغنى الكلام السياسي عن الكلام، ودوخنا بلادهم كلها غورها ونجدها على ما هي عليه من الوعورة وتعاظم الجبال التي يخال أنها تنادم القمر، وتصافح الكوكب مهما بزغ وظهر، فسبحان الله ما أعظم شأنه وأوضح برهانه، إلى أن حللنا بمركز أرضهم بتادغوست وبها قرار قطب رحابهم في جاهليتهم المفسد علي بن

يحيى المرغادي الذي طالما حذر الإذار ولسان حاله يقول: لا حياة لمن تنادي، فوقع القبض عليه ووجهناه مصدراً إلى مراكش على سنة الله فيمن زلت به القدم، وصار حليف التأسف والندم، وأراح الله منه العباد وظهر منه البلاد، وفيما قبل ذلك كنا وجهنا من يستوفي من آيت حديدو ما وظف عليهم في المغارم، ويأتي من عندهم بما هو لهم لازم، فلم يظهر منهم ما يفيد ورجع الموجهون بغير طائل ولا عتيد، فترصدنا من أعيانهم وأهل الحل والعقد منهم جماعة وافرة تقرب من المائتين وقبضنا عليهم بأجمعهم جزاء وفاقاً حتى يؤدوا جميع ما فرض عليهم بحول الله، وتوجهنا والسعادة تقدمنا والميامين تحفنا وصحبة ركابنا الشريف من جيش آيت مرغاد قدر كثير العدد، قوي المدد. مشتمل على ألف من الخيول والأبطال، ولبيوت الحرب والنزال، إلى أن وصلنا إلى قصر السوق فوجدنا به جيش خدامنا آيت عطة في انتظار جانبنا الشريف لمصاحبة ركابنا السعيد المنيف، وهم في عدد عديد، وقوة ما عليها من مزيد، يقربون من الأربعة آلاف فارس وكلهم ليوث عوابس، ومعهم من رماة إخوانهم عدد كثير معتبر، كأنهم سيل إذا انحدر، فنهضوا مع جانبنا العالي بالله في جموعهم وكثرة عددهم وعددهم إلى مدغرة فتبركتنا منها بمواطئ الأسلاف وتعاهدنا أمور أهلها بحسن مباشرة وإسعاف، وأنعمنا على شرفائها بعشرين ألفاً من الريال، ووجهناها إليهم صحبة ولدنا مولاي عبد العزيز أصلاحه الله وفرقنا فيهم صلة لهم وأداء الحقوق القرابة والاتصال، وتزودنا من دعائهم الصالح بمقبول مستجاب، يرجى أن لا يكون بينه وبين الله حجاب، ونهضنا عنهم إلى بلاد عرب الصباح فتلقو ما ركبنا السعيدة في زيهم بفرح وانشراح، وقاموا بالواجبات من الميرة والضيافات، ودفعوا في الحين جميع المفروضات، ونهضنا من بلادهم إلى تافيلالت بقصد زيارة جدنا الأكبر القطب الواضح ذي السر الأظهر، مولانا علي الشريف رضي الله عنه ونفعنا به، فخرج أهلها من جميع الشرفاء والعمدة لمقابلتنا رجالاً ونساء وصبياناً وشيوخاً وكهولاً أزواجاً أزواجاً، جموعاً وفرادي وأزواجاً، وحصل لهم ابتهاج عظيم برؤيتنا، وامتلؤوا فرحاً وسروراً

بمقدمنا، وانشرحت هنالك الخواطر وسرت الضماير، وأدينا واجباً بصلة رحم من هنالك من ذوي القرابة والرحم، وكان ذلك عندنا من الأمر المهم، وأنعمنا عليهم بعشرين ألف ريال أخرى كأهل مدغرة وجهناها إليهم مع ولدينا مولاي عبد العزيز ومولاي بلغيث حفظهما الله وقسمت فيهم صلة، وأقمنا هناك ثمانية عشر يوماً بقصد الاستراحة والزيارة ومشاهدة آثار الأسلاف قدسهم الله وما أجلها ما ثر وأعظم سناها في تلك المظاهر، وعاينا ما لهم من الأماكن والأصول وتفقدناها بما أحيا مواتها كفاحاً، وازدادت به بهجة ونجاحاً، فلله الحمد بداية ونهاية، وله مزيد الشكر أولاًً وغاية نسأله سبحانه أن يجعل ما ارتكبناه في ذلك كله خالصاً لوجهه، جارياً على سبيله المستقيم ونهجه، ويتبليه بأحسن قبول، وibilgna في صلاح المسلمين غاية المأمول، ويجعل في طاعته الحركة والسكون، وعلى حوله وقوته الاعتماد والركون، وقد نهضنا إلى حضرتنا الشريفة المراكشية سائلين من الله سبحانه الإعانة والقوة والتيسير وبلغ الأمانة، وأعلمناكم لتكونوا مستبصرين بما كان، وتفرحوا بفضل الله وفتحه ونصره في الإسرار والإعلان، وهو المسؤول سبحانه أن يجعل البداية عنوان الاختمام، وibilgna من كل خير غاية المرام والسلام في خامس عشر جمادى الأولى عام أحد عشر وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله .

وكان رجوعه إلى مراكش على طريق الفائجة، ولما انتهى إلى ثنية الكلاوي أصاب الناس ثلج كثير وبرد شديد تألموا منه حتى السلطان، ثم خلصوا منه بعد عصب الريق، وفي مدة غيبة السلطان هذه حدثت حرب شديدة بين زناتة الريف وبين نصارى الإصيبيوں من أهل مليلاة وما والاها فمحققهم زناتة محققاً وشردوا بهم من خلفهم استتصالاً وقتلأً، وكان السبب في ذلك أنهم اقترحوا على السلطان أن يزيدهم في مساحة أرض مليلاة على عادتهم في كثرة الاقتراحات والتلzonات فأسعفهم وزادهم من أرض زناتة نحو الغلوة وصار الحد المشترك بين الفريقين قريباً من تربة ولی الله سیدی وارياش وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر شهير الذكر يتناوبونه للزيارة ويتبكون

به ويدفون عنده موتها، فلم يحل لنصارى مليلية بناء العسات وغيرها إلا بمحل يشرف على تربة الولي المذكور ويكشف عنها، فراودهم أهل الريف عن التخلّي عن ذلك الموضع والبناء بغيره فأبوا وأصرّوا على الامتناع وربما لسعوهم بما أحفظهم من الكلام المؤلم على عادتهم في ذلك فإن هذا الإصبنيل منذ كانت له الغلبة في حرب تطاوين وأهل المغرب معه في عناه شديد من كثرة ما يتعنت ويتجنى عليهم ويسمعهم من محفوظات الكلام وصرخ الملام لا سيما أوباشهم ورعاهم، وتالله لقد سمعت أذناي من ذلك ما يضيق له الصدر ولا ينطلق به اللسان، وإذا رفعت الشكایة بهم إلى أكابرهم غمصوا الحق وجادلوا بالباطل هذا دأبهم ودينهم وإلى الله وحده المستكى قوله سبحانه العتبى حتى يرضى ولا حول ولا قوة إلا به، فلما سلكوا هذا المسلك ونحوه مع أهل الريف أذاقوهم من بأسمهم شديد العقاب وأليم العذاب كما هو معلوم، فلما احتل السلطان أيده الله بحضوره مراكش من هذه السفرة قدم عليه وفد الإصبنيل يطلبون الإنصاف من أهل الريف في هذه النازلة واستصحبوا معهم سرياً من الحمام الطيار بالمكتايب والأخبار، ودار الكلام بينهم وبين السلطان في النازلة وحكم فيها من لم يكن ذا بصيرة بمعضلات النوازل من غافل أو متغافل، فرقع الفصل على أن يدفع السلطان عن دماء قتلاهم أربعة ملايين من الريال، وتم الصلح على ذلك، وكانتوا في تلك المدة كلما دار بينهم وبين السلطان كلام في القضية أطّلروا به الحمام إلى أرباب دولتهم بمادرید، والله تعالى يفعل ما يشاء ويرحم ما يريده.

وفي آخر هذه السنة كانت وفاة السلطان مولاي الحسن بن محمد رحمة الله عليه ورضوانه فإنه خرج من مراكش فاتح ذي القعدة من السنة المذكورة غازياً قبائل البربر الذين بجبال فازاز لا سيما آيت سخمان الذين غدروا بأصحابه وابن عمّه حسبما تقدم قريباً، وكان رحمه الله قد قدم من حرقة تافيلالت وهو مريض مرضًا حقيقاً في الظاهر ولكنه مزمن في الباطن، فكان يتتكلّف معه الخروج للناس وينفذ القضايا ويجلس للوفود ويجيزهم ويفعل جميع الأمور المخزنية، ثم خرج من مراكش في التاريخ المذكور على ما به

من الألم والمرض وتحامل حتى انتهى إلى وادي العبيد من أرض تادلا فأدركه أجله هنالك في الساعة الحادية عشرة من ليلة الخميس ثالث ذي الحجة الحرام متم عام أحد عشر وثلاثمائة وألف، وحمل في تابوت إلى رباط الفتح ودفن بإزار جده الأعلى سيدى محمد بن عبد الله رحمة الله على جميعهم آمين.

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر، وكان رحمه الله من خيار الملوك العلوية وأفاضلهم بما نشر من العدل وأصلاح من الرعایا وأبقى من الآثار بال المغرب ونحوه فانه تعالى يجبر كسر المسلمين فيه وبعوضهم أجراً عن مصابه آمين.

وبايح أهل العقد والحل نجله الأرضى الأبر المرتضى مولانا عبد العزيز ابن مولانا الحسن نصره الله نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً مبيناً آمين، وهو الآن على كرسي ملكه بفاس المحروسة كما ينبغي وعلى ما ينبغي وقد تسرب إليه جماعة من نواب الأجناس كعادتهم مع والده من قبله فقدموا عليه حضرة فاس مظهرين أنهم إنما قدموا للتهنئة ومرادهم خلاف ذلك ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَتَكَبَّرُونَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْبِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وما ظنك بمن يزعم أنه قدم للتهنئة وهو مقيم بالحضره هذه مدة من أربعة أشهر يتتجسس الأخبار ويتططلع العورات ويترصد الغفلات، ويبحصي الأنفاس لعله تظهر له خلة أو تمكّنه فرصة، نسأل الله تعالى أن يرد كيده في نحره، ويعديه بعاره وعره آمين. ولعمري ما الحال على هذا ونحوه إلا قلة الحباء من الله ومن الناس، وإنما معنى الإقامة في سبيل التهنئة أربعة أشهر، ثم انظر ما يزيد منها بعد ذلك، وكان مما يؤثر من كلام النبوة الأولى «إذا لم تستطع فاصنع ما شئت» وحسبنا الله ونعم الوكيل.

واعلم أن أحوال هذا الجيل الذي نحن فيه قد باينت أحوال الجيل الذي قبله غاية التباين وانعكسـت عوائد الناس فيه غاية الانعكـاس، وانقلبت أطوارـ أهل التجارة وغيرها من الحرف في جميع متصرفـاتهم لا في سـكـكم ولا في

أسعارهم ولا فيسائر نفقاتهم ب بحيث ضاقت وجوه الأسباب على الناس وصعبت عليهم سبل جلب الرزق والمعاش حتى لو نظرنا في حال الجيل الذي قبلنا وحال جيلنا الذي نحن فيه وقاييسنا بينهما لوجدناهما كالمتضادين، والسبب الأعظم في ذلك ملابسة الفرنج وغيرهم من أهل الأريا للناس وكثرة مخالفتهم لهم وانتشارهم في الآفاق الإسلامية، فغلبت أحوالهم وعوائدهم على عوائد الجيل وجذبته إليها جذبة قوية، وأنا أحكى لك حكاية تعتبر بها وتستدل بها على ما وراءها وهي أنني ذاكرت ذات يوم رجلاً من أهل جيلنا في هذا المعنى فقال لي : إن لي راتباً سلطانياً أقبضه في كل شهر قدره ثلاثة أوقية قال : فكنت في حدود السنتين ومائتين ألف أقبض فيه عشر بساط لأن صرف البسيطة يومئذ ثلاثة أوقية، فلما أخذت السكة في الارتفاع بعد السنتين صرت أقبض فيه تسعة بساط وفلوساً، ثم بعد ذلك بسنة أو سنتين صرت أقبض ثمان بساط وفلوساً، ثم سبع بساط وفلوساً وهكذا إلى أن صرت اليوم في أعوام التسعين أقبض في الثلاثين أوقية بسيطة واحدة وشيناً من الفلوس اهـ. فانظري إلى هذا التفاوت العظيم الذي حصل في الجيل في مدة من ثلاثين سنة أو نحوها، فقد زادت السكك والأسعار فيها كما ترى نحو تسعة عشر، والعلة ما ذكرناه ويكثر بكثرة الاختلاط والممازجة مع الفرنج ويقل بقلتها، والدليل على ذلك أن أهل المغرب أقل الأمم اختلاطاً بهم فهم أرخص الناس أسعاراً وأرفقهم معاشًا وأبعدهم زياً وعادة من هؤلاء الفرنج، وفي ذلك من سلامه دينهم ما لا يخفى، بخلاف مصر والشام وغيرهما من الأمصار فإنه يبلغنا عنهم ما تنص عنه الآذان فليتأمل هذا الذي ذكرناه وليرى منه سر الله في خلقه.

واعلم أيضاً أن أمر هؤلاء الفرنج في هذه السنتين قد علا علواً منكراً وظهر ظهوراً لا كفاء له، وأسرعت أحواله في التقدم والزيادة إسراعاً متضاعفاً كتضاعف حبات القمح في بيوت الشطرونج حتى كاد يستحيل إلى فساد، وعلم عاقبة ذلك وغایته إلى الله تعالى المنفرد بالغيب.

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم وهذا ما قصدنا جمعه من هذا الكتاب، والله الملهم للصواب، ﴿رَبَّنَا
ظَلَّنَا أَفْشَكَنَا رَبَّنَا لَمْ نَقْرِئْ لَنَا وَتَرَكْنَا لَنَكُونَنَا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] وصلني الله وسلم وببارك على سيدنا ومولانا محمد وآلـه وصحبه وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تقریظ الطبعة الأولى لكتاب الاستقصا

**تقریظ العلامة الأديب السيد
أحمد بن المأمون البلغائي الحسيني**

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا وموانا محمد النبي
الكريم وعلى آله وصحبه ذوي المجد الفخيم .

الحمد لله الذي أنعم علينا بالكمال الإنساني ، وتركت إلينا بأحسن التقويم
في النطق اللساني ، نحمد الله وله الحمد في الأولى والآخرة على نعمه التي لا
تحصى ، ونشكره على منتهي التي لا تعد بالاستقصا ، ونصلى ونسلم على نبيه
سيدنا وموانا محمد أفضح من بالضاد نطق ، المنزل عليه في حكيم الذكر
وكذلك نقص عليك من أبناء ماقد سبق ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن
قص علينا قصصهم من أئمة الدين صلاة وسلاماً ندرك بهما مدارك الكمال ،
ونبلغ بهما منتهى الآمال أما بعد ، فيقول العبد الفقير إلى مولاه الغني الكبير
أحمد بن المأمون الحسني العلوي البلغائي السجلماسي أصلاً وداراً الفاسي
منشاً وقراراً ، تقبل الله صالح أعماله وبلغه في الدارين غاية آماله ، لما أن
وقفت على هذا التاريخ المفيد وقوف طالب مستفيد ألفيته مرغوب الليبيب
ومحبوب الحبيب ، قد جمع فأوعى وبلغ من الإتقان غاية المسعى ، حيث
احتوى على أخبار الأقطار المغاربية واستقصى أهم الأوطار من أبنائها الشهية ،
فطابق اسمه مسماه ، ووافق لفظه معناه .

كتاب رأيت الحسن فيه مفصلاً كما فصل الياقوت بالدر ناظمه
فكان له نشر يفرح وبهجة كما افتر عن زهر الرياض كمائمه
ولعمرى أنه لتاريخ تشدق إليه الرجال ، وتعتکف بجامعه الأزهر جهابذة

الرجال، إذ أغنى وأقنى، وبلغ الناظر فيه ما تمنى، يعني عن غيره من الموضوعات في فنه بصحة أسانيد المرووعات على أعلام حسنه تناديك منه سطوره والطروس، لا تلتفت لغيري فلا عطر بعد عروس، وكيف لا ومولفه العلامة من هو في غرة هذا العصر علامة الطالع الأسعد، والستند الأسعد، المحقق القناد، والمشارك في جميع الفنون بالذهن الواقاد، المرتوي من نهر كل فضيلة بما راق وحلا، أبو العباس سيدى أحمد الناصري الدرعى شمس ثغر سلا، أبلى الله بركته وأدام في اكتساب المعالي حركته فله دره من مؤلف ألف بين الكمالات، وشنف السمع بأصبع المقالات، في هذا التاريخ الذي أرخت في صحائف الكمال آياته، وخلدت في دفاتر المجد فضائله وكراماته، وقد زاده رونق الطبع نوراً على نور، وأفاده اجتلاء على منابر الظهور، فقرب نوره لمقتبسه، وسهل ملكه لمترمسه، ولما ملك حسنه خاطري وفؤادي، وسلك بين منهج قصدي ومرادي، وصرت به أنشط من ظبي مقمر، وأسلط عليه من ذئب متنمر، تشوفت لإنشاء امتداحه وتشوقت لإملاء أمداحه، بما لا أعده في شيء من طبقات الفصاحة عند فرسان هذا الميدان، ولكن عذرني عند الواقع عليه أنه لقطة عجلان ما له في الأدب يدان، فقللت في ذلك مؤرخاً تمام طبعه في بداعة صنعته ورقة طبعه بقول وسيط من بحر البسيط:

أخبار أهل الهوى ما زال يرويها هاموا وقاموا بالحان تواتيها ما نالني في هو خود أفيديها لما غدا وهو مطروح بناديهها وبالشذلل والشكوى يناديها رقت لنما به من نار يقاديهها وأن ما بي منها ليس تمويهها بالعطاف من طلعة سبحان باريها السيف حاجبها والحسن كاسيهما أو أعرضت بلحظة جرحت كبدى	حتى إذا سمعوا العشاق مخبرها لكنهم أبداً في الدهر ما سمعوا خود بها الصب قد لذ العذاب له يرجو رضاها ولم تسمع بوصلته قد استرقته في شرع الغرام وما حتى استبان لها أني على تلف جاءت إلي على فور تعلينى فأتحفنت بحتف الرمز من مقل إن أومات بلحاظ جرحت كبدى
--	--

العطف يجرحها والهجر يبتليها
حب الملاح فإن القلب يبغيها
بغاء سلبت عقلني معانيها
صرعى وطرحى جميماً في مغانيها
في شأن من ببعادي كان يغربيها
هجر على رغم من يبغى لك التبها
أخبار تاريخ الاستقصاء تملئها
كل التواريخ بالإتقان عادبها
يلهيك عن نغمة الألحان راوبيها
سماع من كل ذي لب يدانبها
تود إذن العلا أن لو تحليها
قد كان في المغرب الأقصى دواعيها
تظرف بها به يستدعيك قاصيها
تشاقها همم ترحو توافيها
أبصار فكرك تستجني أمانبها
أزهارها حكم إن رمت تجنبيها
من كل معنى غداً للنفس شافيها
وتستلذ بها أبصار رائيها
من فيه يرسل أعط القوس باريها
همام غايتها من ذا يجاربها
ناك العلا واعتلى أعلى أعلىها
بغيرها شغل دابة يواليهما
في كل قطر من الأقطار يوليهما
ترى شموس الهدي كشفاً لباغيها
مدت إليها أقاصي الأرض أيديها
كالشمس مع رفعها يبدو تدانيها

ما حيلتي في الهوى وما دوا كبدى
إنني خلعت عذاري فاعذروني في
فهل ملام على من صار ذا وله
إذا بدت لأولي الألباب شتمهم
يا حسن ما حدثتني عندما عطفت
قالت لك الوصل مني ليس يعقبه
تخال نطق لماها عندما نطق
ذاك الكتاب الذي فاقت صناعته
للله ما قد حوى من كل واقعة
ومن محاسن أحوال تتوقف لها الأ
ومن نوادر قد كانت لذى أدب
أغنى وأثنى بأخبار مصححة
كم من فوائد قد كانت أوابد لم
ما شئت من أدب غض ومن ملح
فاعكف عليه ونزعه في بداعه
فإنه روضة أشجارها قصص
أنهارها من معين ما به كدر
بل جنة جمعت آمال أنفسنا
لا غرو حيث غدا مفتاح بهجتها
ذلك الأبيب الأريب العالم العلم الـ
الناصري أبو العباس أحمد من
نقاد كل فنون العلم ليس له
فكم أجاد وكم أسدى فوائدها
أنسى إيساساً بأفكار له وقدت
فهذه قبسه من نور عمله قد
نالت أشعتها الأيدي على بعد

رأى الحقيقة في أفكار قاريها
 لكن ذا قد حوى أصح ما فيها
 مما جرى عن قريب فيه تلفيهما
 بدت معاليمها هدياً لأنتها
 وطاف في شاسع الأقطار ساقيتها
 لطبع آياتها كيما تجليها
 يهدى الضليل بها إن جائما شياها
 فالحمد لله كم نعماء يسديها
 معالم الطبع بالبشرى تناهياها

تربك سيرة قطر الغرب كيف مضت
 إن التواريخ في أخباره كثرت
 بل زاد أنباء قوم لم تكون جمعت
 مع ما حوى من علوم من مؤلفة
 أعظم بها منحة قد دعم نائلها
 فرقة الطبع قد نمت بها وسررت
 فعاد منها محياتها كما قمر
 كمال طبع حلالها جاء وفق مني
 مع منتهى أرب قل كي تؤرخه

472 545 113 181

سنة 1312

هذا التاريخ يعرف من بين أنواعه بالمذيل وحقيقة أن تكون جملة التاريخ
 ناقصة فتكمل بحرف أو أكثر مع التنبيه على ذلك بإشارة تتضمن تورية وبيان
 ذلك هنا أن جامع عدد قوله: «معاليم الطبع بالبشرى تناهياها» هو عشرة
 وثلاثمائة وألف فتوقف العدد المؤرخ به على اثنين. أشرت لها بقولي: «مع
 منتهى أرب» ومنتهى أرب هو الباء التي باثنين فاستوفى عدد التاريخ، هذا
 وليلعم من يقف عليه من أدباء أهل المغرب، أني حسبت حرف الشين من
 قوله بالبشرى بثلاثمائة على اصطلاح المشارقة فيها لا بألف كما هو
 اصطلاحنا، وهي أحد المحرف الستة التي اختلف فيها اصطلاح الفريقين وقد
 تمذهب بمذهبهم في هذا التاريخ مراعاة لمحل الطبع، كما يستحسن ذلك
 مني سالم القريبة والطبع، والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو حسيبي ونعم
 الوكيل.

تقریظ الأدیب السيد إبراهیم الأزهري

حمدًا لمن أضاء عقول الخلف بأنوار تواریخ السلف، وصلوة وسلاماً على من قصّن عليه أحسن القصص في كتابه المكتون، وأخبره بسرائر ما كان وما يكون، وعلى آله وأصحابه الذين أشرقت صحائف التاريخ بآياتهم الباھية الباھرة، وتزيینت المحافل بمحاسن إحسانهم الزاهية الزاهرة أما بعد، فإن علم التاریخ كنز يجب التحلی ببنفاس فرائده، وروض لا غنية لأحد عن مجاني فوائده، وكم للعلماء فيه من تصانیف مهمة عادت بالمنافع الجمة على كل أمة، فلم ترق أمة إلى عرش تمدنها إلا بتبحرها في هذا الفن وتفتنها، وأن أجل ما ألف في کتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، فهو أول كتاب كشف الغطاء عن هذه الممالك، وقرب لم يهمه الوقوف على حقيقة أخبارها جميع المسالك، وأبان عن أول من دخلها من الصحابة رضي الله عنهم لرفع أعلام الإسلام، وما هي عليه من المعارف التي لم تطو سجلات نشرها تعاقب الأيام لا سيما بلاد الأندلس وما لها من الحضارة والأبهة والحضارة، وما لبلاد الجزائر من كل أثر جليل يشهد برفعه قدرها جيلاً بعد جيل مع تحریر التراجم للملوك والأعاظم، وما دهم هذه البلاد من الواقع الحرية التي أثارت غبارها يد الدسائس الأجنبية، وما ثبت لهذه الدول من الاختراعات والاستكشافات، وما بينها وبين الدول الأخرى من المواصلات والمعاهدات، كل ذلك بعبارات صادقة ومحررات شافية.

حدث المغرب الأقصى	قد استقصاه الاستقصا
كتاب جل مبدعه	على نسق به اختصا
بذا والناس في شغف	ليقتنيص النهى قنقا
فتاهوا في محاسنه	فأرشدهم بما أوصى
فيما الله ما أعلى	وما أغلى وما أحصى
فكيه في فکاهته	صدق القول إن قصا

عليه فكن أشد النا س في استقصائه حرصا
 تسجد غرراً حوت درراً عليها تكثر الغوصا
 وكيف لا ومؤلفه إنسان عين الأدب، وترجمان لسان العرب، جوهر
 بحور المعارف وسويداء صدور العوارف، من أجمعوا الفضائل على التباكي
 بسيرته، وتسابقت المحامد إلى الاقتباس من مشكاة سريرته، ألفته الحكمة
 فسامرها وما سلا، علامة المشرق والمغرب فضلاً عن كونه تاج مجد سلا،
 بحر العلم الخضم الراوي، شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري السلاوي،
 ولأجل أن يعم النفع الجزييل بهذا الأثر الجليل، قام حضرة مؤلفه بطبعه في
 إحدى مطابع القطر المصري، حتى أشرف بدر كماله على الكوكب الدربي
 بمشاركة كل من صاحب الحسب العاطر، والنسب الطاهر، صاحب الشرف
 والمجد السنوي السيد الحبيب البلغشتي الحسني، وحضرته من هو لكل كمال
 مصطفى جناب محمد أفندي مصطفى فهؤلاء السادة هم السبب في تعميم
 نفعه، وتعطير الآفاق بعيير طبعه بمطبعة حضرة الأندي الشهير باتقان
 الصناعة وكمال رونق الطباعة جزاهم الله بهم وفضلهم أكمل جراء عن العلم
 وأهله وكان انتهاء طبعه الأنثيق واستكمال حسته الرقيق في أواخر شهر رمضان
 المعظم سنة اثنين عشرة بعد الألف والثلاثمائة من هجرته ^ي~~ي~~.

تم الجزء التاسع والأخير من كتاب الاستقصا

فهرس الموضوعات

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام وأوليته ونشاته 3	
بيعة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمة الله 4	
اجتماع البربر على بيعة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام والسبب في ذلك 6	
نهوض السلطان المولى عبد الرحمن لتفقد أحوال الرعية ووصوله إلى رباط الفتح 7	
خروج السلطان المولى عبد الرحمن إلى مكناسة ونقله آيت يمور إلى الحوز ومسيره إلى مراكش 9	
نكبة ابن الغازي الزموري وما آل إليه أمره 11	
ولاية الشريف سidi محمد بن الطيب على تامسنا ودكالة وأعمالها 12	
شروع السلطان المولى عبد الرحمن رحمة الله في غرس أجدال بحضورة مراكش 13	
ولاية القائد أبي العلاء إدريس بن حمان الجراري على وجدة أعمالها 15	
فتح زاوية الشرادي والسبب الداعي إلى غزوها 17	
هجوم جنس النابريال على ثغر العرائش والسبب في ذلك 24	
استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وما ترتب على ذلك من دخول أهل تلمسان في بيعة السلطان المولى عبد الرحمن 26	
خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمن والسبب في ذلك 32	
ظهور الحاج عبد القادر بن محبي الدين المختار بالمغرب الأوسط وبعض أخباره 41	
انتقاض الهدنة مع الفرنسيس وتمحيص المسلمين بليسي قرب وجدة والسبب في ذلك 49	

56.....	بقية أخبار الحاج عبد القادر وانقراض أمره وما آل إليه حاله
67.....	ثورة إبراهيم يسمور اليزدي بالصحراء
71.....	بعث السلطان المولى عبد الرحمن أولاده إلى الحجاز وما اتفق لهم في ذلك .
76.....	وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمة الله
78.....	بقية أخبار أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن وسيرته ومأثره
80.....	الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمة الله
84.....	انتقاد الصلح مع الإصبيان واستيلاؤه على تطاوين وزجوعه عنها والسبب في ذلك
103.....	القول في اتخاذ الجيش وترتيبه وبعض آدابه
108.....	ثورة الجيلاني الروكي ومقتله
110.....	إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمة الله بعرب الرحامة ...
124.....	وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمة الله
125.....	بقية أخبار السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمة الله ومأثره وسيرته
128.....	الخبر عن دولة ملك الزمن أمير المؤمنين المولى حسن بن محمد ابن عبد الرحمن خلد الله ملكه

فهرس الأعلام والقبائل

حروف (١)

آزطوط .53.	إبراهيم بن أحمد الأكحل - .56
آل مهاوش 200.	إبراهيم بن عبد الرحمن 71 - 72 - .75
آل هاشم .82.	إبراهيم بن يزيد 6 - 11.
آيت أدراسن 7 - .18.	إبراهيم يسمور اليزدكي .67.
آيت باعمران 21 - .176.	ابن يزيد 3 - .6.
آيت حديدو 200 - .204.	ابن الحفيان .63.
آيت حلبي .169.	ابن خلدون 87 - 147 - .195.
آيت سخمان 199 - 200 - .206.	ابن دارود .123.
آيت شغروشن 142 - 143 - .169.	ابن الزبير .189.
آيت عطة .67.	ابن العسال .50.
آيت عياش 134 - .169.	ابن عطاء الله .202.
آيت مرغاد 200.	ابن الغازى الزمرى .7.
آيت والان .169.	أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الجراوى .81 - 146.
آيت ومالو .199.	الرياحى .5.
آيت يزدق .169.	أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الجريري .165.
آيت يفلمان .67.	أبو إسحاق إبراهيم الوراوى .10.
آيت يمور 10 - .88.	أبو البقاء خالد بن حماد الناصري .158.
آيت يوسى 135 - .169.	أبو بكر رضي الله عنه .74 - 111.

- | | |
|--|--|
| أبو العباس أحمد بن محمد بن شقرورن
المراكشي 136 - 138 .
أبو العباس أحمد بن المكي السدراتي 46.
أبو العباس السبتي 79 .
أبو عبد الله آكنسوس 8 - 15 - 11 - 21 - 55 - 60 - 68 - 74 - 79 - 81 - 118 - 125 - 128 - 161 .
أبو عبد الله بن المرابط المراكشي 20.
أبو عبد الله الحاج العربي بن علي الوزاني 62.
أبو عبد الله الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبيدي 54 - 55 - 151 .
أبو عبد الله حبيب بن هاشم بن جلون 115 - 116 .
أبو عبد الله الدرقاوي 6 - 7 - 9 - 11 .
أبو عبد الله البوحيمدي 42 - 55 - 56 .
أبو عبد الله عبد القادر العلمي 61.
أبو عبد الله العربي الجامعي 60 - 76 - 165 .
أبو عبد الله غريط 76 .
أبو عبد الله محمد الباعمراني 21.
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم 4 - 174 .
أبو عبد الله محمد بن إدريس 4 - 14 - 16 - 20 - 29 - 30 - 38 - 45 - 47 - 50 - 68 - 60 .
أبو عبد الله محمد بن إدريس الجراري 149 - 127 - 99 .
 | أبو بكر بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله 71 - 72 .
أبو بكر بن محمد عواد 120 - 152 - 165 .
أبو بريح 9 .
أبو بكر بن مهاوش 6 .
أبو تمام 61 .
أبو جندل 187 .
أبو جمعة بن سالم 7 .
أبو الحسن بن غالب 74 .
أبو الحسن علي بن عبد السلام مدیدش التسلوي 46 - 47 .
أبو الحسن علي بن محمد عواد 166 .
أبو الحسن علي بن الجناوي 50 .
أبو حفص المتركي 148 .
أبو الريبع سليمان بن محمد 3 - 4 - 5 - 6 - 8 - 10 - 11 - 14 - 17 - 18 - 20 - 24 - 32 - 74 - 78 - 97 .
أبو زيان بن التساوي الأحلاني 16 .
أبو زيد عبد الرحمن بن التهامي البريري 160 .
أبو زيد عبد الرحمن الزراري 145 - 146 .
أبو سلهم 108 .
أبو الطيب المتنبي 122 - 189 .
أبو العباس أحمد بن زيدوح 65 .
أبو العباس أحمد بن عاشر 38 - 46 - 79 .
أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي ستة |
|--|--|

- | | |
|--|--|
| أبو عبد الله محمد الطيب اليماني
بوعشرين 122 . | أبو عبد الله محمد بن حسون - عواد
.61 . |
| أبو عبد الله محمد عبد الهادي زنبر
الطاوني 62 - 63 . | أبو عبد الله محمد بن زروال الرحمنى
.148 . |
| أبو عبد الله محمد ملاح السلاوي 19 -
.20 . | أبو عبد الله محمد بن سعيد السلاوى
.116 - 117 . |
| أبو عبد الله محمد الهاشمى 46 . | أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن
الفيلالي 76 . |
| أبو عبد الله محمد الكتافى 146 -
147 - 149 . | أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز
محبوبة 112 . |
| أبو عبد الله محمد الهاشمى الطالبى 46
- 178 . | أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم
الشرقي 116 - 117 . |
| أبو عزة الهبرى 142 - 143 . | أبو عبد الله محمد بن علي الحاجى
.45 . |
| أبو العلاء إدريس الجعیدي السلاوى
151 - 170 . | أبو عبد الله محمد بن المدنى كنون
.178 . |
| أبو علي الحسن بن تيمكيلشت 149 . | أبو عبد الله محمد بن مرزوق 17 . |
| أبو عمران موسى بن أحمد 165 . | أبو عبد الله محمد بن يشو المالکي 10 . |
| أبو عنان 58 . | أبو عبد الله محمد الحرائق الطاونى 70 . |
| أبو محمد صالح 19 . | أبو عبد الله محمد الخطيب الطاونى
.97 - 84 - 74 . |
| أبو محمد عبد السلام بن عبد الكريم
الحارثي 100 . | أبو عبد الله محمد الصفار 60 - 66 -
.76 - 80 - 137 . |
| أبو محمد عبد السلام بن محمد
السوسي 164 . | أبو عبد الله محمد الطيب البار الفاسى
.11 . |
| أبو محمد عبد السلام البوعنانى 31 . | أبو عبد الله محمد الطيب الطاونى 71 . |
| أبو محمد عبد السلام شقشاق الفاسى
.8 . | أبو عبد الله محمد الطيب الدرقاوى
.122 . |
| أبو محمد عبد الله بن حسون 83 . | |
| أبو محمد عبد الله بن عبد الملك بن
يهيا الحاجى 119 . | |

أبو محمد عبد الله بن الهاشمي بن خضراء ١٥٢ - ١٦٦ - ١٦٩ - ١٧١ - .١٧٢.
أبو محمد عبد الله الديماني ٢٣.
أبو محمد عبد الله فنيش السلاوي ٧٦.
أبو محمد العربي بن محمد الشرقي ١٦٩.
أبو محمد الغزواني ١٢٢.
أتراك الجزائر ٢٦ - ٤٩.
أجناس الفرنج ١٧٤ - ١٨٢ - ١٩٠ - ٢٠١.
أحمد باشا ٢٧.
أحمد بن خالد الناصري ٤٤ - ١٩٩.
أحمد بن داود ١٢٣.
أحمد بن طالب ابن سودة ٧١.
أحمد بن عبد الرحمن ٥٧ - ٨٩ - ٩٠.
أحمد بن عبد القادر التستاوي ٦١.
أحمد بن عبد الملك ٤.
أحمد بن مالك ١٤٦ - ١٤٧ - ١٦٠ - .١٦٠.
أحمد بن المحجوب البخاري ٣٣ - ٣٤.
أحمد بن المؤذن ١٢٩.
إدريس الأكبر ١٠٩ - ١٣٥.
إدريس بن حمان الجراي ١٥ - ١٦ - ٢٧ - ٣٦ - ٣٥ - ٣٢ - ٣١ - ٣٠ - ٢٩ - .٣٨ - ٣٧ - .١٣٩.
إدريس بن عبد الرحمن السراج ١٣٧ - .١٣٩.
إدريس الودي ٣٤.
إردنيل ٨٦ - ٩١ - ٩٤ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠.
أهل الجبل ٩٠.
أهل الجزائر ٢٧.
أهل تلمسان ٢٧ - ٢٩ - ٣٠ - ٤١ - ٤٢ - .٤٩.
أهل تطاوين ٨٦ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩٣ - .٢٠١.
أهل تامسنا ١٢.
أهل تازا ١٤٣ - .١٥٨.
أهل آزمور ١٣٣.
أهل اليمصار ٤.
أهل البدية ٨٧ - ١٠٥.
أهل آزمور ١٩٧.
أهل تلمسان ٢٧ - ٢٩ - ٣٠ - ٤١ - ٤٢ - .٩٣.
أهل الأنصار ١٠٠.
أمير المسلمين ١٠٠.
أمير النصارى ١٠٠.
أمير العثماني ٢٧ - ٢٨.
إلياس عليه السلام ١٥٧.
أعراب البدية ١١٨.
الأعراب ٧٥ - ٨٨ - ٩٠ - .٩٣.
إسماعيل بن محمد ١٣٤.
الأشراف الأدارسة ١٠٩.
الإصبعين ٨٥ - ٩٧ - ١٠٠ - ١٦٤ - ١٧٧.
اسكندر ١٩٦.
أرسسططاليس ٦٨ - ١٩٦.

أهل المغارب .5.	أهل الجزائر وتلمسان .91.
أهل المغرب الأوسط .51	أهل الحجاز .189.
أهل المغرب 4 - 8 - 13 - 50 - 85 - .	أهل الحوز .81.
أهل المغرب 147 - 166 - 190 - 206 - 208 - .	أهل الديوان .4.
أهل وجدة .145.	أهل رباط الفتح .54.
أولاد حرب .12.	أهل الريف .206.
أولاد الشيخ .6.	أهل زرهون 10 - 88 .
أولاد نصیر .168.	أهل سبتة النصارى .84.
أولاد أبي السبع .148.	أهل سلا .64.
أولاد يحيى بنى حسن .135.	أهل سلا ورباط الفتح .30.
إياس .154.	أهل السوس 18 - 34 - 39 - 40 .
إيسابيلا الثانية .86.	أهل السوس الأقصى .182.
حرف (ب)	أهل الشام .189.
باشدور الإصبيوں .162.	أهل الشرق .5.
باشدور البرتغال .162.	أهل الشقة .143.
باشدور الفرنسيين .162.	أهل العدوتين 25 - 142 - 147 - 133 - .
باشدور التنجيلیز .84.	.148.
البرابرية .135.	أهل العرائش .25.
برابرة الجبال .162.	أهل الغرب .10.
برابرة الصحراء .67.	أهل غريس .31.
برابرة فازاز .119.	أهل فاس 5 - 27 - 56 - 88 - 89 - 129 - .
البربر 6 - 7 - 15 - 80 - 83 - 87 - 134 - .	.142 - 138 - 134 - .
.199 - 168 - .90 - 86 - .	أهل اللانجرة - المسلمين 84 - 85 - .
بشار بن برد الأعمى - .179.	.86.
بلغيث بن الحسن .205.	أهل المداشر 94 - 98 .
بناصر الحاج أحمد غنام .151.	أهل مراكش 76 - 80 - 81 - 110 - 123 - .
	.148 - .
	أهل معسكر .31.

- | | |
|---|---|
| جساس .153
جعفر بن عبد الرحمن .75 - 72 - 71 -
جنس الإصبعيول .147 - 85 - 84 -
جنس الدينمرث .54
جنس السويد .54
جنس الصاردو .12
جنس الفرنسيس .49
جنس النابريال .26 - 25 - 24 -
الجياني بن حمو البخاري .139
جيش آيت عطة .204
جيش آيت مرغاد .204
الجيش البخاري .80
جيش تلمسان .33
جيش السلطان .200 - 50 - 49 - 41 - 32 -
الجيش السوسي .160 - 134 - 127 - 81 -
جيش العيد .18
جيش المسلمين .99 - 89 -
جيش المغرب .97
جيش النجليز .179
جيش الودايا .40 - 37 - 32 -
الجيلاني الروكي .108 - 109 .
حرف (ح)
الحاج أحمد آبغير .91 - 92 - 97 -
الحاج أحمد بن محمد بن الهاشمي
- عواد .47
الحاج الحبيب ولد المهدى المعسکري
.43
الحاجة زبيدة .40
الحاج الطالب ابن جلون الفاسي .44 - 37 -
الحاج الطالب ابن سودة .4 . | بنو أمغار - تيط - .149
بنو أبي قيطون .143
بنو أمية .155
بنو حسن 6 - 37 - .161
بنو زمور .123
بنو سادان .143
بنو شقران .31
بنو عامر .56 - 42 - 41 -
بنو العباس .155
بنو عمير .164 - 123 -
بنو علي .154
بنو كلان .143
بنو مالك .70 - 18 -
بنو مطير .169 - 168 - 161 - 136 -
- بنو مكيلد .134 - 136 - 135 -
.199 - 169
بنو موسى .168 - 164 - 123 - 65 -
بنو يزناسن .16 - 144 - 52 - 50 - 49 -
.159 - 158 - 146
بنو وراین .143
البوصيري .198
حرف (ت)
تامستا .161
تحليت .31
الترك .26 - 15 -
تكتة .176
التوازيط .6
حرف (ج)
جيبر بن مطعم .103
جروان .7 |
|---|---|

الحاج محمد جنان البارودي التلمساني .73 - 71	الحاج عبد الرحمن باركاش .25
الحاج محمد الرزيني التطاوي 71 - 73 .74 -	الحاج عبد الرحمن بريطل .25
الحاج محمد بن العربي القباج 121.	الحاج عبد السلام بن العربي الوزاني .85 - 84
الحاج محمد العربي الدلائي 121.	الحاج عبد القادر بن محيي الدين 42 - 51 - 50 - 49 - 46 - 44 - 43
الحاج محمد المدنى بنيس 129 - 131 - 136 .	.97 - 59 - 58 - 56 - 53
الحاج المكى السدراتي السلاوى 46.	الحاج عبد الكريم بريشة 164.
الحاج منو الحامى 144.	الحاج عبد الكريم الرزيني 42 - 71
الحرث بن عوف 187.	الحاج عبد الله بن قاسم حصار
الحسن أبو ريانة 89.	السلاوى 150.
الحسن بن حمو واعزيز 7 - 34 -	الحاج العربي بن علي الوزاني 31 - 32.
الحسن بن محمد 21 - 118 - 123 - 150 - 135 - 133 - 130 - 129 - 128 -	الحاج محمد بن البشير بن مسعود 144 - 159 - 146 - 145 -
- 199 - 192 - 191 - 180 - 154 - 206 - 201 .	الحاج محمد بن الحاج محمد السوسي .54
الحسن الصغير 161.	الحاج محمد بن سعيد السلاوى 179.
الحشم 31 - 31 - 41 - 42 - 42 .56	الحاج محمد بن الطاهر الربدي 85.
الحسين بن نمير 188.	الحاج محمد بن الطاهر المغفري
حميان 31.	العقيلي 32 - 33 - 34 - 37 - 38 - 41 - 40
حرف (خ)	
الخليل عليه السلام 157.	الحاج محمد بن عبد الرزاق ابن شفرون 164.
حرف (د)	
الدباخون - فاس 129 - 137 - 138 .	الحاج محمد بن الغازي الزموري 6 - 11.
دكالة 12 - 18 - 36 - 88 .	الحاج محمد بن فرخون الجراي 32 - 41 - 38 - 34.
الدواثر 30 - 32 - 33 - 34 .44	

سعد بن عبادة .187 سعد بن معاذ .187 سعيد بن أحمد الشعروسي .142 سفيان .18 سليمان بن عبد الرحمن .60 حرف (ش) الشاوية 10 - 18 الشباتة .23 الشرارة 17 - 52 - 20 - 19 - 18 - 56 - . .109 - 97 شرافة .134 شميرين 199 - 200 الشياطنة 18 - 53 الشيخ محبي الدين بن عبد القادر .41 حرف (ص) الصفاقعة .6 صنهاجة 199 حرف (ط) طاغية الفرنسيس 27 - 116 الطاهر بن مسعود المغفرى الحسانى 32 .33 - 34 - 37 - 38 - 40 - 41 الطيب بن اليماني بوعشرين .51 الطيب الوديني البخارى .33 - 55 حرف (ظ) ظيان 6 - 10 - 199 حرف (ع) العياس 154 العياس بن عبد الرحمن .80 - 86 - 89 - . 	دول الأجناس .26 دول الأفونج .151 دول البروس .122 دولة البلجيك .151 دولة السلطان سليمان بن محمد .200 الدولة الشريفة 49 - 53 - 130 - . دولة الطليان .151 الدولة العثمانية .27 الدولة العلوية .26 دولة فرنسا 116 - 122 - 151 - . الدولة المرمية .79 دولة التجليز 113 - 151 - 191 - . حرف (ر) الرحامة 81 - 110 - 111 - 126 - 148 - . الرشيد بن عبد الرحمن 60 - 109 - . .111 - 110 روشايل .113 حرف (زاي) زاراة .23 زعير .6 الرمالة 30 - 32 - 33 - .43 زمور الشلح 76 - 77 - 157 - 162 - . زناتة .205 حرف (س) سجلماسة .8 سراغنة .126 سرور بن إدريس بن سليمان 200 - . .201
---	--

عبيد مكناة .35.	.100 - 98 - 97 - 95
عثمان رضي الله عنه .111.	العباس بن مرداش .189.
عثمان بن محمد .161.	عبدة .88
العجم .106.	عبد الرحمن بن هشام ٣ - ٤ - ٦ - ٧ -
العرب ٦ - ٤٥ - ٣٢ - ١٥ - ٨٧ - ٥١ - ٤٥ -	- ١٢ - ١١ - ٩ - ١٧ - ١٥ - ١٤ - ٨
.١٩٩ - ١٩٧ - ١٦٨ - ١٦١ - ١٤٦	- ٣١ - ٢٧ - ٢٥ - ٢٤
.١٤٥ - ٥٣ - ١٦ - ٢٠١	- ٤٤ - ٤٢ - ٣٢ - ٨٤ - ٧٨ - ٧٦ - ٧١ - ٥٣ - ٤٩ - ٤٧
عرب أتفاد .143	.١٤٩ - ٩٧ - ٨٥
عرب الأخلاف .143	عبد الرحمن بن سليمان بن محمد .83.
عرب بني حسن .18.	عبد السلام بن سليمان .8.
عرب بني مالك .142.	عبد السلام بن مشيش .201.
عرب تادلا .6.	عبد العزيز بن الحسن ٢٠٤ - ٢٠٥ -
عرب الحبانية .99.	.207
عرب الخلط .٧٠.	عبد العزيز العثماني .122.
عرب دخيبة .168.	عبد العزيز محبوبة .70.
عرب الرحامة .110.	عبد القادر بن أحمد المحروقي .135.
عرب زعير .٦٠.	عبد القادر بن عبد الرحمن .61.
عرب الزيايدة .152.	عبد الكبير بن عبد الرحمن بن سليمان .134.
عرب سفيان .108.	عبد الكريم بن عبد السلام بن عودة
عرب السهول .162.	الحارثي .108.
عرب عامر ٦٠ - ١١٨ - ١٦٢ -	عبد الله بن بلعيد .148.
عرب معقل .١٨٠ - ١٨١.	عبد الله بن عبد الرحمن ٧١ - ٧٢ -
العربي الرحمنى .148.	عبد الملك الصبرير .136.
عرفة بن محمد .158.	عبد الواحد بن سليمان .8.
عساكر القبائل .134.	.العبيد ٩ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥
عسکر الإصبنیوں .86.	عبيد البخاري ٩ - ٨٣.
عسکر الفرنیسیں .٤٣ - ٤٤ - ٥٣ -	العبيد السود .105.
عسکر المُسلمین .106.	
عسکر التجلییز .191.	

<p>فترة أهل فاس .129 - 115 .</p> <p>فرجي .60 - 40 .</p> <p>- 163 - 114 - 27 - 26 - 25 .</p> <p>السفرنج .172 - 208 .</p> <p>الفرنسيس 26 .</p> <p>50 - 49 - 44 - 43 - 42 - 26 .</p> <p>63 - 62 - 59 - 57 - 55 - 54 - 53 .</p> <p>.162 - 102 - 91 .</p> <p>فقهاء رباط الفتح .115 .</p> <p>فقهاء سلا .115 .</p> <p>حرف (ق)</p> <p>قبائل آيت باعمران .180 .</p> <p>قبائل البرير .161 - 206 .</p> <p>قبائل تادلا .123 .</p> <p>قبائل تامستا .12 .</p> <p>قبائل الجبل .94 - 86 .</p> <p>قبائل الحوز 8 - 61 - 148 - 152 .</p> <p>قبائل دكالة 10 - 12 - 161 - 174 .</p> <p>قبائل الدبر .161 .</p> <p>قبائل الريف .160 .</p> <p>قبائل الشارية .10 .</p> <p>قبائل الصحراء .180 .</p> <p>قبائل العرب .41 - 124 .</p> <p>قبائل الغرب .36 - 169 .</p> <p>قبائل المغرب .164 .</p> <p>قبيلة آيت زدك .202 .</p> <p>قبيلة آيت عتاب .168 .</p> <p>قبيلة بنى حكم .162 .</p> <p>قبيلة ذاوتان .182 .</p>	<p>عسكر النصارى 95 - 98 - 100 .</p> <p>عفیل بن أبي طالب .103 .</p> <p>علقمة .154 .</p> <p>علماء فاس .27 - 45 .</p> <p>العلويون 83 - 109 .</p> <p>علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .111 .</p> <p>علي بن سليمان 29 - 30 - 31 - 41 .</p> <p>علي بن عبد الرحمن .72 - 71 .</p> <p>علي بن محمد .145 .</p> <p>علي بن المكي .200 .</p> <p>علي بن يحيى المرغادي .203 .</p> <p>علي الشريف .124 - 204 .</p> <p>عمر بن أبي سطة .7 .</p> <p>عمر بن عبد العزيز .107 .</p> <p>عمر رضي الله عنه 74 - 103 - 111 .</p> <p>العونات 10 .</p> <p>عيسى عليه السلام 22 - 157 .</p> <p>عینة بن حصن .187 .</p> <p>حرف (غ)</p> <p>الغزالی .197 .</p> <p>الغزواني بن زيدوح .123 .</p> <p>غياثة .158 .</p> <p>حرف (ف)</p> <p>فاطمة بنت سليمان .36 .</p> <p>فاطمة بنت محمد بن قاسم الحسني .</p> <p>الإدريسي .44 .</p> <p>فتة أهل آزمور .129 .</p>
---	---

- فيفيارة زمور 47 - 65.
 فيفيارة سفيان 108.
 فيفيارة غياثة 158.
 فيفيارة مجاط 169.
 القبيلة اليعبورية 135.
 قدور بن الخضر 39.
 قريش 103 - 194.
 القسطلاني 189.
 فيس 154.

حرف (ك)

الكبير 39 - 40.
 كبير الفرنسيس 43.
 الكرغلية 30 - 32 - 41.
 كعب 154.
 كلبي 153.

حرف (ل)

لسان الدين بن الخطيب 58.
 لقمان 72.
 اللوندرة 113.

حرف (م)

المأمون بن الشريف 50.
 المأمون بن محمد 17 - 18 - 20.
 المأمون بن هشام 10 - 24.
 المأمون الزراري 5 - 8.
 مبارك بن علي بن محمد 8 - 9 - 10.
 المتنبي 189.

المهدي المنتظر .18.	مروان .154.
مهدي الموحدين .146.	مسقيوة .14.
موسى بن محمد .8.	المسلمون 43 - 44 - 98 - 100 - 101 - 186 - 151 - 149
موسى عليه السلام .157.	الشاشيل .41.
المولى إسماعيل 30 - 78 - 77 - 199 .	المصطفى بن إسماعيل .44.
(ن)	المصطفى بن الجيلاني الرباطي .61.
نابليون الثالث 59 - 117 - 121 - 122 .	معاوية .188.
النجلizer 26 - 35 - 62 - 70 - 74 - 179 .	المعتمد بن عباد .145.
النصارى 28 - 42 - 32 - 101 - 98 - 44 - 165 - 151 - 102 - 195 - 180 .	عسكر النصارى .43.
النصارى 28 - 42 - 32 - 101 - 98 - 44 - 165 - 151 - 102 - 195 - 186 .	المغافرة .34 - 39 - 40.
نصارى الإصبيون .205.	المفضل أفيلا .92.
نصارى سبعة .84.	مكتنasa .9 - 26 - 21 - 20 - 18 - 77 - 71 - 65 - 37 - 36 - 35 - 27
نصارى مليلية .206.	102 - 89 - 87 - 85 - 83 - 81 - 80 - 157 - 138 - 136 - 135 - 112 - 169 - 168 - 162 - 161 - 160
نواب الأجناس .85.	المكي القباج الفاسي .61.
نوح عليه السلام .157.	سلوك دول المغرب .199.
(ه)	ملوك المغرب .101.
الهاشمي بن العباس الزيني .10.	المملكة العلوية .130.
الهاشمي بن ملوك البلغيثي .9.	المنصور السعدي 70 - 194.
هشتوكة .18.	منوبل 25 - 63 - 99.
(واو)	المهدي .179.
وارياش .205.	المهدي بن طالب ابن سودة الفاسي 71
الودايا 4 - 6 - 35 - 34 - 33 - 18 - 36 .	.163 - 73 - 133 -
.51 - 40 - 39 - 38 -	المهدي بن محمد الشرادي الزراروي 17
.31 - ورقة .	.22 - 21 - 20 - 19 - 18 -

حرف (ي)	
يزيد .188	وقعة إيسلي 97 - .101
يونس عليه السلام .157	وقعة البروس 122 .
اليهود .113 - 114 - .149	وقعة بنيس 137 .
يهود المراسي .114	وقعة تطاوين 101 - .112
يهود مصر .113	وقعة ظيان 97 .
يهود المغرب .114 - 113 - .112	ولاية المغرب 182 - .202

فهرس الأماكن

حروف (أ)	
أرض المغرب .53	آزمور 12 - 18 - 19 .150
أرض مليلية .205	آرضاً وزان 17 .19
إسبانيا .94	آسفي 17 - 19 .17
الإسكندرية .74	آسمير .88
أشبيلية .145	أصيلاً .17
الأقطار السوسية .175	آڭادال - مراكش .13
إفريقية .4	آڭادال - الرباط 115 - 127 .127
حروف (بـاء)	
باب البجامة .34	آڭدير .182
باب الحجر .109	آڭراي .168
باب حسين .62	آموجوط .122
باب الخميس - مراكش .11	آمصال .155
باب الرب - مراكش .68 - 161 .161	آمساو .176
باريس 116 - 121 - 122 .122	آنفا 71 - 147 - 150 .150
بديع المنصور .115	أبو الجعد .123
البرج - تطوان .92	أبو الجلود .137
برج الفتار .127	أبو الخصيصات .149
البرج الكبير .55	أبو ريقى .128
برج مارتيل .89	أبو صفيحة .99
البروج .129	أرض زناتة .205

بلاد غياثة .158	.12 البريجة
بلاد الغرب 35 - 61 - 154 - 168 .	.145 - 146 - 160 بستان آمنة المرينية
بلاد كورت .108	.34 بستان أبي الجلود
بلاد مسفيرة .14	.37 بستيون أبي الجلود
بلاد المغرب 101 - 110 - 124 - 149 - 172 .	.37 بستيون باب العجيبة
بلاد المغرب الأوسط 44 - 49 .	.37 بستيون باب الفتوح
بلاد وجدة .158	.83 البستيون الكبير
البليدة .32	.21 بسيط آزرغار
بيت الله الحرام .72	.160 بسيط سايس
اليوت .86	.167 بغداد
حرف (ت)	.110 بلاد آيت سعادة
تادرارت .10	.203 بلاد آيت مرغاد
تاغوغشت .203	.202 بلاد آيت يوسي
تادلا 164 - 168 .	.145 بلاد الأزواب
تارودانت .33	.134 بلاد بنى حسن
تساز 16 - 33 - 35 - 53 - 102 - 143 .	.122 بلاد بنى زروال
.145 - 158 .	.202 بلاد بنى مكيلد
تافيلالت 3 - 72 - 8 - 137 - 204 .	.129 بلاد تامستا
.206 .	.179 بلاد الحبشه والنوبه
تطاوين 17 - 85 - 87 - 89 - 90 - 91 .	.164 بلاد زعير
.92 - 99 - 101 - 108 - 110 .	.126 بلاد زمران
.174 - 177 - 201 - 206 .	.163 بلاد زمور الشلح
تلمسان 30 - 31 - 32 - 33 - 35 - 41 .	.129 بلاد السراغنة
.42 - 44 - 49 - 94 - 97 - 98 .	.70 بلاد سفيان
.19 تيزريكي .	.180 بلاد السوس الأقصى
.66 - 65 .	.16 بلاد الشرق - وحده
حرف (ث)	.134 بلاد الصفاقة
ثغر الجديد 149 - 150 - 151 .	.204 بلاد عرب الصباح

ثغر الجزائر 26.

ثغر سلا 62 - 76 - 179.

ثغر المغرب 24.

ثنية الكلاوي 205.

حرف (ج)

جامع ابن يوسف 168.

جامع الأندلس 178.

جامع الفتاء 109 - 112.

جامع الكتبين 80.

جبال غمارة 201.

جبال فازاز 199 - 206.

جبل تينملل 146.

جبل زرهون 109.

جبل سلفات 10 - 40.

الجديدة 12 - 19 - 13 - 150.

الجزائر 27 - 43.

جزيرة الصويرية 11.

حرف (ح)

الحاجب 136 - 168.

الجشة 191.

الحجاج 71 - 112.

الحدبية 194.

الحرم الإدريسي - فاس 131 - 129 - 97.

- 136 - 138.

حوز مراكش 10.

حرف (خ)

خزانة الكتب العلمية 152.

المخيمات 65 - 66.

حرف (د)

دار ابن العامري 135.

دار ابن الغازى 65.

دار ابن المفتى 92.

الدار البيضاء 121 - 127 - 150 - 151 - 152.

دار الدبيغ 34.

دار الرزيني 92.

دار فابريكة البارود 127.

دار فابريكة السكر 127.

دار اللبادى 92.

دار المخزن 92.

دمشق الشام 59.

حرف (ذ)

ذراع اللوز 158.

حرف (ر)

رأس الماء 83.

الرباط 39 - 54 - 66.

رباط الفتح 8 - 10 - 18 - 20 - 38 - 40.

65 - 67 - 69 - 61 - 60 - 55 - 53 - 50.

- 108 - 115 - 119 - 124 - 125 - 133 - 134 - 147 - 152.

- 157 - 161 - 164 - 207.

رومة 116.

الريف 49.

حرف (ز)

زاوية ابن ساسي 110 - 148.

الصخيرات .79 الصويرة ٣ - ٣٨ - ٥٣ .79 الصين .167 حرف (ض) ضريح أبي عبد الله محمد الصالح بن المعطي الشرقاوي .160 ضريح أبي عبد الله محمد واعدود .150 ضريح أبي القاسم السهيلي .161 ضريح السعدي .94 ضريح الشيخ أبي شعيب .150 ضريح عبد الله البقال .94 ضريح القاضي عياض .124 ضريح المولى إدريس - فاس .136	زاوية إدريس الأكبر .109 زاوية التستاوي .61 زاوية حنصالة .160 الزاوية الشرادية ١٩ - ٢٠ - ٢١ .21 زاوية العياشي .83 زوطة .70 حرف (س) سايس .168 سبنة .87 سجن الجزيرة .41 - ١١ - ٦٧ - ٦١ - ٦٠ - ٥٥ - ٧٩ - ٧٠ - ٦٧ - ٦١ - ٦٠ - ١٥٤ - ١٥٢ - ١٢٠ - ١١٩ - ١١٨ - ١١٧ - ١٧٨ - ١٦٤ - ١٦٢ - ١٥٥ - ٥٦ سلوان . سواحل المغرب .25 السرس .19 - ٢١ سوق الأربعاء .109 سوق الخميس - مراكش .110 سوق دار البلار - باريس .121 سوق الدقاقين .79
حرف (ط) طرفية .180 طريق ققب .35 طنجة ١٧ - ٥٣ - ٧١ - ٧٤ - ٨٤ - ٨٥ . .201 - 182 - 91	الشام ٢٨ - ١٨٨ - ٢٠٨ الشماعين - فاس .67
حرف (ع) العدوين ١٠٢ - ١٠٤ العراش ٤٠ - ٥٣ - ٧٠ . عنق الجمل .33 عين بي عكاز .126 عين الدالية .86 عين زودة .60 عين قادوس .36	حرف (ش) صاكة الصويرة .17 الصحراء ١٣ - ٤٩ - ١٦٢ . صحراء تافيلالت .٢٠٢ - ٦٧ صحراء كليميم .181
حرف (غ) غابة آفغانستان .168	

قصبة الشرادي .40	.170 – 169 – 167
قصبة شرقة .34	غطfan 187.
قصبة كريان المحرizi .12	فاس 3 – 4 – 21 – 18 – 11 – 8 – 7 –
قصبة مراكش .39	35 – 33 – 55 – 53 – 42 – 40 – 37 –
قصر السوق .204	63 – 61 – 60 – 57 – 76 – 67 – 65 –
قصر كاتمة .8	104 – 83 – 80 – 136 – 129 – 124 –
القصر .74	142 – 139 – 137 – 145 – 144 – 143 –
قطر المغرب .199 – 135 – 130 – 122	146 – 155 – 154 – 148 – 147 –
قطر السوس .181 – 177 – 24	163 – 161 – 160 – 159 – 158 – 157 –
القعدة الحمراء .56	194 – 193 – 192 – 172 – 169 – 207 – 202 –
قطرة تانسيفت .76	فاس الجديد 7 – 37 – 36 – 35 – 34 –
قطرة عياد .34	201 – 137 – 60 – 40 – 39 – 207 – 202 –
القيسارية .8	فرقالة 18.
حرف (ك)	فرنسا 121.
الكدية الإسماعيلية .8	فم الجزيرة 89 – 90.
كلميم .182	فم المخنيق 136.
كيسر .129	فم العليق 89.
حرف (ل)	الفنديق 86 – 87 – 100.
لوندرا .112	حرف (ق)
حرف (م)	قبة المولى إدريس – فاس 8.
مادرید .206 – 164	القصبة 20 – 91 – 92.
مجاز الحصاء .86	قصبة آدحسان 199.
المدرسة العنانية .137	قصبة بوزنيقة 79.
مدشر القلالين .89 – 88	قصبة تادلا 123.
مدغرة .204	قصبة تلمسان 30.
مدينة سلا .83	قصبة تمارة 40.
مدينة لوندرا .76	قصبة سلوان 144.

مسجد الباشا .94.	.187 - 75 - 74 .
مسجد الشيخ أبي الحسن علي بركة 98.	.32 .مدينة وهران
مسجد القرويين 67 - 115 .	.10 .مدينة
مسجد القصبة 94 .	.174 .المراسي السوسية
مسجد المولى إدريس - فاس 8 .	- 177 - 101 - 54 - 16 .
مشروع أبي حمّى 17 .	.178 .مراسي المغرب
مشروع أبي الأعوان 55 .	- 17 - 14 - 13 - 11 - 10 - 8 .
مشروع الرحائل 57 .	- 38 - 37 - 27 - 24 - 21 - 19 - 18 .
مصر 5 - 208 - 28 .	- 65 - 60 - 55 - 53 - 45 - 42 - 40 .
المضيق 88 - 89 .	- 102 - 83 - 80 - 79 - 76 - 68 - 67 .
المغرب 68 - 56 - 45 - 18 - 13 - 6 .	- 122 - 118 - 113 - 112 - 109 - 104 .
162 - 133 - 125 - 119 - 116 - 79 .	- 128 - 127 - 126 - 125 - 124 - 123 .
.207 - 201 - 181 - 180 - 166 -	- 148 - 145 - 142 - 139 - 135 - 129 .
المغرب الأقصى 117 .	- 164 - 163 - 161 - 155 - 154 - 149 .
المقصورة 25 .	- 175 - 174 - 172 - 170 - 168 - 166 .
مكة 75 - 112 .	- 205 - 204 - 201 - 199 - 182 - 180 .
مكناسة الزيتون 16 - 61 - 65 - 168 .	.207 - 206 .
.201 - 199 - 174 .	.181 - 176 - 175 .
المشتبة 127 .	.176 .مرسي آكلو
المنصورية 40 .	.174 .مرسي الجديدة
المهدومة 12 .	.174 .مرسي الجديدة
المهدية 60 .	.102 - 174 .مرسي الدار البيضاء
حرف (ن)	
نهر تاركي 126 .	.181 .مرسي طرفاية
نهر سبو 56 .	.199 - 79 - 11 .
النوبة 191 .	.25 .مرسي العدوتين
النيڭرو 87 .	.25 .مرسي العرائش
	.127 .مسجد أهل فاس

	حرف (و)
وادي التفيفينغ .40	
وادي نول 175 - 176 - 177 - .181	
وادي النيكرو .88	
وادي والغاس 176 - 177 ،	
وجدة 13 - 27 - 33 - 49 - 50 - 15 - 51 - 60 - 143 - 146 .	
وطن الجزائر .45	
وهران 42 - 43 .	
	حرف (ي)
بنبع .75	
	وادي آزمور 12 .
	وادي آسمير 88 .
	وادي آكراز 100 .
	وادي ايسلى 51 - 56 .
	وادي زيز 103 .
	وادي العبيد 207 .
	وادي مكس 70 .
	وادي النجاة 136 - 169 .
	وادي نفيس 126 .